الطيّب صالح

مختارات



٤

للمدن تفرد وحديث: الغرب



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٤

للمدن تفرد وحديث: الغرب



CITIES ARE UNIQUE, EACH TELLS
A DIFFERENT TALE
(WEST)
By
El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب
محمود صالح عثمان صالح

First Published in April 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21195-4

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: نيسان/أبريل ٢٠٠٥

الإهداء

إلى زوجتي جوليا وبناتي زينب وسارة
وسميرة لأنهن الدعامة والركيزة

المحتويات

١

باريس

ليس هذا قلب باريس. باريس لها أكثر من قلب. ولكنه أوضح علامة في المدينة. تراه حيثما كنت، مضيئاً بالليل، وبالنهار يلمع في شمس الصيف، وإذا كان الفصل شتاء، يأخذ لوناً رمادياً داكناً.

تخرج من مبنى منظمة اليونسكو في (بلاس فنتنوا). تتجه يساراً حتى تصل إلى شارع (سوفْرِن) الواسع، تتجه فيه يميناً وتسير ناحية النهر، لن تسير طويلاً. عند ضفة النهر على يمينك تجد البرج، (برج إيفل).

يخبرك الدليل السياحي، أنه أقيم في عامين من عام ١٨٨٧، حتى عام ١٨٨٩، وأن ارتفاعه ٩٨٤ قدماً، ويزن سبعة آلاف طن، وكلّف سبعة ملايين ونصف مليون فرنك، رغم حجمه الهائل، فإنك لا تحس به جسماً صلباً، لأنه مفتوح على الأفق من النواحي

جميعها. يرتفع في شكل هرمي، وينتهي بمسلة طويلة من الحديد. أحد أعاجيب الدنيا، وواحد من أهمّ رموز باريس. يصفه المفكر الفرنسي الكبير (رولان بارْتْ) قائلاً:

«... في أي فصل من فصول السنة، في الضباب والغيم، في الأيام التي لا تشرق فيها الشمس، وفي أيام الصحو، في المطر، أينما كنت... ثمّة البرج ـ يتغلغل في نسيج الحياة اليومية حتى لا تستطيع أن تتصوّر له صفات محددة. مثل ظاهرة من ظواهر الطبيعة، يتساءل الإنسان عن معناها إلى ما لا نهاية، ولكن وجودها ثابت بما لا يدع مجالاً للشك...».

«... بالإضافة إلى ما يعنيه البرج لأهل باريس، فإنه ينفذ، عند الناس قاطبة، إلى مستودع التداعيات الدفينة في مخيلاتهم. هيئته البدائية البسيطة، تُسبغ عليه صفة لغز لا قرار له. إنه ـ حسب ما يشُط بنا الخيال ـ رمز باريس، رمز الحداثة، الاتصالات، العلم، القرن التاسع عشر، صاروخ، جذع، ونْش، Phallus (رمز الذكورة)... برق، قضيبُ حديد، حشرة. يشتمل على أنواع أحلامنا كلها. إنه (العلامة التي لا مهرب منها... وظيفته المثلوجية الوحيدة، كما يبدو في شكله البسيط، أن يجمع القاعدة إلى القمة، أو الأرض إلى السماء، كما عبّر الشاعر...».

«... يجذب البرج المعنى إليه، كما تجذب الأسلاك الصواعق. إنه يلعب بالنسبة لعشاق اصطياد المعاني، دوراً مدهشاً... إنه المعنى الذي يأخذونه من تجاربهم وأحلامهم وتاريخهم، دون أن يكتسب هذا المعنى بعداً نهائياً ومحدداً».

كتب (رولان بارْت) هذا، في مقالة نُشرت باللغة الفرنسية، عام ١٩٧٠ أو نحوها، ونشرت باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٩ مع مجموعة مقالات. وهو كما لا يخفى، من كبار علماء (السيميولوجية) ومن أحْبار المذاهب الحديثة في النقد. ولد عام ١٩١٥ وتوفي عام ١٩٨٠. وكان إلى حين وفاته أستاذاً في الـ(كوليج دي فرانس). يصفه البعض بأنه (البنيوي الذي وضع علماً للأدب). وقد ناصر (الرواية الجديدة) ونادى بما سماه (موت المؤلف)، يقصد أن النّص هو المُعوَّل، وأن المؤلف لا أهمية له. ذلك لم يمنعه هو نفسه أن يكتب عن (راسين) و(بلزاك). وقد كان مثار اهتمام عظيم، بشخصه وبفكره، لا يقل عن الاهتمام الذي أثاره (جان بول سارتر) في الخمسينيات والستينيات. مساهماته الفكرية لا تنكر، وأثره واضح في كثير ممّا يكتب من نقد أدبي هذه الأيام، حتى في العالم العربي.

قارن بين وصفه لـ(برج إيفل) وبين هذا الوصف في قصّة تسمى (دومة ودْ حامد) لشجرة دوم، في قرية في شمال السودان. والدوم كما تعلم مثل النخل، إلا أنه أكبر وأطول. وقد نشرت القصة باللغة العربية عام ١٩٦٠، ونُشرت مترجمة باللغة الإنجليزية عام ١٩٦١، أو نحوها:

«ها هي ذي.. دومة ودْ حامد. انظر إليها شامخة برأسها إلى السماء، انظر إليها ضاربة بعروقها في الأرض، انظر إلى جذعها المكتنز الممتلئ كقامة المرأة البدينة، وإلى الجريد في أعلاها كأنه عُرف المهر الجامحة، حين تميل الشمس وقت العصر، ترسل الدومة ظلها من هذه الرّبوة العالية عبر النهر، فيستظل به الجالس على الضفة الأُخرى. وحين تصعد الشمس وقت الضحى، يمتد ظل

الدومة فوق الأرض المزروعة والبيوت حتى يصل إلى المقبرة.

أتراها عقاباً أسطورياً باسطاً جناحيه على البلد بكلّ ما فيها...».

«... أغلب الظن أنها نمت وحدها.. ولكن ما من أحد يذكر أنه رآها على غير حالتها التي رأيتها عليها الآن. أبناؤنا فتحوا أعينهم فوجودها تشرف على البلد. ونحن حين ترتدّ بنا ذكريات الطفولة إلى الوراء، إلى ذلك الحد الفاصل الذي لا نذكر بعده شيئاً، نجد دومة عملاقة تقف على شط في عقولنا، كل ما بعده طلاسم، فكأنها الحد بين الليل والنهار. كأنها ذلك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر، ولكنه يسبق طلوع الفجر (...) كل جيل يجيء، يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده ونمت معه (...) وهكذا يا بني. ما من رجل أو امرأة، طفل أو شيخ، يحلم في ليلة، إلّا ويرى دومة وَدْ حامد، في موضع ما من حلمه...».

الفرق شاسع بالطبع، كالفارق بين قرية في شمال السودان وبين باريس، كالفارق بين شجرة دوم تطل على نهر النيل، وبرج من الحديد زنته سبعة آلاف طن، يطل على نهر السين.

إنما أحسن من هذا وذاك، ما صنعه أبو عبادة البحتري منذ أكثر من ألف عام. لا يغرنّك تذاكي (الحبر) الفرنسي، وتلاعبه بالكلمات والأفكار كمثل قوله «البرج جماد يَرى (بفتح الياء) ونظرة تُرى (بضم التاء). إنه فعل تام، لازمٌ ومتعدّ». تحت هذا اللعب الذكي فكرة بسيطة، هي أن برج إيفل (رمز).

كذلك فعل البحتري في قصيدته السينية العصيمة عن (الإيوان).

الرمز عند العلاّمة الفرنسي (فارغ) يملؤه الرائي بالصور والأحاسيس والمعاني، كيف يشاء ـ وهذه فكرة أساس في مذهب الأستاذ (بارت). أما البحتري فقد صنع رمزاً داخله مجموعة رموز، مثل كهف مسحور مليء بالفجاءات. لغز وراءه لغز. المتلقي لا يملأ بتخيلاته فراغاً كاملاً، ولكنه يملأ فراغات بين دروب المعاني التي اختطها الشاعر سلفاً وعن عمد.

إنها قصة طويلة ليس هذا محلها، ولكن من يوازن لك في زحمة هذه السّوق، بين أبي عبادة البحتري و(رولان بارت)؟ وهل كانت بغداد زمان البحتري إلّا كمثل باريس على عهد بارت؟ وهل (دومة وذْ حامد) إلّا (برج وذْ حامد)؟ وهل (برج إيفل) إلّا (دومة باريس؟).

■ ■ ■

لن تجد مدينة تمشي في شوارعها ليلاً أو نهاراً خيراً من باريس. مدينة كأنها متحف مفتوح. طبقات من التاريخ تمتد أكثر من ألفي عام، متراكمة بعضها فوق بعض. الوثنية والمسيحية. الملكية والثورة، عالم البحر الأبيض الجنوبي والعالم الجرماني الشمالي. العالم الكلاسيكي القديم وعالم التكنولوجيا المفرط في الحداثة. المحافظة الصارمة والتحرر المنفلت من كل القيود. تخطر لك أفكار متناقضة وأنت تسير. ترى شيئاً فتقول، باريس هي هذا، ثم تسير بضع خطوات، فإذا المدينة، وكأنها تعبث بك، تقدم لك دليلاً آخر، مناقضاً تماماً لما رأيته من قبل.

هذه مدينة لم تُخلق لتنطوي على نفسها، ولكن لتنظر إلى المفتونين

بها وهم يمعنون النظر في مفاتنها. وكأنما البارون (هوسْمان) وضع ذلك في اعتباره. الشوارع واسعة، على جوانبها دائماً طرقات للمشاة. وحتى الشوارع الضيقة، بها طرقات للمشاة. نادراً ما تمتد في خطوط مستقيمة من بدايتها إلى نهايتها، ولكن فجأة تجد ميداناً إذ لن تتوقع أن تجد ميداناً، وإذا شوارع أخرى تخرج في زوايا حادة ذات اليمين وذات اليسار.

روح (الأمبراطور)، القائد العبقري، نابليون بونابارت، قد ترفرف على باريس. لكنك لا تحس بوجوده إلا إذا زرت ضريحه في الـ«أنفاليد». نابليون الذي ترك أثراً أوضح، وأعطى المدينة هيئتها التي هي عليها الآن، هو ابن أخيه، نابليون الثالث. وهذا أيضاً من بعض سخريات التاريخ الفرنسي، مثل شوارع باريس. ملوك آل بوربون ذهبوا ثم عادوا ثم ذهبوا. والثورة الفرنسية بقيت حين بدا أنها لن تستطيع البقاء، وحين استتب لها الأمر، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، فجأة رحلت. وكان في موتها حياتها، فإن روحها تغلغلت في باريس وفي فرنسا وما وراءهما. وآل بونابارت أقاموا ثم رحلوا، ثم عادوا ثم ذهبوا.

أخيراً استقرت باريس، وفرنسا بطبيعة الحال، على وضع لا يُحسنه إلا الفرنسيون. جمهورية ثورية كأنها ملكية. انظر إلى ميتران ومن قبله الجنرال ديغول. ودولة كاثوليكية وعلمانية في الوقت نفسه. ومجتمع لعله أكثر مجتمع في أوروبا اشتراكية، وفي الوقت نفسه أكثر مجتمعات أوروبا رأسمالية.

...

لا يسعك إلا أن تعجب بهذه المهارة في عمل توازن بين نقائض يصعب التوازن بينها. إنه دليل على مرونة فكرية وصلابة، وثقة

بالنفس نادرة المثال. ولعل في تاريخهم ما يعين على قَدْر من فهم ذلك. يقول المؤرخ الإنجليزي الكبير (اتش... أيه. إل. فشر H.A.L. Fisher):

«عَهْدُ (كلوفيس) مؤسس الأسرة الميروفنجية، وأول من أنشأ دولة فرنسا (٤٨١ ـ ٥١١)، تميز بثلاثة انتصارات. الأول انتصاره على (سياقريَسْ) ملك الرومان في (سواسون) عام ٤٨٦، والثاني على الألمان في الإلزاس بعد عشر سنوات، والثالث على (الايكْ) ملك الـ (فزيقوث) بالقرب من (بواتيه) عام ٥٠٧، بعد انتصاره الأول، انتقل (كلوفيس) من (سواسون) إلى باريس فجعلها عاصمته. وبعد انتصاره الثاني تحوّل من الوثنية إلى الكاثوليكية. وبعد انتصاره الثالث، طرد أعداءه الـ (فزيقوث) إلى إسبانيا، ودفع بحدود مملكته إلى جبال البرنيس. وسواء كان تحوّل (كلوفيس) إلى المسيحية بسبب تأثير زوجته (كلوتِلْدا) الأميرة البيرْقندية أو لأنه آمن أن المسيح هو الذي نصره على أعدائه الألمان، أو بسبب حسابات سياسية ذكية، فإن الأمر البالغ الأهمية هو أن قائد الفرنجة السالانيين، أكبر القبائل الجرمانية، أصبح في عام ٤٩٦م حامي العقيدة الكاثوليكية...».

«التحالف الطويل بين الملكية الفرنسية وكنيسة روما، الذي انتهى عام ١٨٣٠، بفرار آخر ملوك البوربون من باريس أمام غضب الجماهير والدهماء، تعمّد بالدم في ساحة القتال في الإلزاس، قبل ألف وثلاثمائة عام. كانت نقطة تحوّل في تاريخ الـ (غال) بل وتاريخ أوروبا، حين أصبحت الكنيسة الكاثوليكية، سيّدة بلا منازع، من سواحل الأطلسي حتى نهر الراين، بعد أن أذعن ملك (همجي) لسلطان الكنيسة ورضي أن يحكم بواسطة الأساقفة حسب النظم

الإدارية التي أعطتها روما في عهودها الأخيرة إلى فرنسا في القرون الوسطى. قائد محارب، وضع نفسه على رأس كنيسة مقاتلة».

جاءت الثورة الفرنسية، متأثرة بأفكار (روسو) و(فولتير) والأفكار العقلانية من الـ (رنيسانْس) وأرادت أن تقضي على العلاقة بين الكنيسة والدولة قضاء مُبرَماً، وذهبت في ذلك مذاهب بعيدة في التطرّف. لكنها لم تفل، وبقيت فرنسا إلى اليوم، دولة كاثوليكية وثورية في الوقت نفسه.

وها هو ذا الدليل، ماثل أمامك، قف على جسر (بونت نفْ ـ Pont Neuf) عند رأس أصغر الجزيرتين. إنه أقدم جسر في باريس. افتتح عام ١٦٠٤ في عهد الملك هنري الرابع. انظر ناحية الشرق. بل انظر في أي اتجاه تشاء، فسوف يرتد بصرك مكرهاً إلى هذا الهيكل الضخم الذي يجثم كالجبل على وجه الأرض، كاتدرائية (نوتردام دي باري). بنوها على الطراز القوطي الصرف، متعمدين أن يملأ البناء أكبر حيّز من الفراغ، مهيمناً على الأفق، سادّاً منافذ الخيال.

بعد ذلك تعلّموا من المعمار الإسلامي في الأندلس أن يوسعوا القوس القوطي، ويُبسطوا الأعمدة، ويحاكوا رشاقة المآذن في الأبراج، ويقتصدوا في الزخرفة، ويخففوا من كتل الصخر التي تجعل العمارة عبئاً ثقيلاً على جسم الأرض.

كان المستشرق الفرنسي (ماسينْيون) رجلاً منصفاً. قال إن المسلمين صنعوا في الأندلس، عمارة متينة راسخة في الأرض، وفي الوقت نفسه تكاد تطير في الهواء لخفتها ورشاقتها.

٢

أوسلو

بلاد (اساكندنافيا) تستهويني منذ أن زرت الدنمارك قبل أكثر من أربعين عاماً ـ تصور! ـ والسويد منذ عشرين. إنما ذلك كان في الربيع وفي الصيف، عنيتُ الحياة.

الآن الشتاء يزحف، فما لي وللنرويج؟ هذه بلادُ الشمس فيها إما أنها لا تشرق، وإما أنها لا تغيب. لقد فعلنا وفعلنا، كما وصف ذلك الخليفة العليم ببواطن الأمور، ولم يبق إلا أن نجد طقساً معتدلاً وصديقاً «يحمل عنا مؤونة التكلّف».

استوضحت على التلفون تلك السيدة الفاضلة، واسمها (سوويلي اينتيلا) من المجلس النرويجي للبحوث، وكانت قد كتبتا لي، هي والدكتورة (غنفر ميدل) من قسم اللغة العربية في جامعة أوسلو، وما كنت أدرك من قبل، أن جامعة أوسلو فيها قسم للغة العربية. (هل

يا ترى في أي من جامعاتنا أقسام لتدريس اللغة النرويجية أو اللغات الاسكندنافية؟).

قالت تلك السيدة الفاضلة تفسّر سرّ دعوتهم إياي للسفر إلى أوسلو:

«البرنامج الدولي للهجرة والعلاقات الإثنية في المجلس النرويجي للبحوث يعقد مؤتمراً لمناقشة قضايا الهجرة. ولعلّك تعلم أن عندنا عدداً من المهاجرين المسلمين. ونحن نريدك أن تلقي كلمة في المؤتمر. وكما ذكرت لك (غُنْفر ميدل) في رسالتها، فهي تريدك أيضاً أن تتحدث إلى طلبتها في قسم اللغة العربية».

هذا أمر سهل، ولكنّ الهجرة وقضاياها؟ إيش درّاني بالهجرة؟ إنهم ترجموا رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) إلى النرويجية منذ عام ١٩٧٨، فلعلّهم لذلك يظنون أنني أصبحت خبيراً في الهجرة.

أليس أفيَد لهم أن يدعوا أحد هؤلاء الأساتذة المختصين؟

«سوف يكون في المؤتمر مختصون ولكننا نريد منك أن تتحدث بوصفك كاتباً وإنساناً جرب الهجرة».

في ما بعد، أخبروني أنهم جعلوا عنوان الكلمة (الهجرة إلى الشمال).

هل أنا حقاً مهاجر؟ أم أنني مجرد إنسان يعيش خارج وطنه؟ أم أنني كما قال (الأستاذ) رحمه الله:

غـنـيٌّ عـن الأوطـان لا يـسـتـخـفُّـنـي
إلـى بـلـد سـافـرتُ عـنـه إيـابُ

إنما أنت يا مولاي فلتةُ الزمان وفريد العصور، فأيّ أرض تقلُّك أو سماء تظلُّك؟ وهل أنا وأمثالي إلا من غمار الناس، فكيف لنا بالسلوان عن مفارقة الأوطان وبُعاد الخلاّن؟ وهل:

«... إلـى شـمّ الخُزامـى ونـظـرة
إلى قَـرْقـرَى قبـل الممـات سبيـلُ؟».

وكذلك، رغم أنني تهيّبتُ الدخول في بحر لا أحسن السباحة فيه، وأنني خفت صقيع (إسكندناوه) على مشارف فصل الشتاء، فقد عاودني داء الرحيل، وتذكرت أنني لم أزر (أوسلو) من قبل، فعقدت العزم وقلت على بركة الله.

زرت الدنمارك عام أربعة وخمسين، وكنتُ أحضرت معي من لندن شهراً كاملاً قلت يكفيني للتجوّل في بلاد اسكندنافيا، أخرج من الدنمارك إلى السويد ثم إلى النرويج.

لكنّني استطيبت (القرى) في (كوبنهاجن)، فـ (دمرتُ) ثمة الشهر بطوله. وكلمة (دمر) بفتح الدال والميم فصيحة، من معانيها (الإناخة والمقام). ولذلك عندنا مدينة (الدّامر)، دامر المجذوب، دار الشاعر الفحل محمد المهدي رحمه الله.

ومولانا أبو الطيّب زعم بخلاف ذلك حين قال:

ذرانـي والـفـلاةَ بـلا دلـيـل
ووجـهـي والـهـجـيـر بـلا لـثـام

إنـــي أســـتـــريـــح بـــذي وهـــذا
وأتـــعـــب بـــالإنـــاخـــة والمقـــام

يا زول! إنك لم تُنزل رحالك في (كوبنهاجن) في عزّ الصيف وربيع العمر وإقبال الزمان!

هذا وحين حطت الطائرة أول المساء، إذا ظلام كالذي وصفه امرؤ القيس، فبدا لي أنني أخطأت التقدير. ثم إذا بتلك السيدة الفاضلة في انتظاري.

قلت لها ونحن في طريقنا إلى الهوتيل:
«كيف تنطقين اسمك؟».
فأجابتني بلسان عربي مبين:
«أنا مديل.. مجدل.. المجدلية».
«وأين تعلّمت أن تتحدثي العربية بهذه الطلاقة؟».
«في مصر».

■ ■ ■

في هذه المدن في أقصى الشمال الأوروبي، جاذبية من نوع آخر، غير التي تجدها في الجنوب على البحر المتوسط. ذلك عالم أقرب إلى مزاجنا لما فيه من ضوء ودفء وحيوية وضوضاء. هنا، تكون الجاذبية ربما، في الهدوء والنظام والبساطة.

البساطة خاصة، إنهم ارتفعوا بها إلى أن جعلوها قيمة جمالية عليا، في الحياة ونظم الإدارة والحكم، أصبحت (الوظيفة

Functionalism) سمة غالبة على كل ما يُنتج في بلاد اسكندنافيا. الخطوط المستقيمة والطوب الأحمر في المعمار كما في قاعة البلدية في استكهولم التي يضرب بها المثل. والخشب الأبيض والبعد عن التزويق في الأثاث، والثياب، والطعام، والشراب.

لا يوجد معمار قوطي ـ لا يوجد أثاث (لوي كانز). هذه نتاج الخيال الأوروبي المتوسطي. الخيال المُغرم بالتهويل والتبذير والتزويق بلا ضرورة. هؤلاء عندهم، الشيء يؤدي (الوظيفة) المطلوبة منه، لا أكثر ولا أقل.

لكنك حين تأخذ تقرأ في تاريخهم، تجد أن هذه البلاد الساكنة الوادعة، مرت بمراحل من الفوضى والعنف، ليس أهون مما تمرّ به بعض بلدان أفريقيا هذه الأيام. بل إن النرويج ـ حيث تقدم جائزة نوبل للسلام ـ قد أنتجت نوعاً من المغامرين، ربما لم يشهد العالم مثيلهم من قبل ولا من بعد في دمويتهم وتوحشهم، أعني (الفايكنج) الذين استمر نفوذهم ما بين عام ٨٠٠ إلى عام ١٠٣٠ ميلادية.

كانوا قراصنة، لصوص بحر، وعبدة أوثان. وكان أكبر آلهتهم يدعى (تور ـ Thor)، إله الرّعب، حسب معتقدهم. وقد اخترعوا نوعاً من السفن المستطيلة سريعة الحركة، فأثاروا بها الرعب في بحر الشمال والبلطيق، وأبعد منهما.

كانوا جوعى للأرض، وفوق ذلك كان بهم جنون للفتك والدمار. وكان من عادتهم إذا غزوا أرضاً أن يبيدوا سكانها قاطبة إذا أرادوا الإقامة، وإلا فإنهم يأخذون النساء والرجال أرقاء، ويذبحون

الأطفال، أو يتركونهم في العراء حتى يموتوا.

كانوا أول أمرهم يغيرون على الكنائس والأديرة على السواحل بغية ما تحويه من تحف ثمينة. وجاء في بعض كتب التاريخ:

«ظهر الفايكنج فجأة ظهوراً مدوياً عام ٧٩٣م حين أغاروا على دير Lindis farne الذي كان من أماكن العبادة الشهيرة في العالم المسيحي، ونهبوه ودمروه، وفي العام الذي يليه أغاروا على كنيسة Jarrow في إقليم Northumbria، وفي العام الذي يليه وصلوا إلى جنوب ويلز بأسطول مكوّن من مائة سفينة».

اضطروا أمام المقاومة الإنجليزية أن يتّجهوا إلى إيرلندة حيث أسسوا مدينة (دبلن) وكان منهم ملك على إيرلندة عام ٨٤٤. ويروى أن الخليفة عبد الرحمن الثاني ملك الأندلس أرسل سفيراً إلى بلاط ذلك الملك (الوثني) فلم يلبث السفير العربي أن وقع في غرام الملكة. وتمضي الرواية فتقول:

«ولمّا لاحظت الملكة خوف السفير العربيّ أن يعلم الملك بالعلاقة بينه وبين زوجته، طمأنته بقولها... ليس في طبعنا الغيرة. ومن عاداتنا أن تمكث المرأة مع زوجها ما طاب لهما ذلك، فإذا ملّ أحدهما الآخر، يفترقان عن طيب خاطر».

كانوا ـ كما تقول الكتب ـ يكثرون من النساء، يتزوج الرجل كيف شاء، وقد يهدي من زوجاته إلى أصدقائه. إنما تلك العادات الوثنية زالت حين استتبّ الأمر للديانة المسيحية التي دخلت أول مرة في القرن العاشر، بل إن النرويج مرّت في ما بعد بمرحلة من الأصولية المسيحية.

كان أول ملك مسيحي على النرويج، الملك (هاكون دن قود ـ هاكون الطيّب) في القرن العاشر. وقد نشأ في بلاط الملك (أثلستان) ملك إنجلترا، وأحضر معه من إنجلترا عدداً من رجال الدين لنشر الديانة المسيحية في النرويج. لكنهم وجدوا صعوبة عظيمة في اقتلاع العادات الوثنية، مثل الفوضى في معاشرة النساء، وقتل الأطفال، وشرب الأنخاب لآلهتهم طوال اليوم، والفظاظة في معاملة الرقيق. وكانوا يقيّمون العبد بأنه يساوي نصف الفلاح، وربع قيمة مالك الأرض. ومالك الأرض يساوي ربع قيمة رئيس القبيلة وثُمن قيمة الملك.

ورغم أن المبشرين المسيحيين غضوا الطرف عن بعض الطقوس الوثنية، وحاولوا إدخال بعضها في الطقوس المسيحية، فإن الدين الجديد لم يجد هوى في نفوس الفايكنج. وحين مات (هاكون)، ماتت المسيحية بموته. وكان على النرويج أن تنتظر مجيء ملك آخر هو (أولاف) الّذي يُسمى (القديس أولاف)، حتى تضرب المسيحية بجذورها.

قبل ذلك توسعت غارات الفايكنج وأحدثوا خراباً عظيماً في أوروبا. ففي عام ٨٥٧، دخلوا مدينة باريس ونهبوها واستباحوها. واضطر الملك (شارل الأصلع) ملك الفرنجة أن يدفع لهم فدية مقدارها ١٣٦٠ كيلوغراماً من الفضة حتى يخرجوا منها، لكنهم عادوا عام ٨٨٥، فدفعوا لهم ٣١٨ كيلوغراماً أخرى، وأباحوا لهم أن يعيثوا فساداً في إقليم (بيرغندي). وقد مكثوا زمناً في إقليم (نورمندي) الذي أخذ اسمه منهم.

وقد أتسع غزوهم حتى حاصروا (لشبونة) وتغلغلوا في البحر الأبيض

المتوسط حتى وصلوا القسطنطينية. وجاء في بعض المصادر:

«هذا المزيج العجيب من الاستعمار والنهب والتجارة والمغامرة، استمر طيلة قرنين بين سقوط الأمبراطورية الرومانية والحملة الصليبية الأولى، وكاد يقتلع جذور المسيحية من أوروبا، كما كاد المسلمون يفعلون من قبل».

■ ■ ■

هل هو خيرٌ أم شرٌ كلُّ هذا الشتات؟
في القاعة الملأى بالوجوه الاسكندنافيّة، كانت وجوههم واضحة لي، يتطلعون كأنهم يريدونني أن أعرف أنهم جاءوا ليشدّوا من أزري. ما أحسنهم في الغربة! لو كنّا في بلادنا ننظر إلى أهلنا، كأنهم على وشك الرحيل، إذاً لأحببناهم أكثر. كذلك قال (الأستاذ):

من رآها بعينها شاقه القُطَّانُ فيها كما تشوق الحمول.

بعد ذلك في قسم اللغة العربيّة بالجامعة، اتضحت الوجوه أكثر. يغلب عليهم العراقيّون، ثم السودانيون، وبعض المصريين والفلسطينيين والسوريين واليمنيين والصوماليين. لم أجد لبنانياً، ويا للغرابة. كل واحد منهم طاقة، ووراء كل واحد منهم قصّة.

في المحاضرة في الصباح، كان كلّ همي أن أبيّن لهم حضارتنا العربيّة الإسلامية، حضارة قامت على الحفاوة بالتنوع والتعدّد والتسامح، وفتح الأبواب للمهاجرين، والترحيب بالغرباء. ولم آلُ جهداً في ضرب الأمثلة. ولعلمي أن بين الحاضرين من قد يظن أننا نكره اليهود لأنهم يهود، فقد قصصت عليهم قصة امرئ القيس مع السموأل.

إنما الأمر ـ كما نعلم ـ ليس سهلاً. أنا وغيري نقول هذا الكلام، ونضرب الأمثال، ونستنطق التاريخ. ثم فجأة يفجر أحدهم قنبلة أو يقتل سائحاً، وإذا كل ما نقوله يذهب هباء.

هؤلاء الاسكندنافيون ـ مثل غيرهم ـ أخذوا نصيبهم من الحروب والعنف، ويريدون الآن أن يخلدوا إلى الحياة مستقرة هادئة، فإما أن تعيش بينهم بالتي هي أحسن، أو تتركهم وشأنهم. وهم والحق يُقال، من أرقى الدول في معاملة الغرباء، بمقتضى القوانين. يضمنون لهم السكن والعمل، أو المعونة المالية إذا لم يتوفر العمل، ويساعدونهم على التأقلم والتغلّب على آلام الغربة.

ولديهم عدّة مؤسسات تُعنى بقضيّة الهجرة، بوصفها واحدة من القضايا الاجتماعيّة الملحة، من أهمها المجلس النرويجي للبحوث الذي ينظم هذا المؤتمر. هذا المجلس هو الذي يضع الاستراتيجيات للدولة، وينسّق بين المؤسسات والجامعات في مجال البحث، وهو ينفق ثلث الاعتمادات الضخمة التي تنفقها الدولة على البحوث في مختلف الميادين.

هذا، وقد كان العراقيون في قسم اللغة العربية بالجامعة، أكثر الحاضرين أسئلة، وكانت أسئلتهم تنمّ عن مضاضة الألم الذي يحسّونه لفراق الوطن. وهل أحدٌ مثلهم في مكابدة الأحزان والأشجان؟

سألتني سيدة عراقيّة اسمها (نماء)، إن كنتُ اكتسبت من غربتي حكمة قد تنفعهم في تحمل الغربة، فما وجدت أنني تعلّمت شيئاً. وبعد (اللقاء) جاءني عراقيّ اسمه عبد الستار الجابري، أنشدني شعراً جاء فيه:

هذه الغربة تبقى وأنا سكران في حانتها أملأ الكاسات من دمعي وهي تبغي جسدي.

بعد ذلك، لمّا لقيت الدكتور عبد المجيد العركي، أنشدني من شعره أبياتاً، فيها مثل تلك الحُرقة. لا عجب، فإن قبيلة (العركيّين) عندنا ـ وهي قبيلة كبيرة تقطن أرض الجزيرة ـ هاجرت قديماً من العراق، لذلك أسموهم (العراقيين ـ العركيّين).

أخبرني أن والدته من (ناوا) في الشمال. قلت له:

«سيد أحمد الحر دلّو أيضاً أمّه من ناوا».
اللّه يطِراه بالخير، لقد قال في (ناوا): ـ

أعـــود إلـــيـــك يـــا نـــاوا
بـــلا جـــاه ولا ســـلـــطـــان
أعـــود إلـــيـــك يـــا نـــاوا
ولـــيـــس مـــعـــي ســـوى أحـــزان
وحـــفـــنـــة نـــار
ســـوى أشـــعـــار

قلت للدكتور عبد المجيد العركي:
«ما الذي جاء بك من ناوا والجزيرة إلى هذه الأصقاع؟».

ضحك، ولو شاء لقال كما قال الآخر:
«... قشمة والعيش جرّاني جاي».

من القشمة المرأة، فهو متزوج من نرويجيّة، وقد كان أهلنا القدماء

يقولون إن الزوجة لا بد أن تجرّ الزوج إلى بلادها.

أخذ شهادة الدكتوراه في الاقتصاد والإدارة من جامعة (بوردو) في فرنسا، وانتهى به المطاف إلى (أوسلو). وهو الآن شخصية مرموقة في النرويج إلى حد أنه أصبح يعلّم النرويجيّين فنون الإدارة. وهذا تحديداً كما ورد في الإنجيل:

«الذي ليس عنده يؤخذ منه، والذي عنده يُعطى ويُزاد».

يحب ابن خلدون، ويقول إن فنون الإدارة الحديثة والحكم، كلها موجودة في كتبه، خاصة المقدمة.

هو أيضاً حرّكت الغربة لسانه بالشعر، وأنشدني من شعره قصيدة يقول فيها:

مضى زمن على لُقياك يا أبتي
عواقبه نوائبُه
مرافئه مفارقُه
مضى زمنٌ عيون الشمس مُغْمضةٌ
ولفح البرد جذلانُ

للّه، ما أصدق قولَه (عيون الشمس مغمضةٌ ولفحُ البرد جذلان).

هل هو والجابريّ، أخذا الدموع من أمرئ القيس، أوّل النازحين؟

لقد زعم أن صاحبه هو الذي بكى، لكنك تستطيع أن تجزم أن أمرأ

القيس أيضاً بكى، بل بكى بحُرقة أشد، فقد كانت المأساة مأساته هو.
«بكى صاحبي لمّا...»

كأن العالم كلّه (روم). وكأننا كلّنا ما نزال (لاحقان بقيصرا)!

■ ■ ■

كان عليّ أن أزور أوسلو، لأفهم مغزى قول الكاتب النرويجي العظيم (هنرك أبسن)، على لسان البطل، في ختام مسرحيّته (الأشباح): «الشمس! الشمس!».

ها هي ذي تشرق ساطعة كأنّك في الربيع، بعد الظلام والمطر يوم أمس. ما أعظمها ثروة! نحن في بلادنا لا نقدّرها، لأنها تطلع علينا بلا انقطاع، يوماً بعد يوم. إنما في الشتاء، في هذه المجاهل الشمالية، كم هو عزيز ذلك الحبور الذي يملأ القلب لمجرد أنك تراها ساطعة.

المدينة تبدو الآن كأنها مدينة أخرى. أستطيع أن أرى بوضوح من نافذة غرفتي في الطابق السابع، الخليج الذي تنحني عليه البلدة بكاملها، كأنها توشك أن تسقط في البحر، والجزر الصغيرة المتناثرة، والسفن الضخمة الراسية في الميناء. ذلك القصر الملكي. وذاك شارع (كارل يوهان). وذاك مبنى البرلمان الذي يسمونه (ستورتُن) - يعني البيت الكبير. وذاك متحف (مُنْك)، الرسام صاحب اللوحة الشهيرة (الصرخة). وتلك الدّار الصغيرة في أول شارع (كارل يوهان) هي أشهر دار في بلاد اسكندنافيا بأسرها، وسوف تكون أوّل ما نقصد في هذا الصباح الجميل.

جاءني طارق صالح الملك، وهو شاب تعرفت به في لقاء الجامعة، من أهلنا شايقيّة (حلفاية الملوك). و(مَكْ) بلهجتنا تعني (ملك)، فأولئك أهله. و(حلفاية الملوك) هو الاسم القديم لما يُعرف اليوم بـ (الخرطوم بحري) إحدى المدن الثلاث التي تتكوّن منها العاصمة المثلثة، حيث يربض أخواننا سادة الخرطوم الجُدد. إنما كما سأل الشاعر الكتيَّابي (عاد لمتين في دبّابة؟).

لكن ما لي ولهذا؟ هذا شاب في نحو الثلاثين، من سودانيّي الـ (دياسبورا)، يقيم في أوسلو ويعمل ويدرس، ويتحدث النرويجية ـ كما بدا لي ـ بطلاقة تدعو للدهشة، فهي لغة مثل كلام الطير وأعجب.

سِرنا في الحديقة العامة، أمام القصر الملكي على يميننا. لو لم أكن أعلم أنه قصر الملك، لحسبته داراً من دور أحد الميسورين في البلد. عطلٌ تماماً من شارات الأبهة، وليس على بواباته حرس.

هذه دولة، رغم أنها (خليجية بتروليّة) ـ إذا صحّ القول ـ ولكنّها تسير فيما يبدو على ذلك المبدأ الاسكندنافي الراسخ، التقشّف والبساطة. لا ترى أي مظاهر للطّفرة. دولة على قدْر حالها. سكّانها نحو أربعة ملايين، وعاصمتها يسكنها نحو مئتي ألف، تقطعها سيراً على القدم من أولها إلى آخرها، في أقل من ساعة. وملكها ـ كما يصف لك النرويجيون ـ كثيراً ما يُرى في تلك الحديقة بعينها يتمشى مع كلبه، وأحياناً يُرى جالساً على كنبة يحادث أحد أفراد الشعب، وكأنّه صديق قديم.

أما الدار التي هي أشهر دار في هذه البلدة، بل في بلاد اسكندنافيا بأسرها، فهي الدار التي ندخلها الآن، وقد جعلوها متحفاً ومزاراً.

هنا قضى ملك النرويج غير المتوّج، الكاتب المسرحي (هنرك إبسن) السنوات الأخيرة من حياته.

تقوم في أول شارع (كارل يوهان) وهو الشارع الرئيسي في أوسلو. و(كارل يوهان) هذا، ليس نرويجياً، ولكنه أحد ملوك السويد. وقد سمّوا الشارع باسمه حين كانت النرويج مستعمرة للسويد. ولما استقلت عام ١٩٠٥، لم يغيّروا الاسم، بل تركوه على حاله، بذلك الأسلوب الاسكندنافي العجيب، الخليط من اللاّمبالاة، وترك الأشياء للزمن، يفعل فيها فعله. وما في الاسم على أيّ حال؟ وما فائدة تغيير الاسم على أي حال؟

وأعجب من ذلك أن (كارل يوهان)، لم يكن سويدياً أصلاً، بل فرنسياً من مارشالات الأمبراطور (نابليون بونابارت) واسمه (جان بابتيست بيرنادوت). وكما كان يحدث في أوروبا تلك الأيام، اختاره ملك السويد الملك كارل الثالث عشر وليّاً لعهده عام ١٨١٠. وكان نابليون يخشاه منافساً له، فلم يمانع. وفي عام ١٨١٨، حين اعتلى (بيرنادوت) عرش السويد، اتخذ اسم (كارل يوهان)، وكارل، هو الاسم الغالب على ملوك السويد.

ومن سخريات الأقدار، أن نابليون العبقري، مضى وانقطع عقبُه، لكن ذرية تابعه (بيرنادوت) هم ملوك السويد إلى اليوم، واسمه المستعار على أكبر شارع في عاصمة دولة أخرى هي النرويج!

■ ■ ■

يُعتبَر (هنْرك إبْسن) واحداً من حفنة يُعَدون على أصابع اليد، يُعترف

بأنهم أعظم كتّاب المسرح في تاريخ العالم منذ عهد اليونان إلى اليوم. وبعض النُقّاد يشبهونه بشكسبير. وهو أول نرويجي يُتوّج زعيماً لحركة فنيّة وفكريّة شملت العالم.

يدعو إلى الدهشة أكثر، أن (إبسن) لم يُنجز ذلك كلّه بلغة من اللّغات الأوروبية الكبرى، مثل الفرنسيّة والإنجليزية والألمانية، بل بلغة أوروبية مغمورة لدولة أوروبيّة لا يُؤبَه لها كانت ما تزال مستعمرة.

كانت اللّغة السائدة هي اللّغة الدنماركية، إذ إن الدنمارك استعمرت النرويج زهاء ثلاثمائة عام قبل أن تستعمرها السويد. ولم تكن اللغة النرويجية قد استقرّت بعد على حال. ويرجع الفضل إلى (إبسن) أكثر من غيره أنه طوّعها للتعبير عن الأحاسيس العميقة والأفكار المعقّدة. ولذلك ساهم مساهمة عظيمة في إعطاء النرويج (هوّيتها القوميّة)، كما فعل بدرجة أقل الرسام (إدوارد مُنْك) والموسيقى (قريق).

لا عجب أن (إبسن) حين توفّي عام ١٩٠٦، (بعد عام واحد من استقلال النرويج)، اهتزّت الدولة، وشيّعوه في احتفال مهيب، لم تشهد مدينة (أوسلو) مثله من قبل، ولن تشهد من بعد.

حين دخلنا الدار في أوّل شارع (كارل يوهان) وجدناها داراً صارمة في تقشفها، وقد أخبرنا الدليل، أنهم تركوها على حالها، لم يغيّروا فيها شيئاً. هنا قضى الكاتب السنوات الأخيرة من حياته بعد أن عاد من إيطاليا، وكانت شهرته في قمّة ارتفاعها.

أوّل ما يتجه نظرك في غرفة الجلوس المتواضعة، إلى مكتب وضع

تحت النافذة الواسعة، من حيث ينهمر الضوء في ذلك الصّباح الجميل. يجذب نظرك بقماءته، أو كأنّما بفعل قوة مغناطيسية تكمن في تلك المساحة من الغرفة. ثمة كان يجلس الكاتب العملاق للكتابة كلّ يوم، لابساً كامل ثيابه. وقد أخبرنا الدليل أنه كان يعمل كأنّه موظف. يجلس منذ الثامنة صباحاً إلى الواحدة، ويعود إلى العمل ساعتين أو ثلاثاً أول المساء. بعد العشاء يمشي إلى مقهى في شارع (كارل يوهان)، حيث يجلس على طاولة محجوزة له دائماً، لا يقترب منه أحد أو يكلّمه أحد، إلّا إذا طلب هو ذلك. تلك الطاولة ما تزال محجوزة له إلى اليوم، وقد علّقوا قبعته على مشجب فوقها، كأنه خرج لأمر وسوف يعود.

تؤدي غرفة الجلوس إلى غرفة صغيرة للطّعام، فيها مائدة تتسع لأربعة أشخاص فقط. وقال لنا الدليل إنّ (إبسن) كان يدور حول تلك المائدة حين تستعصي عليه الأفكار أثناء كتابته. ثم ثلاث غرف للنوم، ومطبخ وحمّام. هذا كلّ ما في الأمر.

ولد (هنرك إبسن) عام ١٨٢٨، في قرية صغيرة جنوب (أوسلو) تُسمّى (سكين) في عائلة فقيرة كما كان معظم الناس في النرويج تلك الأيّام. وعن هذا تقول الموسوعة الفرنسية (Petit Robert)، بتلك الطريقة الفرنسية الجذّابة في وصف الأشياء:

«قضى طفولةً ومراهقةً صعبة بسبب فقر والديه، الأمر الذي أكسبه ميْله للتمرّد وحبّه للحرية».

عمل صبيّاً في صيدلية، ثم عمل في المسرح في مدينة (بيرقن) - المدينة الثانية في النرويج - ثم في (أوسلو). كان يقوم بأعمال يدوية،

ويمثل أحياناً أدواراً صغيرة، ويكتب الشعر والمسرحيات. فيما بعد وجد الدارسون في كتاباته المغمورة في تلك الفترة إرهاصات لعبقريّته التي تفجرت بعد حين.

لم يصادف نجاحاً يذكر، فهاجر من النرويج نحو عام ١٨٦٤، وقضى سبعة وعشرين عاماً مغترباً أغلبها في إيطاليا. ولمّا عاد كانت شهرته قد تأكدت بمسرحياته الصّواعق أمثال (أعمدة المجتمع) و(بيت الدّمية) و(الأشباح) و(بيرقنْت) و(هدا قابلر) و(جون تابريل بوركمان). وهي وغيرها، مسرحيات لا يمر عام على الأكثر، إلّا وتكون معروضة في مسرح أو أكثر من مسارح العالم، بلغة أو بأخرى.

كان وقْع مسرحيات (إبسن) عنيفاً، أولَ ما ظهرت في النرويج، ثم لمّا انتقلت إلى الخارج بلغات أخرى. وعلى سبيل المثال، كتبت صحيفة الـ (ديلي تلغراف) تعليقاً على أوّل عرض لمسرحيّة (الأشباح) في لندن: ـ «.. يا للبشاعة! يا له من عرض يبعث على التقيؤ.. يا للفُحش!.. يا للقرف!.. يا لها من جثّة أدبية متعفّنة!...».

لكن الكاتب العظيم (جورج بيرنارد شو)، أعلن، على طريقته المعهودة في حب الإنصاف والسباحة عكس التيّار:

«الرجّة التي أحدثها (إبسن) في إنجلترا، تعادل الأثر الّذي تحدثه ثلاث انتفاضات شعبية، وستّ حملات صليبية، وزلزال، وغزوتان من جيوش أجنبية. الغزو النورمندي لإنجلترا، لم يكن شيئاً بالقياس إلى الغزو النرويجي».

■ ■ ■

مع كل زيارة لي لبلد من بلاد اسكندنافيا، يزداد إحساسي بأن ثمة وجوه شبهٍ بينها وبين العالم العربيّ. مع فارق عظيم بالطبع وهو أن العرب بحافز الإسلام أقاموا حضارة أثرت على العالم كله، وما تزال تؤثر إلى اليوم. بلاد اسكندنافيا لم تبرز كشخصية مميزة في المجتمع الأوروبي إلّا بعد الحرب العالمية الثانية.

من وجوه الشبه تلك، سمة البداوة، وذلك قد يبدو غريباً لأول وهلة. هم أيضاً لديهم بدو رُحّل كما عند العرب، ينزلون ويرحلون، ويعيشون في رقعة واسعة في أصقاع جليدية قريباً من القطب الشمالي، وتسمّى (لابلاند)، أي أرض اللّاب، وهم يسمون أنفسهم الـ(سامي).

يعيشون في ذلك الإقليم منذ أكثر من ثمانية آلاف عام، وأرضهم تشمل معظم بلاد اسكندنافيا وفنلندة والأقاليم الشمالية من روسيا. ولغتهم تلتقي في جذورها مع اللّغة الفنلندية.

تلك الأرض الجليديّة الواسعة، هي عندهم بمثابة الصحراء عند العرب، وهم مثل العرب مرتبطون بتلك (الصحراء) من ناحية، وبالبحر من ناحية أخرى. ويصح القول أنهم أهل صيد بري وبحري ورعاة إبل.

إبلهم هي قطعان الوعل (الرّينْدير) التي تُعدّ بعشرات الآلاف، وهي عزيزة عندهم مثل الإبل عند العرب. ويقسّمون السنة إلى ثمانية فصول، كلّها مرتبطة بحيوان (الريندير).

يسوقون قطعانهم إلى أماكن الرعي في الوديان شتاء، ويصعدون بها

إلى الجبال صيفاً. وهو حيوان يأكل الطّحلب والعشب.

ومثلما يؤدّي الجمل وظائف عدَّة عند العرب، فكذلك الرّينديرعند الـ (سامي)، فهم يشربون لبنه ويأكلون لحمه ويتدثرون بفروه ويوظفونه أداة للنقل، وتُقاس عزّة الواحد منهم ومكانته من قومه، بحجم القطعان التي يملكها.

ويعقدون في الربيع من كل عام أسواقاً ومواسم واحتفالات كبيرة، أهم شيء فيها هو سباق الرينديرمثل سباق الإبل عند العرب. ويلفت النظر، أن غناءهم الّذي يسمونه (يويك) تطوّر من حُدائهم للوعول مثل حداء العرب لجمالهم.

وقد حدث لهم الشيء نفسه الذي حدث للبدو الرُّحّل في البلاد العربية، فقد حاولت الحكومات الاسكندنافيّة توطينهم وعملت على استقرارهم في تجمعات سكنية في أماكن محددة. وقد أنشأت حكومة النرويج في (كوتوكيتو) وهي حاضرة الإقليم، المدارس والمستشفيات وغيرها، على أمل أن يهجروا حياة البداوة ويستقروا فيها، لكن التجربة لم تنجح تماماً.

كذلك حاولت الدولة أن تفرض عليهم اللغة النرويجية، لكنها لم تُفلح، كما فشلت من قبل محاولةُ إدخالهم في المسيحيّة.

ديانتهم، مثل سائر الشعوب القديمة، تقوم على عبادة الطبيعة، وأهم آلهتهم الشمس والقمر. وعندهم إلهٌ للرعد، وإلهٌ للعواصف، وإلهٌ للخصب وغير ذلك. وظل المبشرون المسيحيّون الأوائل يحاولون إدخالهم في الدين المسيحيّ، ففشلوا معهم كما فشلوا من قبل مع الـ (فايكنج).

وفي القرن السابع عشر، حاول ملك النرويج الملك كرستيان الرابع، أن يدخلهم في المسيحيّة قسراً، ففرض عقوبة الإعدام على كل فرد منهم لا يعتنق المسيحيّة، وأقام لهم كنيسة، فلم يُجْدِ ذلك نفعاً إلّا في حدود ضيقة.

غيّرت الحكومة من سياستها في ما بعد، فاعترفت بلغة الـ (سامي) وثقافتهم، بل إنها صارت تشجّعهم على التمسّك بتراثهم وإحياء ما اندثر منه. وقد منحتهم نوعاً من الاستقلال الذّاتي فكوّنت لهم (برلماناً) هو بمثابة مجلس استشاري. وهم الآن يطالبون بسُلطات أكبر.

أصبحت الحكومة النرويجيّة تأخذ مطالب شعب الـ (سامي) وأعرافهم ومعتقداتهم بعين الاعتبار، إلى حد أنها أوقفت تنفيذ مشاريع كبرى لتوليد الكهرباء من الأنهار، لأنها كانت سوف تتسبب في إغراق مساحات واسعة من الأراضي التي يرعى فيها حيوان الرينديّر.

■ ■ ■

تقول كتب التاريخ، أن العالم المتحضّر ـ يقصدون العالم الأوروبي ـ تجاهل النرويج تجاهلاً كاملاً حتى القرن الثامن الميلادي. لا تكاد تجد لها ذكراً في المصادر القديمة المعروفة.

ولعل العرب والمسلمين الذين لا يكفّون عن الشكوى ـ وهم على حق ـ من تشويه صورتهم في أوروبا وأمريكا، يجدون بعض العزاء أن كاتباً لاتينياً في القرن الأول الميلادي يسمّى (بُمبونْيس ميلا) قال في وصف النرويجيين:

«قوم متوحشون، طعامهم هو بيض الطير، وأقدامهم مشققة لها أظلاف مثل أظلاف الحيوانات ذوات الحافر، وليس لهم غطاء يستر عُريَهم سوى آذانهم الطويلة التي تتدلّى على أجسادهم فيكتفون بها عن الثياب»!

ووصفهم مؤرّخ آخر بأنهم «يعيشون في الغابات عراة بلا قيود، يقضون نهارهم وليلهم في السّكر والعربدة والغناء والرقص ومخالطة النساء دون تمييز ويعيشون أعماراً متطاولة».

ويبدو أن خرافة الأعمار المتطاولة ظلت حتى عهد قريبٍ، ففي القرن التاسع عشر زعم سائح فرنسي أنه وجد في النرويج رجلاً تزوّج من فتاة صغيرة وهو قد بلغ مائة وثلاثة عشر عاماً من عمره، وأنه عاش حتى بلغ مائة وستة وأربعين عاماً!

وفي بعض الروايات الإنجليزية من العصر الوسيط أن النرويجيين «قوم همج متوحشون ليس في قلوبهم أية عواطف إنسانية. لا يخشون اللّه ولا يخشون أحداً من الناس».

هذه التهاويل، وجدت سنداً من الواقع في ما بعد، حين تدفق الـ (فايكنج) النرويجيون على أوروبا مثل الطوفان، فروّعوا لندن وباريس وبرشلونة وسواحل البحر المتوسط حتى بيزنطة. وبينما كان المسيحيون يحتمون وراء الصليب، كان الـ (فايكنج) يحتمون وراء (المطرقة)، رمز إلههم (تور)، إله الرّعد ـ في زعمهم ـ حامي السموات من شر العمالقة، وحامي البشر من شر الشياطين، الّذين من جملتهم (حَمَلة الصليب الأبيض)، كما كانوا يسمون المسيحيين.

وكان من أهم وسائلهم في الحرب، إثارة الرُّعب في قلوب أعدائهم، فكانوا يلجأون إلى أساليب ممعنة في الهمجيّة كأن يطعنوا الأطفال بأسنّة الرماح، ويتركوهم معلقين على جذوع الأشجار، وكانوا حين ينتصرون، يقيمون احتفالات عنيفة صاخبة لا تُراعى فيها قيود ولا حدود، ويشربون الأنخاب من جماجم قتلاهم.

ومن العجيب، أنهم لم يعدموا من يشيد بهم بين الأوروبيين، فقد قال عنهم الفيلسوف الفرنسي، الكبير (مُنتَسكيو) إن جيوشهم قوامها «رجال أحرار في وقت كانت جيوش خصومهم خليطاً من المرتزقة والأجراء والعبيد».

وليس بعيداً أن يجد المرء وجهاً للشبه، من وجهة النظر الأوروبية، بين غزو الـ (فايكنج) والفتح العربي الإسلامي في أوروبا ـ مع الفارق العظيم بطبيعة الحال ـ بين همجية الـ (فايكنج)، والسلوك المتحضر للعرب المسلمين.

الموجتان أعقبت إحداهما الأخرى. الرُّعب الّذي أحدثه ظهور العرب المسلمين على التراب الأوروبي، كأنما تجدد في مخيلتهم وارتبط بالرعب الذي أحدثه ظهور الـ (فايكنج). والعالم الأوروبي (المتحضّر!) الذي انضمت إليه أمريكا مؤخراً، ما يفتأ يخوّف نفسه باحتمال غزوات من أقوام همج، مثل العرب المسلمين، في زعمهم، والـ (فايكنج)، كما كانوا بالفعل. ويبدو أنهم دمغوا العرب والمسلمين، بكثير من الصفات الهمجيّة التي لم يعرفوها عنهم، ولكن عرفوها عن الـ (فايكنج).

اعتمد الـ (فايكنج)، مثل المسلمين على سرعة الحركة ومباغتة العدو

في الحرب. طور المسلمون الأوائل نظاماً عسكرياً متقدماً على أيدي قادة عباقرة أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجرّاح والمثنى بن حارثة الشيباني، يعتمد سرعة الحركة، وتوجيه ضربات كثيفة في بعض الأحيان، واللجوء إلى الكرّ والفر وحرب (العصابات) إذا اقتضى الأمر.

كذلك اعتمد الـ (فايكنج) النرويجيّون على عامل المباغتة وسرعة الحركة والمناورة في البحر بواسطة السفن النحيلة المستطيلة التي ابتدعوها. كانوا فرسان بحر إذ كان العرب فرسان بر. مع فارق عظيم، كما لا يخفى، أن المسلمين كانوا حملة رسالة سماوية، وأولئك لم يكن لهم هدف غير النّهب وإثارة الرّعب.

تغيّر الحال اليوم، كما نعلم، في ما يتعلّق بالنرويج وبقية الدول الاسكندنافية. انخرطت كلها في نظام (العالم المتحضّر) وبقي العرب والمسلمون شعوباً هامشيّة، ما تزال تُحرك المخاوف القديمة والأحقاد القديمة.

٣

هامبورغ

ذلك الدّاء القديم.. داء الرّحيل. ويا حبّذا أيّ فرصة للسفر. هذه المرة سوف أقطع ألمانيا من شمالها الأقصى إلى جنوبها، ثم أتوغّل في بلاد السويسريين الألمان، حيث تنتهي رحلتي عندهم في (بازل).

إنما أنا الآن في بداية الطريق، وصلت لتوّي من لندن في رابعة النهار. الشمس في (هامبورغ) ساطعة وإن كان البرد كما في لندن وأشد. لكنّك على الأقل تنظر إلى الشمس وتحسّ بالدفء.

رحم اللّه غيلان. أبكاه مرآى الثلج في أصفهان، فكيف ببلاد الجرمان؟:

أرِقتُ له والثلجُ بيني وبينه
وحومانُ حزوى فاللّوى والحرائرُ

نظرتُ ورائي نظرةَ الشوقِ بعدما
بدا الجوُّ من (جي) لنا والدساكرُ
لأنظُرَ هل تبدو لعيني نظرةً
بـ(حومانة الزُّرق) الحُمولُ البواكرُ

قلت للسيدة التي تنتظرني، رافعة لافتة عليها اسمي:

«لا بدّ أنك الدكتورة إركا فيرنر».

أجابتني باللّغة الإنجليزية. سيّدة نَصَف، طيّبة الوجه، وأنا هنا في ضيافتها، فهي رئيسة المكتبة المركزية في المدينة، والمشرفة على المكتبات العامة في مقاطعة (همبورغ)، أو بالأحرى (دولة) هامبورغ، فهي Stadt في النظام الفدرالي في ألمانيا.

كان معها سيّدة شابة، رحبت بي بلغة عربيّة سورية لا مراء فيها.
«هل أنت سوريّة؟».

قالت ضاحكة:
«أنا ألمانيّة. تعلّمت اللّغة العربية في دمشق. اسمي باربرا. وسوف أكون مترجمتك».

لقيت بعد ذلك زوجها، وهو شابّ سوري غاية في اللُّطف اسمه دُريد رحّال، وقد كانا لي نعم العون. بل إني لقيت في رحلتي هذه عدداً من الألمانيات اللّائي تعلّمن اللّغة العربيّة في سوريّة، وكلّهن تزوّجن سوريين، قلت لأحدهم:

«يظهر أن السوريين عاملين غزو ثقافي على ألمانيا».

لكنهم ليسوا وحدهم: أيضاً مصريّون وعراقيون وفلسطينيون وسودانيون ولبنانيون، وما شئت، كلهم عاملين غزو ثقافي على ألمانيا.

الرحلة منظمة تنظيماً دقيقاً، كما يتوقّع المرء من الألمان، والسويسريين الألمان وقد رتّبتها (مسز هايدي سومرر) صاحبة دار النشر (لينوس فيرلاغ) في (بازل) بسويسرا. وذلك بمناسبة إعادة نشر رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) باللّغة الألمانية.

هذه الدار تبذل جهداً عظيماً في الترويج للأدب العربي باللّغة الألمانية، وقد نشرت أعمالاً لإميل حبيبي وجمال الغيطاني وغسّان كنفاني وعبد الرحمن منيف وغيرهم. وهي لا تكتفي بالنشر كما تفعل أغلب دور النشر الأوروبية مع الكتاب العربي، ولكنّها تروّج للكتاب في الصحافة والإذاعة والتلفزيون. ذلك كلّه دون مساعدة من أيّ جهة عربية.

مدن تأخذني وتعطيني إلى مدن. وفي كل مدينة أجد من يستقبلني ويودّعني. وكل مدينة تتكفل بنفقة إقامتي فيها، والتذكرة التي توصلني إلى المدينة التالية.

غرف الفنادق تتسع وتضيق، وكرم الضيافة يعلو ويهبط ـ حسب الحالة المالية للمدينة التي تستضيفني. ووراء ذلك (مسز هايدي سومرر)، تتابع مسيرتي من مكتبها في (بازل). تتصل كل يوم بهم وبي لتتأكد أن كل شيء على ما يُرام.

كانت مدينة (هامبورغ) أكرم تلك المدن، لأنها أكثرها ثراء، فهي

العاصمة التجارية لألمانيا وتعدّ أكبر مدن ألمانيا. وأيضاً بسبب تلك السيدة الفاضلة الدكتورة (إركا فيرنر) استقبلت قبلي عدداً من الكاتبات والكتّاب العرب، وقبل وصولي بأسابيع استضافوا جمال الغيطاني.

أحبّت العالم العربي بسبب اهتمامها بأدبه وثقافته وتعرفها على أولئك الكاتبات والكتّاب، وذلك رغم أنها لم تزُر أيّ بلد عربيّ، ولم تتنسّم هواءه ولم تتعرّف ناسه. فكيف ـ لك الخير ـ لو أن أحداً من هذه الوزارات والهيئات والمؤسسات والمنظمات والجامعات والجمعيات والاتحادات ـ لو أن أحداً دعاها ودعا أمثالها لزيارة بلد عربي أو آخر ـ ألا يكون ذلك شيئاً حسناً؟

واتحاد الكتّاب العرب الذي يرأسه الآن سوري، ألا يحسُن به أن يفعل مثل هذا، بدلاً من إصدار بيانات الشجب والتأييد؟

■ ■ ■

(هامبورغ)، أكبر ميناء في ألمانيا، وهي مدينة قديمة، أنشأها الامبراطور (شارلمان) في عام ٨١٠م. نمت واتّسعت وبلغت أوج ازدهارها في القرن الثالث عشر. كانت ملتقى طرق تجارية بحريّة تصل بينها وبين موانئ أوروبا وأمريكا اللاّتينية والعالم الإسلامي والهند والصين.

وكما حدث لمدن أخرى في القرون الوسطى، مثل (جنوا) والبندقية، فقد تطورت (هامبورغ) إلى مدينة أشبه بدولة مستقلة، لكنها، بخلاف هاتين (المدينتين ـ الدولتين) على البحر الأبيض المتوسط،

والبحر الأدرياتكي لم تكن تسعى إلى السيطرة السياسية، بل إلى التجارة والربح.

وفي عام ١٢٤١، اضطرتها الظروف إلى الدخول في حلف مع مدينة (لوبيك Lubeck)، وهي ميناء على بحر الشمال. كان ذلك نواة لحلف واسع انضوت فيه كل المدن البحرية الكبيرة، وعُرف بـ (اتّحاد الهانْزا) ـ كلمة (هانزا) ذات أصل جرماني قديم، ربما غوطي، وتعني (جماعة ـ شركة ـ عصبة)، ومنها (لُفْت ـ هانزا)، الخطوط الجويّة الألمانيّة.

كان الحافز على قيام الحلف أنّ الدنمارك على الساحل المقابل، كانت لها طموحات للسيطرة والتوسع، وكانت تتدخّل في سير الملاحة في بحر الشمال وبحر البلطيق. وظل الحلف تجارياً بحتاً، إلّا في حالات خاصة، حين اضطرت المدن المنضوية فيه إلى التصدّي بقوة السلاح لضغوط الدول الإسكندنافيّة خاصة الدنمارك.

في عام ١٣٧٠، فرضت (الجمهوريات التجارية) كما يسميها بعض المؤرخين، معاهدة (ستراشْلُند) تلك المعاهدة أعطت مدُن (اتحاد الهانزا) التي من بينها (هامبورغ)، السيطرة الكاملة على المضيق الذي يصل بحر الشمال ببحر البلطيق، وأتاحت لها حرية الملاحة وصيد الأسماك، وإذ إن الدنمارك كانت الدولة الإسكندنافية الأكثر عدواناً، فقد حصل الحلف في معاهدة (ستراشْلُند) على حق التدخل في اختيار ملك الدنمارك.

ظلّت المعاهدة سارية المفعول حتى أوائل القرن السابع عشر، حين لمع نجم السويد بزعامة ملكها الموهوب (قُستافس أدُلْفُس). صارت

السويد إلى حين هي القوة العظمى في بحر البلطيق وبحر الشمال وما وراء ذلك شرقاً وجنوباً.

هذا وقد تعرضت مدينة (هامبورغ) إلى محنتين في تاريخها، الأولى عام ١٨٤٢ حين احترق معظم المدينة القديمة. والمحنة الثانية خلال الحرب العالمية الأخيرة، حين كثّف الحلفاء غاراتهم الجوية على المدينة فدمّروا الجزء الأكبر منها.

إلّا أن الألمان بإصرارهم المعهود ودأبهم أعادوا بناءها حجراً حجراً فأصبحت على هيئتها الماضية.

أعادوا رصف الشوارع في الجزء القديم من المدينة بالحجارة كما كانت في القرون الوسطى، وبنوا الكنائس على معمارها الغوطي، والقصور والمباني العامة بالمعمار الـ (نيوكلاسيكي)، والبيوت بالطوب الأحمر على هيئتها الجرمانية التي تجمع بين البساطة والرونق. إلى جانب ذلك قامت عمارات شاهقة على النّمط الحديث الذي راعوا فيه ألّا يتنافر مع المعمار القديم. وقد تمّ كلّ ذلك بمهارة عظيمة، حتى أن الزائر لا يرى في المدينة إلّا أنها ظلّت على هيئتها تلك منذ أن قامت.

ومن الأشياء العجيبة في (هامبورغ) أنها ليست على البحر، رغم أنها ميناء، بل الميناء الكبرى في ألمانيا، فهي تبعد عن البحر بنحو مائة كيلومتر.

حقق الألمان تلك المعجزة الهندسية، بأنهم وسعوا مجرى نهر (ألبي ـ Elbe) الذي تقوم عليه المدينة وعمقوه، فصار يتّسع لمرور السفن العملاقة، عابرة المحيطات. ويُقّدر اليوم عدد السفن التي تدخل ميناء

(هامبورغ) بأكثر من خمسة عشر ألف سفينة في السنة، تحمل قرابة خمسين مليون طن من البضائع.

يحلو للألمان أن يسموا مدينتهم تلك (فينيسيا الشمال) وذلك بسبب البحيرة الاصطناعية الضخمة التي عملوها، والقنوات العديدة التي تشق المدينة كما في (فينيسيا)، والجسور التي مدّوها عليها ويُقدر عددها بألف جسر.

■ ■ ■

كانت النّدوة في مساء اليوم نفسه الذي وصلت فيه، في قاعة واسعة في المكتبة المركزية للمدينة. أراحني ذلك جدّاً وأسعدني، أن أتحدّث في ذلك المناخ، تُطلُّ عليّ ذات اليمين وذات الشمال، صفوف الكتب، كأنني في عشيرة أعرفها وأحبّها ـ لا ضير أنها باللّغة الألمانية ـ جذبتني أول الأمر بطبيعة الحال، الوجوه العربية يغلب عليهم السودانيّون والسوريّون، أيضاً بعض المصريين وبعض الفلسطينيين وبعض العراقيين. هؤلاء عرب الشتات، وارحمتاه للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعاً؟

تجدهم حيثما تذهب، بعضهم مع زوجاتهم ـ وهنّ ألمانيات في الغالب هنا، بطبيعة الحال ـ والبنيّات والوليدات ـ والأسماء عربيّة صرف. هذا قيس وهذا لؤي، وهذه هند وهذه سلمى.

ألمانيا تحسن ضيافتهم، وتتساهل مع اللاجئين السياسيين. أعداد منهم لاجئون سياسيون، خاصة من السودان الذي لم يطرق ذلك الباب من قبل، إنّما هذه سنوات شدة وقحط.

ربما تنقلب الحال عليهم وشيكاً، لأن ألمانيا وبقية الدول الأوروبية أخذت توحد سياساتها إزاء المهاجرين إليها، وتصعب قوانينها. يريدون أن يغلقوا أبوابهم دون فقراء العالم الثالث، ويتقلّبوا في رفاههم دون منغِّص.

ذلك تحت ضغط الحركات اليمينية المتطرّفة. ومن غرائب الأمور في ألمانيا، أن أكثر التطرف وكراهية الأجانب يأتي من الشرق، حيث كانوا حتى الأمس القريب، يرفعون شعارات الأخاء وتضامن الطبقات الكادحة!

صنعتُ كما طلبت منّي تلك السيدة الطيّبة (إركا فاينر)، بعد أن قدمتني تحدثت قليلاً باللغة العربية وترجمت (باربرا) كلامي. فيما بعد أثناء النقاش، كنت إذا سألني أحد باللغة الإنجليزية، أجيبه باللغة الإنجليزية، وإذا سألني باللغة الألمانية، تترجم (باربرا) وأجيب أنا باللغة العربيّة. وكان حالي مع العرب أيسر من ذلك. عملية تواصل معقدة بعض الشيء، لكنها هانت بل راقت لي مع تقدم المساء، وأحسست أن بعض الأفكار ـ جلّت أم صغُرت ـ قد قفزت فوق حواجز اللّغة ووصلت إلى عقول أولئك الألمان الطيبين عند بحر الشمال وبحر البلطيق.

تأكد لي ذلك حين قرأ ممثل ألماني محترف اسمه (ولفغانغ)، فصلاً كاملاً من الرواية في الترجمة الألمانية. كان صوته وأداؤه، كأنه اخترق ستار الكلمات الألمانية، إلى روح اللّغة العربية الكامنة وراءها، كأن اللّغتين اتحدتا وصارتا لغة واحدة.

في صباح اليوم التالي، حين تسكعت في المدينة وحدي كما أحب

أن أفعل، كانت أشعة الشمس تلمع فوق مياه بحيرة (آستر) الواسعة التي صنعوها صُنعاً، وتنعكس من أبراج الكنائس وزجاج العمارات الضخمة، ونوافذ القطارات وهي تجيء وتذهب على الجسر، والسيارات والعجلات ومياه القنوات.

كل شيء يتحرك. المواصلات والاتصالات، ذلك هو تفتح الطرق، وتدع البشر والأفكار والبضائع تتحرك بحرية تغدو وتروح. ربما هذا هو (التوجه الحضاري) الذي تبحث عنه ـ يا أصلحك اللّه ـ ولم تهتد إليه بعد، فمتى يفتح اللّه عليك؟

وقفت أمام النّصب التذكاري لشاعر ألمانيا العبقري (يوهان ولفغانغ فون غوته). إنه ليس من (هامبورغ) بل عاش معظم حياته في (ڤايمار). لكنه صار رمزاً لألمانيا كلّها، وصار لكل مدينة في ألمانيا نصيب فيها. ولعلّه الحافز الأكبر لاهتمام الألمان القديم بالحضارة العربية الإسلامية.

قرأ القرآن الكريم مترجماً، وأعجب بالخط العربي في المخطوطات التي جاءت من إسبانيا، وأحب شعر حافظ الشيرازي. وفي كتابه (الديوان الشرقي) أسمى العاشقين (حاتم) يعني الطائي و(زليخة) صاحبة يوسف وهما كما يقول مؤرخو سيرته، هو نفسه وحبيبته الأخيرة (ماريان). يقال إنه أسلم في آخر حياته. الله أعلم ولكن أحد كُتّاب سيرته قال:

«عقيدته التي يصعب سبر غورها، مزجت بين الإسلام الذي فهمه على أنه الرسوخ المطلق لإرادة عليا، وبين الحيوية المادية في المعتقدات الجرمانية القديمة».

غير بعيد، تمثال لشاعر كبير آخر هو (هاينرخ هايني) هو أيضاً ليس من (هامبورغ) ولكنه ولد في (ديسلدورف) عام ١٧٩٩، ومات في باريس عام ١٨٥٦ كل صلته بالمدينة أن عمه الذي أنفق على تعليمه كان من كبار رجال البنوك فيها.

في شبابه، سافر إلى (ڤايمار) خصيصاً لمقابلة (غوتة)، وكان قد تقدّم به العمر. سأله هل جاء إلى (ڤايمار) لأمر هام، فأجابه (هايني): «الأمر الهام الذي جئت من أجله، قد تحقق بمجرد أن تخطت قدماي عتبة دارك». ثم خرج دون أن يزيد على ذلك.

في المساء، دعاني الدكتور سعدي زعرب وزوجته الفاضلة للعشاء في مطعم إيراني على البحيرة، وهو فلسطيني ومشهور في جراحة المخ والأعصاب. كان معنا رجل أعمال سوداني اسمه بشير الطيّب، وسيّدة فلسطينية من الناصرة اسمها ريم يعقوب ومهندس مصري هو الدكتور هاني محمود النقراشي (باشا).

عرب الشتات! فكرت فيهم في القطار وأنا في طريقي إلى (كولون) بشيء من الحزن. ولا أعلم لماذا خطر في بالي قول (غوته):

«مبارك إنسان يقف بعيداً يتأمل العالم بلا كراهية، يضمّ إلى صدره روحاً صديقاً يشاركه الغبطة».

■ ■ ■

كان الصباح غير واضح المعالم حين غادرت (هامبورغ). قد تشرق الشمس، وقد يهطل المطر. ولعلّني تمنيت لو يوافق الطقس تخيّلاتي

عن هذه الأصقاع الجرمانية في الشمال. قلاعٌ من العصور الوسطى يتلبّسها الضباب، وسماوات رمادية داكنة. شيء من الدراما وشيء من الرومانس. إنّما الواقع، كما يبدو بخلاف ذلك.

أوصلتني (إركا فيرنر) إلى المحطة، وأصرّت أن تبقى معي حتى يصل القطار. كأنّها خافت عليّ من الضياع. لكنني ألححت عليها أن تعود إلى عملها. ألم تعطني يا دكتورة اسم الشخص الذي سوف يستقبلني في (كولون) وعنوان الأوتيل؟ وتلفون السيدة (أوتا بيدرمان)؟ إذا تهت بعد كل ذلك، وفي هذه السن، وبعد كل تلك التجارب، أكون إنساناً غافلاً حقاً.

كان لديّ سبب آخر للإلحاح، فقد عزمت على أمر لم أشأها أن تعرفه، حتى لا أسبب لها حرجاً.

إنهم يقيناً قوم كرماء. لكنّ كرمهم كما في كل الحالات المماثلة، محكومٌ بنظم مالية وبيروقراطية ولا شك. وأنا جدّ عليم بكل ذلك.

أعطوني تذكرة على الدرجة الثانية، وهي كافية، لولا أنّ في طبعي ميلاً إلى الترف في حالة واحدة ـ أرجو أن تكون حالة واحدة ـ وهي أنني أحب السفر في القطارات على الدرجة الأولى، إذا كان ذلك في وسعي. ولا ريب أن ذلك من تأثير الأيام الخوالي، حين كنّا نتنقّل على ظهور الحمير، ونسافر على ظهور اللّواري ـ عربات النقل ـ ونركب قطارات حكومة السودان في الدرجة الثالثة والرابعة. فسبحان الذي...؛ كما قال الأعرابي لمعن بن زائدة!

ما أن انصرفت (إركا) الطيّبة، حتى ذهبت إلى موظف السكك الحديدية الذي يترقب وصول القطار على الرصيف. هل يمكنني أن أدفع الفرق وأسافر على الدرجة الأولى؟

«نعم. تفعل ذلك داخل القطار».
«كم فرق التذكرة إلى كولون؟».
«ثلاثة وثمانون ماركاً».

ليس كثيراً، لعمري. وبالفعل تمّ الأمر في لحظات. قاطعة التذاكر (الكمسارية) فتاة فوق العشرين بقليل قصرت شعر رأسها جداً حتى بدت كأنها صبي، وشمّرت عن ساعديها، ومحت آثار الأنوثة فيها. لا (روج) على الفم، لا كحل في العينين، لا أقراط في الأذنين.

وهي أيضاً الجرسونة. تحضر لك القهوة والشاي والـ (أبفلسافت). عصير التفاح، أو حتى الذي كان (في دير حنّة من ذات الأُكيراح)، إن كنت من أهل ذلك لا سمح اللّه، والساندويش إذا أردت الساندويش.

لكنها مع ذلك، ويا للعجب، ليست مسترجلة. حين تبتسم بعينيها الرماديتين، لا يبقى في ذهنك مجال للشك أنها (فتاة) وليست فتى!

ضرب القطار في تلك البيداء، وهي ليست بيداء إلّا في خيالي، وقد راقني ما صنعتُه بنفسي، أنني قاومت الإغراء بتصنّع الزُّهد - كما أفعل - واخترت ولو لفترة محدودة، رغد العيش.

ثلاث ساعات ونصف في هذه البُلَهْنية. الدرجة الأُولى! في قطار

ألماني! يا لها من نعمة! وقد صدق أبو عبادة، الذي كان يحب كلمة (بُلَهْنيَة):

وبعيد ما بين وارد رَفْه
عَلَل شُربُه ووارد خِمْس

أخرجت من حقيبتي رواية مُكتنزة، ظللتُ أُجهد نفسي لأكمالها وهي لا تنتهي. إنما الكاتبة مشهورة، والرواية نالت جائزة (بوكر) في عام من الأعوام. لا بدّ أن فيها شيئاً. ولا أعلم لماذا الكاتبات الروائيات الإنجليزيات ـ في الغالب ـ يرهقنني. عندهن ميل للّت والعجن، وشغف بالتفاصيل الصغيرة.

إلّا أنني سرعان ما سئمت، وانصرفت إلى متابعة المناظر الطبيعية من النافذة. الطبيعة رتيبة في هذا الجزء من ألمانيا. سهول واسعة على مدى البصر. لا جبال. لا بحيرات لا غابات. نادراً ما ترى مصنعاً أو دخان مصنع في الأفق.

لكنّ أسماء المدن التي يمرّ بها القطار لها رنين. برمنْ ـ أسنابروك ـ مُنْسْتر ـ دسُلدورف. وأخيراً وصل القطار (كولون)، أو (كُولْن)، كما يسمّيها الألمان.

٤

كولون

عنَّت لي وأنا مقبلٌ على (كولون)، أبياتٌ من الشعر لم أستحضرها منذ أعوام. علقت بذاكرتي وأنا بعد صبي في مدرسة (وادي سيّدنا) العتيدة، التي لو تركوها وشأنها لكانت اليوم مدرسة عريقة بحق مثل (إيتُن) و(رَقبي). صاحبنا النميري، عفا اللّه عنه، جعلها قاعدة حربيّة.

ربّما بسبب الأصوات الموحية التي يصنعها القطار في سيره، والسماء الداكنة التي أراها من النافذة، والعشب والشجر والغدران، وأسماء المدن التي يمر بها القطار، برمن، أسنابروك، منْستر، دسلدورف..

ثم فجأة ـ تريَرْ Trier، جاءت من عمق الذاكرة كمَا يطفو على السطح تمساح النيل. اعتراني الإحساس نفسُه ـ مثل مرآى التمساح ـ لأن الاسم جرّ معه من القاع أحاسيس شتى متضاربة، ربما غلب

عليها الفرح لمجرد التذكر. ترير وكولن، ثم جاءت الأبيات:
«لقد عشت حياتي
وشربت نصيبي من النّبيذ من ترير إلى كولن،
لم يعش فارس حياة حافلة
مثل حياتي».

From Trier to Koln there was never a Knight who had a merrier life than mine.

الأبيات تحكي قصة فارس من نبلاء القرون الوسطى، أحيط به في قلعته، ربّما في ثورة من الثورات، فامتطى صهوة جواده، وقفز من القلعة إلى حتفه:
«الآن، سوف يرى كبير الأساقفة
والتّاجر والقسيس،
كيف يموت صقر (أُلْتْنار)
إذا أرادوا أن يُخرجوا البازيَّ
عن عشه بالدّخان
فسوف ينشر جناحيه ويطير».

لم أكن أفهم يومئذ، ولكنني أفهم الآن أن الأبيات تلخص حقبة من تاريخ أوروبا في القرون الوسطى، حين نشب الصراع بين الكنيسة وأمراء الإقطاع والطبقات الجديدة الصاعدة.

قرأت فيما بعد عن المدينتين، فوجدت أنهما كانتا من معاقل الكنيسة منذ بداية العهد المسيحي.

تريير Trier، تعتبر أقدم مدينة في ألمانيا، واسمها القديم Treves نسبة إلى أمير يدعى (تربَرسْ ـ Treberis)، أنشأها عام ألفين قَبلَ الميلاد، أي قبل ألف وثلاثمائة عام من قيام روما.

على عهد الأمبراطورية المقدّسة، صارت Trier مركزاً دينياً كبيراً ومقراً لكبراء الأساقفة. بالإضافة إلى ذلك، جعلها موقعها على نهر (موزل) ملتقى طرق تجارية واسعة وكذلك مركزاً صناعة النبيذ.

أضاف التاريخ دعابة أخرى، إذ إنها كانت مهبط رأس (كارل ماركس) الذي كادت فلسفته تقضي على سلطان (كبير الأساقفة والتاجر والقسيس)، كما تمنّى ولا شك (صقر أُولتنار).

أما (كولون)، فهي أكبر مدينة على نهر (الراين)، ورابع مدينة في ألمانيا من حيث حجمها وأهميتها.

إلّا أنها أحدث من (تريَر)، فقد أنشأها الرومان عام ٣٨ ق. م. وظلّت معسكراً مغموراً من تلك المعسكرات التي أقامها الرومان في حروبهم ضد القبائل الجرمانية. ذلك، إلى أن أمرت الأمبراطورة (جوليا أقربِّينا)، زوجة الأمبراطور (كلوديوس) ـ وكانت قد وُلدت بها ـ بجعلها (مدينة رومانية) فسماها الرومان (كلوديا كولونيا آرا أقربِّنيتسم)، فذلك مصدر الاسم (كولن).

في القرن التاسع الميلادي، اختارها الملك شارلمان، أول أمبراطور لما كان يُسمّى بالأمبراطورية المقدّسة، كي تصير مركزاً إدارياً رئيسياً على نهر (البراين)، وأيضاً جعلها حاضرة من حواضر المسيحية في أوروبا، ونصب فيها كبيراً للأساقفة.

تشهد على ماضيها اللّاهوتيّ كاتدرائية الـDom، أكبر كاتدرائية في ألمانيا، ومن آيات فن المعمار القوطي.

■ ■ ■

استقبلني في محطة السكك الحديدية في (كولون) شاب عرفت فوراً من لهجته أنه سوري. رحّب بي بذلك اللّطف الذي عهدته في أهل الشام - أقصد الشام بمعناه الواسع - وأخبرني أن اسمه أحمد حسُّو وعرّفني بزوجته الألمانية (لاريسا)، التي سوف تترجم في الندوة في مساء اليوم نفسه.

تتحدّث العربية بكلنة سورية بفصاحة عجيبة كأنها سوريّة أباً عن جد. هي أيضاً تعلّمت اللّغة العربيّة في دمشق، فيا حيّى اللّه دمشق ونضالها في سبيل العروبة، إذ إن هذا أيضاً نوع من النضال، كما قال الشاعر القديم «ولكن عهدي بالنّضال قديم»!

كان لي نعم العون في (كولون)، كما كان دُريْد رحّال وزوجته (باربرا) في (هامبورغ). ولأنني عاشق للسكك الحديديّة بمحطاتها وقطاراتها وصرير قضبانها - كان لي خالان كل منهما (ناظر محطة) أيام عز حضارة السكك الحديدية في السودان العزيز المنال، رحمهما اللّه - لأجل ذلك إن أوّل شيء فعلته أنني أجلتُ البصر في مبنى محطة (كولون).

سقف هائل بديع، من الحديد والزّجاج. علمت فيما بعد أنهم أعادوا بناءه بتكلفة مائة مليون مارك، وأن ألف قطار ومائة، نعم، ألف قطار ومائة تخرج كلّ يوم، تنقل نحو مائة وعشرين ألف مسافر.

تسمع مكبرات الصوت تنادي، قطار وارسو، قطار أمستردام، قطار استكهولم... باريس.. اسطنبول... روما.. مائة وعشرون ألف مسافر يومياً، تصوّر!

لو كان لي من الأمر شيء لنشرت ـ كما يُلقي الصيّاد شبكته في البحر ـ على وجه الأرض العربيّة من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، شبكة من الطرق الحديديّة، ألا يكون ذلك أمراً حسناً؟

ألا يكون ذلك أفضل من شبكات اللّت والعجن، والّتي واللُّتيّا؟

أخواننا الميامين عند ملتقى النيلين، للّه درُّهم، هدّموا محطة الخرطوم الّتى بناها الإنجليز، وعطّلوا القطارات، وأغلقوا أفواه الطُرق، ثم جلسوا يسبّحون بحمد أنفسهم صباحَ مساء، فسبحان الذي بيده المُلك وهو على كلّ شيء قدير.

ساقاني ـ أحمد حسّو وزوجته ـ إلى نُزل على بُعد خطوات من محطة السكك الحديدية وفي ظلّ الكاتدرائيّة. إنها ماثلة ثمّة مثل الجبل، تستحوذ على المدينة بأكملها، وتملأ أقطارها جميعاً.

الأوتيل كأنّه (خان) من خانات القرون الوسطى ـ كما أتخيّل ـ ربّما كان بيتاً قديماً حوّلوه إلى نُزل. لكنّ الألمان على طريقتهم، وضعوا فيه كلّ تقنياتهم الحديثة.

قديم من الخارج، حديث من الدّاخل ـ (الأصالة والمعاصرة)، كما يصف بعض أصحابنا. لكنك لن تجد ألمانيّاً يقول لك ذلك. يعملون في صمت كدأبهم ولا يكترثون للعبارات التي لا تحمل وراءها

شيئاً، كدأب أخواننا أصحاب (التوجُّه الحضاري)!

وقفنا في الساحة ننظر إلى الكاتدرائية من الخارج. المعمار القوطي نادراً ما يكون جميلاً. شديد الوطء، ثقيلٌ على جسد الأرض. يُغلق منافذ الخيال ويُصيب الروح بالتّخمة. بعد ذلك تعلّموا من المعمار العربيّ الإسلامي في الأندلس، حيث أقام المسلمون مساجد راسخة الأركان، ولكنها تكاد تطير في الهواء لرهافتها ورشاقتها.

كاتدرائية (نُتْردام) في باريس، التي يُضرب بها المثل في الفن القوطي، يفُضّ من جمالها أنها مثل حيوان ضخم، منتشر الأعضاء لا تعرف رأسه من رجليه.

البناء هنا أصفر، ملمومٌ على محوره، وأكاد أجزم أن فيه أثراً من المعمار الإسلامي في الأندلس.

وضعوا حجر الأساس لها في ١٥ آب/أغسطس عام ١٢٤٨، على أنقاض كنيسة كانت قائمة منذ عهد الرومان. وظلوا يضيفون إليها على مدى أكثر من ستة قرون، حتى وضع الأمبراطور ولْهلْم الثاني آخر حجر في البرج الجنوبي للكاتدرائية في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٨٨٠.

■ ■ ■

مدينة (كولون)، هي الّتي ابتدعت عطر الكولونيا، صنعته أول مرّة عام ١٧٠٥، تصور! الألمان يصنعون العطر! كنت أحسبه فرنسياً لأن العطور تقترن بفرنسا، كما يُنسب كلّ شعر قيل في الخمر إلى أبي نواس.

نحن ننشأ مع هذه القوالب الفكريّة الجاهزة. العطور والأزياء وفنّ الغواية وفنّ الطبخ ـ فرنسي. والضبط والرّبط والصّرامة والكفاءة ـ ألماني. والفوضى والانسياق وراء لذّات الحياة ـ إيطالي. والدّهاء السياسي والمكر والبرود ـ إنجليزي.

إنما الواقع دائماً أكثر تعقيداً. الفرنسيّون رغم مظهر حضارتهم النّاعم، هم تحت السطح مثل الحجر الصّلد. دولتهم راسخة الأساس تحكمها نخبة عريقة مدربة منذ عهد (ريشليو). وقد أنجبوا في نابليون أكبر عبقريّة عسكرية أوروبية منذ الإسكندر المقدوني، وداهية سياسية منقطع النظير هو (تاليران).

والطليان رغم الفوضى الظاهرية، اقتصادهم مزدهر، وتجارتهم رائجة. وهم ينافسون فرنسا في فنون الأناقة والتأنث والطبخ.

والإنجليز رغم ما يُظن من دهائهم السياسيّ، ورغم أنهم تخلّصوا من أمبراطوريتهم بغير قليل من الحنكة، فقد ارتكبوا أخطاء سياسية فادحة ما يزالونَ يعانون من جرّائها، ويعاني الناس.

الألمان ـ في ظنّي ـ هم ضحايا لغتهم وتاريخهم القريب. لغتهم تبدو خشنة فظة تطرق أذن السامع طرقاً، وتؤكد الصورة الشائعة عنهم، أنهم صلفون مستبدّون. لكن الّذين عرفوا لغتهم وعايشوهم وعرفوهم، يقولون إنهم بخلاف ذلك تماماً، فيهم رِقّة وطيبة بل وعاطفية أيضاً.

وأشهد أنني في زياراتي المتعدّدة إلى ألمانيا مؤخراً، خاصة هذه الزيارة، لم أزل أجد أشياء تناقض الصورة الذّائعة عنهم ـ وهي صورة عمّقتها دون شك دعايات (الحلفاء) ضدّهم أيام الحرب.

عند مغادرتي لـ (كولون) سألت في المحطة رجلاً ألمانيا عن الرصيف الذي يقف عنده القطار الذاهب إلى (ميونيخ). خاطبته باللغة الإنجليزية، ولا أدري كيف فهم عنّي، ولكنه أجانبي بوجه خال من الود، ولغة ألمانية وقعت على أذني كطلقات الرصاص.

ظننته من هؤلاء الألمان ـ من بقايا النازية ـ الّذين ينفرون من الأجانب أمثالي الذين ليسوا من الجنس الآري. لذلك عجبت حين أشار إليّ أن أتبعه. أوصلني إلى الرّصيف الصحيح، ووقف معي حتى وصل القطار الذي أنتظره. كل ذلك ووجهه متجهم عابس، كما بدا لي.

لا بدّ أن يكون في طبعهم جانب إنساني متأصل، وإلّا كيف تفسّر أنهم أنجبوا موسيقيين عظماء، وشعراء وفلاسفة. لا ينكر أحد أن أعظم الموسيقيين والفلاسفة الأوروبيين، خرجوا من رحم ألمانيا.

لكن ما قولك في هتلر والنازيّة وأفران الغاز؟

بلى، إنّما هل ألمانيا هي وحدها التي ابتُليت بحكام معتوهين، لا يمتون إلى طبيعتها ووجدانها بصلة؟

هذا، وقد أسعدني أنني وجدت في (كولون) صديقي القديم الماحي إسماعيل. ميّزته في قاعة الندوة بقامته الفارعة جداً، ولحيته التي طغى عليها الشيب. لم أره منذ متى؟ خمسة عشر عاماً ربّما. جاء من منفاه في (بون). إنه أول سوداني تخرج من الكلية الملكية للموسيقى في لندن أوائل الخمسينيات. عاد إلى السودان مع زوجته الألمانية، وعمل بإخلاص وجَلَد لتطوير الموسيقى السودانية، وإليه يعود أكبر الفضل في إنشاء معهد الموسيقى والفنون المسرحية في

الخرطوم. (أغلقه أخواننا هؤلاء وشتّتوا أساتذته وطلابه).

لـمّا أعياه الصراع اليوميّ مع بيروقراطيّة الدولة رحل إلى ألمانيا، وعمل مع هيئة الإذاعة الألمانية ـ في البرامج الداخلية ـ وعدد من المؤسسات الثقافيّة التي قدرت علمه وخبرته.

الماحي إسماعيل مشهور بأنه إنسان مهذّبٌ متحضّر. من آل المرحوم إسماعيل الأزهري أول رئيس للدولة بعد الاستقلال. سألته إن كان ما يزال يزور السودان، فوصف لي آخر زيارة له منذ بضعة أشهر:

«تصوّر يا طيّب أنّي بكيت في مطار الخرطوم».
«ليش؟».

«وأنا داخل فتّشوني زي كأنّي إرهابي أو مهرّب سلاح... تصوّر. موظف... ولد صغير. قلت له، يا ابني أنت ليه بتعمل كده؟ بتفتش على شنو؟».
«وبعدين عمل شنو؟».

«ما التفت لكلامي، كأنه أطرش... استمر يفتح الشنط ويبعثر الهدوم على الأرض... بالله هل دا السودان البنعرفه ولّا دا سودان تاني؟ أنا ذاتي فتّشني... قرّب يقلعني عريان. بكيت والله يا طيب... لولا الأرحام واللّه ما كنت أرجع للسودان أبداً...».

نعم، هل هذا هو السودان الذي عرفناه؟ وهل ألمانيا في ظل النازية، كانت ألمانيا التي عرفها الألمان؟

الشعوب ماذا تصنع حين تُبتلى بحكام، كأنما يخرجون من كهوف

مظلمة سحيقة في غيابات التاريخ؟ مثل الخفافيش. مثل الكوابيس. لا يمثلون الشعوب ولا يمتّون إليها بصلة. يرحلون، بطبيعة الحال، إنْ عاجلاً أم آجلاً، ولكنهم يتركون وراءهم خراباً يصعب إصلاحه.

النازيون في ألمانيا أيضاً، زعموا أنهم يملكون مشروعاً قومياً وتوجهاً حضارياً!.

٥

كوبلنز ـ منهايم

غادرتُ (كولون) في عتمة خفيفة من صباح غائم. المطر يريد أن ينزل ولا ينزل. والشمس تريد أن تطلع ولا تطلع.

جوّ يحرّك الحزن مثل ذكرى حُبّ قديم. ربما لأنّ العمر يمضي، و«لا مي إلّا أن تزور بمُشرف...» ـ غيلان العبقري المسكين يا له من شاعر ـ والوطن أكثر فأكثر مثل حلم صعب المنال. تنظر وتتأمل وتقارن. كل شيء يذكّرك بالوطن.

هذه البلاد كادوا يمحونها محواً في الحرب العالمية الثانية، ولكن انظر إليها الآن.

سوف تطول الرحلة.. نحو ست ساعات. من أقصى الشمال الغربي على حدود بلجيكا، إلى أقصى الجنوب الغربي على حدود النمسا.

الطبيعة تتغيّر بالتدريج. ما تزال السهول واسعة منبسطة، ولكن أخذت تظهر بعض التلال وبعض أشجار التفّاح. القطار يسير على حافة نهر (الراين) الأسطوري... ليس أطول أنهار أوروبا، لكنه من هذه الأنهار مثل النيل والفولجا والغانج والسين والتيمز، التي أثارت خيال الناس على مرّ العصور.

طوله نحو ثمانمائة ميل. يخرج من بحيرة (كُنْستانْس) في الجنوب الغربي، ويمرّ بمدينة (بازل) في سويسرا، ثم يخترق ألمانيا متجهاً شمالاً، ثم غرباً داخل هولندا، إلى أن يصب عند مدينة (رُتردام) على بحر الشمال.

ها هوذا بعد مدينة (كوبْلنز)، ينحصر بين سلسلتين من جبال منخفضة، تكاد تكتم أنفاسه وتحبس مجراه، كما يحدث للنيل عندنا حين يدخل ديار المناصير، ثم أبعد شمالاً على حدود مصر. ينحني انحناءة واسعة، وكذلك القطار. في لحظة أرى وسائل المواصلات كلها دفعة واحدة، كأنها تجمدت في لوحة فنية أو صورة فوتوغرافيّة.

طائرة في السماء، وسفن على النهر، والقطار الذي يحملنا أرى رأسه وذيله، وعلى الضفة الأخرى قطار مسرع في الاتجاه المعاكس، سيارات شحن وباصات وعربات متجهة يساراً ويميناً وشرقاً وغرباً.

هذه الوسائل كلها تحمل بشراً.. كل واحد له هدف. يعرف إلى أين يقصد وماذا يطلب. رجالٌ ونساءٌ أحرار، في بلد حرّ. كل واحد يعمل ويدفع الضرائب ويخضع للقانون. والقانون واحد. لا يوجد قانون للأقوياء وقانون للضعفاء.

لكن ما لي ولهذا؟ إنها أفكار مبعثها الأصوات التي يصنعها القطار في سيره، وهذه الحقول المترامية، وهذا الطقس التيوتونيّ الجرماني، حيث الشمس لا تشرق ولا تغيب. فلْأحصر همي في النهر، والمناظر التي أراها من النافذة. ولأكفّ عن التأمل والمقارنة، إذ لا وجه للمقارنة. إنهم وصلوا إلى ما وصلوا إليه بشق الأنفس.

عند مدينة (كوبْلنْز)، يصبّ نهر (موزل) في نهر (الراين)، فهي على ملتقى نهرين مثل الخرطوم. أنشأها الرومان عام ٩م، وكانوا يسمّونها (المعسكر عند الملتقى).

كانت ذات سطوة، تسيطر على طرق التجارة على النهرين. وفي عهد نابليون بونابارت، احتلها الفرنسيون مدى ثمانية عشر عاماً. وفي الحرب العالمية الثانية دمّر الحلفاء ٨٥٪ منها. لكن الألمان أعادوا بناءها. وها هي ذي الآن بجسورها ومياهها وأبراج كنائسها وعماراتها الحديثة مطرقة تحت السماء، كأنها تنتظر خراباً آخر وعماراً آخر!

أواخر الضحى وقفنا في (مانْهايم). هي أيضاً عند ملتقى، حيث يصبُّ نهر (نكَرْ) في نهر الراين. وبذلك تكون (مانْهايم) رأسَ المثلث الذي عُرف قديماً بمثلث الـ(Palatinate).

كان إقليماً ذا نفوذ سياسي كبير قبل توحيد ألمانيا، يخضع لحاكم مقرّه في مدينة (هايدلْبيرق) على مسيرة ربع ساعة بالقطار من (مانهايم). وقد لعب الإقليم دوراً مؤثراً في القرن السابع عشر في الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، عرفت بـ (حرب الثلاثين عاماً) ١٦١٨ ـ ١٦٤٨.

ثم، بعد منتصف النهار بقليل، وصلنا (هايدلبيرق)، المدينة ذات الشهرة الرومانسية الواسعة، بسبب الشعراء والكتّاب والفنانين الذين عبروا بها وأشادوا بذكرها. منهم (قوته) و(مارك توين)، والموسيقي (روبرت شومان). وفيها أقدم جامعة في ألمانيا.

هي الأخرى تعرّضت للخراب، فقد دمّرها الملك لويس الرابع عشر (الملك الشمس)، الذي كان يحمل لواء الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية، دمّرها مرتين أواخر القرن السابع عشر. ولم تسلم من بعض الدمار في الحرب الأخيرة.

نهضت، هي أيضاً من رمادها كما ينهض طائر الفينيق. وكذلك كان الحال في أوروبا، حتى حربهم الأخيرة التي يبدو أنها قتلت شهيتهم للاحتراب، لكثرة ما أراقوا فيها من دماء، وأحدثوا فيها من خراب. ويا ليت الآخرين يأخذون منهم العبرة.

شتتقارت

الآلة الحديدية المندفعة، كأنّما تقمّصت - في خيالي - روح ناقة أبي الطيّب المتنبي:

وهبّت بجسمي مَهب الدّبورِ
مستقبلات مهبِّ الصِّبا.

ما كان أبعد مرمى هذا الشاعر حين قال: -

ولكنّهن حِبالُ الحياة وكيْدُ العداة وميْطُ الأذى.

هذه الخطوط الحديدية، هل هي إلّا (حبال)، تربط جسد أوروبا، كما تربط الشرايين جسد الإنسان؟ العالم العربي بهوسه بالطائرات والمطارات، ليست فيه شرايين. واحاتٌ منعزلة لا يربط بينها شيء. تقفز من مطار إلى مطار، وبين هذا وذاك في الخيال، ظلام واسع.

القطار كأنّ له إرادة مستقلة، والهمُّ «عينُ أُثال» كما قال ذو الرُّمة.

الهمَ هنا (ميونخ) أو (مُنْشنْ)، كما يسمّيها الألمان.

ظهرت بعدَ (هايدلبيرق)، تلال مخفضة، وأودية متموجة بلطف، مثل بحر ساكن هبّت عليه ريحٌ خفيفة. القُرى في قاع الوديان، والمزارع في القمم وعلى السّفوح. ثم بعد الساعة الواحدة بعد الظهر بقليل، وقف القطار في (شتُتقارت). تريّث فيها أطول مما فعل في (كوبلنز) و(هايدلبيرق).

نزل ركاب كثيرون. اليوم يوم جمعة، فلعلهم جاءوا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. أو لعلّهم كانوا مسافرين وعادوا. ليسوا سيّاحاً، كما قدرت. في السيّاح، خاصة الأمريكان، حيثما تجدهم، شيء مميز. جلبةٌ وبهجةٌ مبالغ فيها، مثل طيور ضلت الطريق إلى عُشها.

إنني أعرف (شتتقارت)، زرتها من قبل. متى زرتها من قبل؟... خمس سنوات لعمري! يا إلهي! أين ذهبت الخمس سنوات؟

تذكّرت الرجل الكريم الذي دعاني، الدكتور (هيرمن فوركل) من الجامعة، وزوجته الفاضلة الدكتورة (مونكا). قضيت أياماً جميلة في صحبتهما. متخصّص في تاريخ غرب السودان وغرب أفريقيا، ويحسن اللغة العربية. ما أكثر المهتمين بالسودان الغني الفقير، وأهله ما عندهم خبر.

أذكر أن المدينة كانت دافئة، رغم أن الفصل كان خريفاً، وقد علمت أنها كذلك أغلب العام، نادراً ما ينزل فيها الثلج.

اسمها مشتق من (Stutengarten)، أي (مزرعة فحول الخيل).

وظلّت ـ كما وصفوا ـ على مدى قرون، قرية صغيرة حالمة بموقعها على نهر (نكَرْ) ثم هبّت عليها الثورة الصناعية فاهتزت وربت. وكادت غارات الحلفاء تمحوها محواً في الحرب العالمية الثانية.

هي اليوم من المراكز الصناعية الكبرى في ألمانيا، فيها مصانع سيارات (المرسيدس) و(البورش)، وشركة (بُش Bosch) التي تنتج المعدّات الكهربائية. لذلك تجد في أول شارعها الرئيسي (شارع الملك ـ Konigstrasse) لافتة ضخمة مضاءة بالنيون مكتوب عليها (بُش)، وفي آخر الشارع لافتة مماثلة عليها علامة المرسيدس، النّجمة.

لكنني أذكرها أكثر لسبب آخر. ذلك أن الشاعر العبقري (يوهان كرستفر فردريك شللَرْ)، قد وُلد عام ١٧٥٩ في (مارباخ) وهي ضاحية من ضواحي (شتتقارت). وعجيب كيف أن مولد إنسان عبقري واحد في بقعة ماء، يعطيها أبعاداً في الزمان لا تُحَدّ.

وما المعرّة لولا أبو العلاء؟ وما (بشرّي) لولا جبران؟ وما أم درمان لولا التجاني يوسف بشير؟ إنّما التجاني لم يؤرق زمانُه بعد.

زرت (مارباخ) في تلك الرحلة، بصحبة الدكتور (فوركل) وزوجته ذات نهار مشرق في سفينة نهرية، وتجوّلنا في المتحف الجميل الذي أقيم له ثمة على شاطئ النهر. فصبراً يا سيدي التجاني، رحمك اللّه. سوف يأتي يوم ـ إن شاء الله ـ يُقام لك نصُبٌ ومتحف على شاطئ النيل عند (أبو روف) في أم درمان!

توفي (شللَر) عام ١٨٠٥ في (ڤايمار)، جذبه إليها ضوء (قوته)

والحركة الأدبية الرومانسية التي قامت حوله. وهي حركة عُرفت باسم (Sturm und Drang)، ويمكن ترجمتها بـ (الزوابع والصخب).

علاقة هذين العبقريّين، كانت علاقة عجيبة، فيها توتر وود واحترام، وتأثر متبادل. ولعلّني أقف عندها قليلاً إن شاء الله.

■ ■ ■

حين غادر القطار محطة (شتتقارت) بدا كأنه عاد إلى الوراء، ثم ظهر لي أن ذلك لأنه انحرف انحرافاً حادّاً نحو الشرق.

سار في طبيعةٍ تذكّر بطبيعة سويسرا فنحن الآن في إقليم (بافاريا) وجبال الألب غير بعيدة، في الجو شيء من ملامح عالم الجنوب، سوف يتّضح أكثر حين نصل إلى (ميونخ).

مررنا ببلدة صغيرة تبعد قليلاً عن خطّ السكة الحديدية، محاطة في دائرة كاملة، بجبال ليست مسرفة الارتفاع. البيوت كأنها في قاع بئر، كلّما ارتفعت، اتسعت جنباتها.

الجبال والمزارع على السفوح والبيوت في القاع والأشجار كلها مغطاة بالثلج. عجبت لأننا لسنا في موسم ثلج، ولم أصادف ثلجاً في هذه الرحلة من قبل حتى في (هامبرغ).

واحة بيضاء منعزلة، لا تمتّ إلى ما حولها، هجمت على البصر فجأة مثل سرب حمائم بيض عابرة، كأنها ذكرى عذبة لا تستطيع أن تمسك بها وتستبقيها. أو كصورة مجازية بكر لشاعر عبقري مثل

ذي الرُّمّة:
إذا خلفت أعناقهن بسيطة
من الأرض أو خشناء أو جبلاً وعْرا
نظرت إلى أعناق رمل كأنما
يقود بهن الآلُ أحصنةً شُقرا.

هربت البلدة البيضاء مع سرعة القطار عن مرمى البصر واستقرت في الخيال. وظلت نُتفٌ من الثلج تختفي وتبين حتى وصلنا (أُلم ـ ULM) قبيل الساعة الثانية بعد الظهر.

أول ما ترى وأنت تدخل المدينة برج الكنيسة. هذا أعلى برج كنسي في العالم. وإذا قويت على صعوده، فسوف ترى جبال الألب. والكنيسة نفسها قديمة، وهي من الكنائس الألمانية القلائل التي خرجت سالمة من دمار الحرب العالمية الأخيرة.

كذلك تمتاز (أُلم) بموقعها على نهر (الدانوب)، هذا النهر الأسطوري الآخر. ينبع في ألمانيا في منطقة (الغابة السوداء) قريباً من سويسرا، ويمر بثمانية أقطار أوروبية قبل أن يصب في البحر الأسود.

ثمّة يكوّن دلتا واسعة مساحتها ٣٧٥٠ كيلومتراً مربعاً.

هو هنا (ألم) مغمور الشأن حتى أن قليلين يعرفون أنه يمر بها. لا يصير الدانوب دانوباً بحق وحقيق حتى يصل (فيينا) في النمسا، وذلك لأن (يوهان شتراوس) عمل لحنه الشهير (الدانوب الأزرق). النهر صار، ليس الماء الذي يجري على الأرض، بل اللّحن الموسيقيّ السارح في الخيال.

النّيل لم يصبح نيلاً حتى قال التجاني العبقري «أنت يا نيل يا سليل الفراديس..» وحتى قال شوقي العظيم «النيل نجاشي حليوة أسمر...».

ما أكثر الأشياء التي تظل ساكنة صامتة حتى يحركها خيال الشعراء والرسّامين والموسيقيين، وماذا كان سيف الدولة حتى جاءه فلتة العصور والدهور؟

غضبتُ له لما رأيت صفاية
بلا واصف الشعر تهذي طمامه

وأيضاً، شاءت الأقدار لـ (أُلْم) أن تكون مهبط رأس فلتة أُخرى - ألبرت أنشتاين - الذي غيّر نظرة الناس إلى الطبيعة، كما يفعل الشعراء والفنانون.

عند الثانية والنصف وصلنا (أُقسبورق). نحن الآن في عمق إقليم (بافاريا) الذي كان له أي شأن في تاريخ ألمانيا، وهذه البلدة تأتي مباشرة بعد (نورنبيرق) و(ميونخ) في الأهمية بين مدن الأقليم.

أنشأها الرومان - مثل كثير من المدن الألمانية - عام ١٥ ق. م. في عهد الأمبراطور (أغسطس) وكانت تُعرف في البداية باسم (أوغسطا).

من الأشياء التي أعطتها شهرة أنها المدينة التي ولد فيها (بيرتولد بريخت) عام ١٨٩٨ - توفي في برلين عام ١٩٥٦. وهو كما لا يخفى أحد أكبر الكتّاب المسرحيين في العالم.

أيضاً وُلد بها (ليوبولد موتزار) عام ١٧١٩. وهو والد الموسيقي العظيم (ولفقانق أماديوس موتزار) ذلك وُلد في (سانوبورق) عام ١٧٥٦، وتوفي في فيينا عام ١٧٩١.

اشتهرت (أوقسبورق) أيضاً، أن فيها بُنيت أول مجموعة سكنية للفقراء، في العالم وتسمّى ـ ويا للعجب! ـ (فُقريي)، كأنّما أخذوها من الكلمة العربية (فقر).

أنشأتها في القرن الثامن عشر، عائلة الـ(فُقَر) التي كانت أثرى عائلة في المدينة. وجعلوا أجارها السنوي ما يعادل أقل من ماركين بحساب هذه الأيام، على أن يكون الساكن من مواطني المدينة كاثوليكياً.

و«فقيرا ليس لأي ذنب ارتكبه!». واشترطوا في المقابل أن يصلي كل ساكن يومياً من أجل أفراد عائلة (فقر).

ما تزال هذه الصدقة جارية إلى اليوم.

٧

ميونخ

(ميونخ) هي منفى صديقنا التونسي حسونة المصباحي، هاجر إليها من القيروان. وهو شابٌّ كبير الموهبة واسع الثقافة، كما يدرك الّذين قرأوا أعماله الروائية ويتابعون مساهماته في الصحف خاصة في صحيفة «الشرق الأوسط» وفي الملتقيات الأدبية.

وقد أحسن الاختيار، ففي مدينة (ميونخ) شيء من طعم الجنوب، فهي قريبة من سفوح جبال الألْب، تهبّ عليها من وقت لآخر، رياحٌ دافئة تجيء من إيطاليا. كذلك هي على رفّة جناح من النمسا وسويسرا وفرنسا. ولو أنهم أرادوا أن يختاروا عاصمة للدولة الأوروبية الموحّدة، لما وجدوا خيراً من (ميونخ) فهي تكاد تكون في قلب أوروبا.

وهكذا نجد أن حسونة المصباحي في معقله ثمّة كأنه سلطان زمانه،

فهو ليس في منفى واحد، بل مجموعة منافٍ. والمنفى في أكثر من مكان، كأنه حرٌّ طليق!

وهو كسائر أهل القيروان والجنوب التونسي من بني هلال وبني سليم وبقايا القبائل من الفتح العربي، الذين ظلوا مرابطين في الصحراء، محتفظين بتلك النخوة القديمة. سارع للاتصال بي في (كولون) للتأكد من وصولي، ووجدته في المساء، ثم كان في وداعي حين سافرت إلى (بيرن).

كان مُضيفي الدكتور غالب جرّار، وهو فلسطيني درس عندهم وتزوّج وأقام... بقدر ما يقيم الفلسطيني حيث يكون. ولله درُّ (الأستاذ) حين قال:

لا أقمنا على مكان وإنْ طاب
ولا يمكنَ المكان الرّحيلُ.

لعلّ الذي عكّر عليه صفو المكان، أنه حمل بين جنبيه ذكرى شيء عزيز أضاعه، ولم يزل يبحث عنه.

وكذلك الفلسطيني. وكذلك الغرباء العرب في المنافي، الفلسطينيون بالمماثلة والولاء وسوء الحال.

إنّما سوء الحال درجات، فالدكتور غالب جرّار فتح مكتبة عربيّة في (ميونخ)، وهو عملٌ مفعمٌ بالرموز. وهل أكثر رمزيةً من فلسطيني فقد داره، ربما في (يافا)، فأنشأ داراً للكتب العربيّة في عاصمة بافاريا؟

ولأنّ التاريخ أخو دُعابة وهزْل ـ وهو هزل مرير ـ فقد يكون أن دار الكتب العربيّة، سوف تمتدّ من (ميونخ) حتى تغطي دولة (بافاريا) بأكملها. حينئذ لا تكون فلسطين قد ضاعت عبثاً.

ورغم مرارة الغربة، فالدكتور غالب جرّار، مرحٌ كثير الدّعابة. وكذلك حسُّونة المصباحي. وكذلك محمد إبراهيم الشوش في منفاه الأقصى، في (البرتا) في كندا. وهو والمصباحي صديقان حميمان، يلتقيان في موسم أصيلة من العام إلى العام. لا يفترقان، ودائماً يضحكان، كأنهما يوفّران الضحك ـ كما يوفر البخيلُ المال ـ حولاً بأكمله. وحين يلتقيان في أصيلة، يُنفقانه بلا حساب!

هذا، وتصف الكتب، أن (ميونخ) هي أكثر المدن جاذبيةً في ألمانيا. تجمع بين الرقيّ والابتذال. بين القصور الفاخرة والمباني الفقيرة الرّثة. بين الأثرياء المليونيرات والفلّاحين الأجلاف. مدينة المتعة والمرح والحياة المسترخية. تنتمي إلى عالم الجنوب اللّاتيني أكثر ممّا تنتمي إلى العالم الجرماني الشمالي المُقطب الوجه.

وجامعة (ميونخ) هي الجامعة الوحيدة في العالم التي فيها قسم يمنح الدرجات العلميّة في علوم شراب (البيرة).

ولعل (غوته) و(شللر) كانا يفكران في (ميونخ) حين قالا في قصيدتهما المشتركة «روزنامة عرائس الشعر لعام ١٧٩٧»:

«أيُّهما الألمان. لا فائدة لكم البتّة في أن تحلموا بإنشاء دولة موحَّدة. لن تستطيعوا ذلك أبداً. خيرٌ لكم أن ينمّي كلّ واحد منكم ذاته بحُريّة، كإنسان».

الشاعران الكبيران حين قالا ذلك، اعتمدا على معرفتهما بأحوال ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر. كانت خليطاً من القبائل المتنافرة. ولكن أحداث التاريخ برهنت على خطئها، فقد توحّدت تلك القبائل في دول قويّة ذات تأثير ونفوذ. وكان لـ (ميونخ) وإقليم (بافاريا) ضلع كبير في مجرى تلك الأحداث.

■ ■ ■

سرعان ما يكتشف الزائر ـ دون جهد كبير ـ أن ألمانيا ليست شيئاً واحداً، بل عدة أشياء. وهذا في الواقع هو الحال في بلاد الدّنيا كلها ـ إنما ألمانيا منذ توحيدها على يدي (بسمارك) في أعقاب هزيمة فرنسا عام ١٨٧٠، اكتسبت شهرة بأنها دولة عسكرية حديدية صلبة، وأن شعبها على نمط واحد مثل تروس عجلة.

ثم تعزز ذلك التوهم بمجيء النظام النازي، وما ابتدعه ذلك العهد العجيب من شعائر وطقوس واحتفالات هستيرية كأنها أصداء من عهود الهمجية الأوروبيّة.

أيّة قراءة عابرة لتاريخ ألمانيا، توضح أن الألمان هم كبقيّة خلق اللّه، وأنهم شعوب وقبائل، بل فيهم نزعة قبلية متأصلة لا تقلّ عن النزعة القبليّة لدى العرب. وكونهم أقاموا من تلك القبائل دولة موحدة، فذلك هو إنجازهم الضخم.

فعلوا ذلك لا بواسطة نظام مركزي صارم، ولكن بواسطة نظام فدرالي فضفاض، يعترف باختلاف الأقاليم وتنوّع طبائع السكان وثقافاتهم وتاريخهم.

مدينة (هامبرغ) ـ على سبيل المثال ـ مدينة شمالية تتجه نحو بحر الشمال وبلاد اسكندنافيا. وقد اكتسبت مقوّمات شخصيتها من صراعاتها وعداواتها وأحلافها وصداقاتها مع تلك البلاد. وهي مثلهم بروتستانتيّة العقيدة.

على النقيض منها مدينة (ميونخ) عاصمة إقليم (بافاريا). إنها تتجه إلى الجنوب والجنوب الشرقيّ. إلى النمسا وإلى إيطاليا خاصة. وفي سمتها وطبائع سكانها، ملامح من الشعوب اللّاتينية، وراء جبال الألب. وهي مثلهم كاثوليكية العقيدة. ونحن نعلم أن الصّراع بين الكاثوليك والبروتستانت، لم يكن أقل شراسة من الصراع بين المسيحية والإسلام.

وإذ إن إقليم بافاريا ما يزال يحتفظ بصفته القديمة «دولة بافاريا الحرة»، فإن مدينة (ميونخ) تعتبر نفسها عاصمة دولة مستقلة. ومن علامات تلك النزعة الاستقلالية، أن (عمدة) المدينة لا يستقبل كبار الزوّار حتى لو كانوا رؤساء دول، إلا في مكتبه. لا يخرج للقائهم في محطة السكك الحديديّة، أو على درج مبنى البلدية.

حين جمع (بسمارك) بين أشلاء ألمانيا، لم يدخل إقليم (بافاريا) في الاتحاد، ولكنه بقي مملكة مستقلة تحكمها أسرة (وتلْباخ). وهي أسرة يرجع تاريخها إلى عام ١١٨٠م، حين قبل الأمبراطور (فردريك باربروسا) ـ ذو اللّحية الحمراء ـ استقلال الإقليم عن أمبراطوريته، وأقرّ على حكمه الدوق (أُوتو فون وتلباخ).

لقاء ذلك اقتطع الأمبراطور جزءاً من (بافاريا)، وأعطاه أحد منافسيه ليكون دوقية مستقلة. تلك الدوقية سوف تصبح فيما بعد، ما يُعرف اليوم بدولة النّمسا.

هذا، وهنري باربروسا، هو أحد الأبطال العظام في تاريخ ألمانيا، وأحد القادة الذين تملّكهم حلم توحيد الشعوب الجرمانية، وقد كاد يحقق حلمه بالفعل. وهو حُلم سوف يشغل أيضاً حفيده الأمبراطور العتيد (فردريك الثاني)، أمبراطور بروسيا.

وقد بلغ من حُبّ الألمان لـ (فردريك باربروسا) أنهم نسجوا حوله الأساطير، وزعموا أنه لم يمُت، بل اختفى في كهف في جبل لا يُعرف مكانه، وأنه سوف يظلّ نائماً في كهفه ينتظر أوان توحيد ألمانيا. وزعموا أنه يصحو من نومه كلّ مائة عام لينظر هل الوقت قد حان أم لا. وعلامة ذلك أن يأتي سربٌ من الغربان - يحمل إليه البشرى.

ظلّت مملكة (بافاريا) متعصّبة للعقيدة الكاثوليكية وخاضت حرب الثلاثين عاماً تحت راية (بابا روما)، إلى جانب القوى الكاثوليكيّة الأخرى، ومنها إسبانيا وفرنسا وإنجلترا. وحين هزم ملك السويد (قستافُس أدلفُس) جيوش الكاثوليك، احتلّ مدينة (ميونخ) عام ١٦٣١.

■ ■ ■

في خريف عام ١١٥٧ جمع الأمبراطور (فردريك باربروسا) - ذو اللحية الحمراء - بلاطه في مدينة (ويرزبورق Wurzburg) على نهر (مين) ولعله فعل ذلك عمداً، لأن المدينة كانت معقلاً للكنيسة، أنشأتها في القرن العاشر، وظل يتعاقب على حكمها (كبار الأساقفة الأمراء).

كان حريصاً على أن يقبل رجال الكنيسة، والبابا في روما خاصة،

أنه صاحب المشيئة العليا في العالم المسيحي، بوصفه أمبراطوراً للأمبراطورية الرومانية المقدسة، وأنه جمع في يده السلطتين الدينية والدنيوية. لكن الكنيسة لم تعترف بذلك وظلت العلاقة تتأرجح بين المهادنة أحياناً، والعداء السافر أحياناً.

كان (باربروسا) في قمة مجده يومئذ. أخضع لنفوذه إخضاعاً مباشراً أو غير مباشر، معظم ألمانيا وإيطاليا وهما جناحا ملكه. اهتم بإخضاع إيطاليا خاصة، لأنه صاغ جبروته على مثال القياصرة الرومان الأوائل.

كان اتساع نفوذه واضحاً من كثرة الوفود التي جاءت لتحيته في (وبرزوبورق)، تحمل الرسائل والهدايا. ومن أنحاء أوروبا كلها بممالكها وإماراتها ودوقياتها. من بيزنطة والكرسي البابوي في روما ومن فرنسا وإسبانيا، كلهم جاءوا إليه يحملون اعتراف دولهم بأنه صاحب الكلمة النافذة والمشيئة المطاعة.

أحدهم كان سفير ملك إنجلترا (هنري الثاني)، جاء في وفد يحمل الهدايا ورسالة إلى الأمبراطور. وقد عثر المؤرخون عليها، وهي رسالة طريفة تستحق أن تورد بنصها، لأنها تؤكد غلبة (فردريك باربروسا) وامتداد سلطانه، كما توضح أسلوب التعامل بين الملوك في ذلك الزمان. تقول الرسالة: «إلى صديقه الودود (فردريك) الذي هو بمشيئة الله أمبراطور الرومان الذي لا يقهر، يرفع (هنري) ملك إنجلترا ودوق نورمندي وأكوتين، وكونت أنجو، خالص عبارات الوفاء والمودة والولاء.

إننا نحيّيكم ونشكركم بكل ما جبلنا عليه من مودة ووفاء، كما

يليق بكم بوصفكم أعظم الملوك. كما نود أن نعبّر لكم عن بالغ سرورنا وعظيم تقديرنا لما غمرتمونا به من عطف أنكم أرسلتم سفراءكم إلينا يحملون رسائلكم وهداياكم. ونحن نقدر لكم خاصة أنكم لم تتوانوا عن توثيق أواصر السلام والمحبة معنا.

النصائح والوعود التي وردت في رسائلكم لنا بخصوص تصريف أمور مملكتنا ملأت قلوبنا سروراً وغبطة. ونحن إذ نؤكد أن الغبطة قد ملأت قلوبنا، نحاول الآن أن نرتفع إلى مستوى علياء سموكم، فنجيبكم بكل إخلاص.

سوف نسارع بأقصى ما لدينا من قوة إلى فعل كل ما من شأنه أن يحفظ جلالة مكانتكم ويعزز نفوذكم. ونحن نضع مملكتنا وكل ما يخضع لسلطاننا حيثما كان، تحت تصرفكم وفي متناول مشيئتكم ورهن إشارتكم. ونؤكد لكم أن أوامركم الأمبراطورية سوف تجد منا السمع والطاعة.

فلتقم بيننا إذاً وبين شعبينا علاقات لا تنفكّ عراها أبداً، من السلام والمحبة والتجارة الآمنة، مع الاعتراف من جانبنا أن لكم في كل الأحوال، الإرادة العليا، والمكانة الأسمى. لن تجدونا مترددين في الخضوع والإذعان.

وإذ إن هداياكم إلينا جعلت ذكراكم عندنا غضة عطرة على الدوام، فنحن أيضاً من جانبنا نود أن تبقى ذكرانا لديكم غضة عطرة. لذلك نرسل إليكم هدايا هي على بساطتها أحسن ما عندنا، آملين أن تجد منكم القبول.

لا تنظروا إلى قيمة هدايانا في حد ذاتها. لكن انظروا إلى قيمة عواطف المودة التي هي رمز لها. أما بخصوص كف القديس جيمس التي كتبتم لنا بشأنها فإننا طلبنا من القس (هربرت) ومن وزيرنا (وليم) أن ينقلا إليكم ردنا شفاهة...».

هذا، والكف المشار إليها، كانوا يعتقدون أنها من جسد القديس جيمز، أحد الحواريين. وكانت في حوزة الألمان، فحصل عليها الإنجليز وأنشأوا لها بيعة خاصة في (ردنج) صارت تجذب جماهير غفيرة من الشعب. كان ملوك أوروبا في ذلك الزمان يتنافسون في الحصول على الآثار (المباركة)، لأنها كانت من أسباب تمكين سلطانهم. لذلك كان الأمبراطور (فردريك باربروسا) حريصاً على استرداد كف القديس جيمس منهم، لكنه مات دون أن يحصل عليها.

وقد أغضبت هذه الرسالة عدداً من المؤرخين الإنجليز المعاصرين، الذين لم تعجبهم نغمتها الخاضعة المتذللة. ولاحظ الدكتور (ليسر Leyser) من جامعة أكسفورد في كتابه (ألمانيا وجيرانها في العهد الوسيط)، أن أولئك المؤرخين لم يقدروا ظروف الملك (هنري الثاني)، وقال إن الرسالة ربما تكون ذكرتهم بسياسة المهادنة التي اتبعها (نڤل تشمبرلين) تجاه ألمانيا النازية قبل الحرب العالمية الثانية.

وذكر الدكتور (ليسر) أن بين الهدايا التي أرسلها الملك (هنري) إلى الأمبراطور، كان أربعة صقور صيد وخيمة عظيمة متقنة الصنع فرح بها (باربروسا) فرحاً عظيماً وظل يستخدمها في رحلاته وغزواته.

■ ■ ■

استعاد صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس من الصليبيين عام ١١٨٧. أصبح لزاماً على (فريدرك باربروسا) بوصفه أمبراطوراً على الأمبراطورية الرومانية المقدّسة (هو الذي سماها مقدسة) أن يفعل شيئاً.

لم يكن في أحسن حالاته حينئذ. فمن ناحية بلغ صراعه ضد الكنيسة أن بابا روما طرده من حظيرة الله، وهو من جانبه رفض الاعتراف بالبابا الإسكندر الثالث ونصّب بابا خاضعاً له هو فكتور الرابع.

من ناحية أخرى انتفضت على حكمه في إيطاليا (جمهوريات المدن) في سهل لُمبارد الخصيب بزعامة مدينة (ميلان).

ذلك جمّع ضده حلفاً قوياً من الجيوش البابوية والمدن الثائرة في (لمبارد). تلك القوى ألحقت به هزيمة عظيمة في معركة (لقنانو Legnano) في شهر أيار/مايو عام ١١٧٦. اضطر أن يهادن البابا، فاعترف به وطرح نفسه على الأرض أمامه وقبّل قدميه، ثم مشى ممسكاً بركابه!

ذلك الانكسار كله، لم يمنعه أن يكتب إلى صلاح الدين، بأسلوب القياصرة الذين أراد أن يصنع نفسه على صورتهم:

«هل أنت حقاً غافلٌ لا تدرك أن الإثيوبيّتين وموريتانيا وفارس وسورية وبارثيا ويهوذا والسامرة ومارتما وبلاد العربة وشالديا وحتى مصر نفسها (حيث ـ ويا للخسارة ـ وقع القائد الروماني العظيم مارك أنتوني في حبائل كليوباترا تلك المرأة الداعرة، مما قضى على

هيبته) ـ هل أنت حقاً لا تدرك أن هذه البلاد كلها وحتى أرمينيا ذاتها وبلاداً أخرى كثيرة، هي أجزاء من أمبراطوريتنا وخاضعة لسيطرتنا؟».

لا شك أن صلاح الدين استقبل ذلك الصلف بسخرية وعدم اكتراث، فقد كان في وضع قوي جداً بعد أن وحّد العالم الإسلامي وراءه. وكان بحكم خبرته في التعامل مع الصليبيين، يشعر بتفوّق أخلاقي إزاءهم. وقد اعترف أحدهم صراحة بذلك في قوله:

«هل يُنكر أحد أن الأخلاق الرفيعة التي يتحلى بها هؤلاء القوم، من سماحة وكرم ونُبل، هي من عند الله؟ رجالٌ قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وأخوانهم وأخواتهم. اغتصبنا أراضيهم وأخرجناهم عُراة من بيوتهم. هؤلاء الرجال أنفسهم أعطونا الطعام حين كدنا نموت من الجوع، وغمرونا بعطفهم ورعايتهم حتى ونحن أسرى في قبضتهم».

إنها كما نعلم، قصة طويلة ليس هذا مكانها.

لكنني أقول باختصار، معتمداً على عدد من المصادر التاريخية، أن الحروب الصليبية، بقدر ما كانت صراعاً بين أوروبا والعالم الإسلامي، كانت ـ ربّما بقدر أكبر ـ صراعاً بين العالم المسيحي في الشرق، والعالم المسيحي في الغرب. بين دولة بيزنطة وغرب أوروبا.

كان البيزنطيون أقرب إلى جيرانهم المسلمين منهم إلى مسيحيي غرب أوروبا وشمالها الذين كانوا يعتبرونهم همجاً ورعاعاً. وبالفعل، كان من نتائج الحروب الصليبية أن الأوروبيين الغربيين

دمروا دولة بيزنطة، وخرّبوا مدينة القسطنطينية، ونهبوا تحفها وكنوزها.

كان الوازع الديني لدى الأوروبيين، هو أضعف شيء في تلك الحروب. كان الغالب هو طموحات الملوك وصراعاتهم الداخلية، بالإضافة إلى جشع النبلاء والطبقات الوسطى وإقبالهم على النهب واغتصاب الأرض. أصبحت البلاد المقدسة بمثابة (إلدورادو) لأحلام الثراء والرفاه.

هذا ومن الفظاعات الكثيرة التي ارتكبت في تلك الحروب، ما حدث لحملتين من الأطفال من منطقة الراين في ألمانيا، ووادي اللوار في فرنسا. تجمع ما يُقدر بنحو مائة ألف طفل وطفلة، بدافع الحماسة للجهاد تحت راية الصليب، وبدأوا زحفهم (المقدس). ولما وصلوا إلى إيطاليا انقضّت عليهم عصابات من المجرمين والمحتالين، فباعوا البنات لدور البغاء ـ ومن لا يكدن يتجاوزن العاشرة ـ وأرسلوا الصبيان إلى موانئ البحر الأبيض للاسترقاق!

مثل هذه الفظائع، صدمت مشاعر الأوروبيين، وأشاعت روحاً من الاشمئزاز من تلك الحروب. وقد عبر الشاعر الفرنسي (روتبوف) الذي يُسمى شاعر الشعب عن ذلك بقوله:

«هل أهجر زوجتي وأطفالي وممتلكاتي وإرثي وأسافر لأغزو بلداً أجنبياً بعيداً لن يعطيني أي شيء في المقابل؟ أستطيع أن أعبد الله هنا في باريس كما أعبده في القدس... هؤلاء اللوردات والملاك الأغنياء وأمراء الكنيسة الذين لا يتعبون من نهب كنوز الأرض، هؤلاء لعلهم يحتاجون إلى الخروج في حملة صليبية. أما أنا فما حاجتي إلى ذلك؟

إنني أعيش في سلام ووئام مع جيراني.. إذا كنت يا صاحبي تتشوّق إلى الذّهاب إلى آخر الدنيا تبحث عن حرب تضفي عليك الفخار والمجد، فأنا لا أطلب شيئاً من ذلك.

بلّغْ السلطان عني أنه إذا خطر له أن يهاجمني في عُقر داري، فإنني أعرف كيف أدافع عن نفسي. أما إذا تركني وشأني، فإنني لن أشغل نفسي به.

أنتم أيها الناس الذين تسافرون للدفاع عن الأرض المقدسة، ألا يفترض فيكم أن تكونوا رجالاً صالحين؟

إذاً لماذا أن الذين يعودون منكم كلهم لصوص وقطاع طرق؟».

أما ما كان من أمر الأمبراطور (فردريك باربروسا)، فإنه خرج في ١١ أيار/مايو عام ١١٨٩ على رأس جيش عظيم، ليؤدي واجبه (المقدس) ويستخلص بيت المقدس من صلاح الدين.

لم يسلك طريق البحر، وهو الطريق الأسهل، ولكنه سلك الطريق البري الذي اتبعته الحملة الصليبية الأولى.

لقي الجيش مشقّة عظيمة، وتكبد خسائر كبيرة. وقبل أن يصل الأمبراطور إلى هدفه، مات غرقاً. وكان الجيش قد بلغ منه اليأس والإحباط، فلما فقد قائده، تفرق بدداً.

■ ■ ■

وصفه البابا (قرقوري التاسع) في عام ١٢٣٩ ـ أو خوه ـ بعد أن طرده من حظيرة الكنسية: «خرج من أعماق البحر حيوانٌ مسخ له سيقانُ دُب وفمُ أسد هائج وجسد نمر، يتدفق من بين شدقيه سيلٌ من القذارات والفحش والبشاعات ضد اللّه والكنيسة والقديسين».

هذا (المسخ الدجّال) ـ كما سماه البابا في مقام آخر ـ هو الأمبراطور (فردريك الثاني)، حفيد الأمبراطور (فردريك باربروسا). سار على نهج جده في خصام الكنيسة وزاد عليه، حتى وصل به الأمر أن البابا أخرجه من الملّة وشنّ عليه حرباً لا هوادة فيها بنيّة عزله من منصبه الأمبراطوري. إلّا أن البابا (قرقوري)، مات في عام ١٢٤١، وكان قد بلغ المائة من العمر.

تلك كانت وجهة نظر الكنيسة، وهو أمرٌ متوقعٌ منها، لأن (فردريك الثاني) أراد أن يحسم الصراع القديم الذي استمر في القرون الوسطى بين الدولة من ناحية والكنيسة من ناحية أخرى. وهو صراع لم يستطع جدّه حسمه.

أراد أن يفرض نفسه على أنه صاحب المشيئة الأعلى في العالم المسيحي، وأن البابا خاضعٌ له. لكن الكنيسة بطبيعة الحال لم تقبل وقاومت أشدّ المقاومة. وكان البابا (ملكاً محارباً) يملك المال والجيوش وسُبُل الدعاية ووسائل فرض الإرادة.

إنما شخصية الأمبراطور (فردريك الثاني) متعددة الوجوه، لم تزل تحرك الخلاف والجدل، بل الإعجاب، بين المؤرخين. وقد وصفه أحد معاصريه، وهو إنجليزي اسمه (ماثيو باريس) بأنه (أعظم الملوك).

ووصفه المؤرخ الألماني (كانتو روفتْشْ) من جامعة (هايدلبيرق)، في كتابه المرجع (القيصر فردريك الثاني) الذي صدر عام ١٩٢٧، وتُرجم إلى اللّغة الإنجليزية عام ١٩٦٣ بأنه «أول حاكم مُطلق استطاع أن يوحد شعبه وراء سياساته ويجعله أداة طيّعة في يديه». وقد شبّهه في كتابه بنابليون بونابرت.

هذا، ويقول الدكتور (كي. جي. ليسر) في كتابه (ألمانيا وجيرانها في العصر الوسيط): «... شخصية فردريك الثاني لم تسحر المؤرخين وحدهم، ولكنها لم تزل منذ القرن التاسع عشر، تخلب ألباب الفلاسفة والمفكرين والمبشّرين بالأفكار الجديدة. فعلى سبيل المثال، تجد أن الصفحات الأولى كلها من كتاب (جيكوب بوركهات) عن حركة الأحياء في إيطاليا، لا تتحدث عن شيء بقدر ما تتحدث عن فردريك الثاني.

إنه يعتبره أول حاكم بالمعنى الحديث للحكم، ويصفه بأنه داهية عميق الفكر، يحسب بدقة وأنه أقام جهازاً للدولة شديد التنظيم والكفاءة، مثل آلة موسيقية أو لوحة فنيّة بارعة.

ووصفه الفيلسوف (نيتشه) بأنه أحد هؤلاء الرجال الأفذاذ المحيّرين. وقد شاءت له أقداره إما أن يكون فاتحاً غازياً، أو تائهاً ضالاً. ويقول نيتشه إنه رغم ذلك أول حاكم أوروبي يروقه تماماً ويناسب ذوقه».

هذا، وفي كتاب آخر يُعدُّ من المراجع الكبرى عن حياة فردريك، هو كتاب (الإمبراطور فردريك الثاني) صدر عام ١٩٧٢، يقول مؤلفه (بروفسور تي. سي. ڤان كليف) من جامعة أكسفورد:

«كان الأمبراطور فردريك الثاني، ثقافياً وعقلياً، متفوقاً على عصره بمراحل. الّذين حاولوا الغض من شأنه لم يكونوا أكثر من مأجورين هدفهم تجريح سمعته وتشويه سيرته».

كان الأمبراطور (فردريك الثاني)، خليطاً من خليفة عبّاسي وقيصر رومانيّ. ينظم الشعر، ويؤلّف كتباً موثوقة عن الصقور والصيد. يجادل العلماء بفهم، ويؤوي إليه عدداً منهم، من بينهم الإدريسي، الجغرافيّ العربيّ.

حيثما يذهب يحمل معه سركاً عظيماً من الأسود والنمور والأفيال والزّراف والدّببة. وذلك مصدر وصف البابا (قريقوري) له.

بينما هو يغزو ويحارب، إذا هو يعيش في قصوره حياة ترف وتهتّك بين القيان والخصيان. كان نصرانياً... ومسلماً... وكافراً. وكان يقتل دون رحمة ودون أن يطرف له جفن.

مات في ١٣ كانون الأول/ديسمبر عام ١٢٥٠ في قلعة (فيورنتينو)، مهزوماً كسيراً. حُمل جثمانه إلى (باليرمو) ـ عاصمة مملكته الثانية في جزيرة صقلية ـ حيث دفن إلى جانب أبيه وجده، وكتبوا على قبره:

«لو كان الصدّق والذكاء والتفوّق والثروة ونُبل المحتد، يستطيع دفع الموت عن أحد، فإن فردريك الذي يرقد في هذا القبر، ما كان ليموت».

ما هو؟ وما شأنه؟ وما قصتُه؟

■ ■ ■

يرى المؤرخون أن من أهم العوامل التي أثرت على مجرى حياة الأمبراطور (فردريك الثاني) ـ أنه نشأ يتيماً.

توفي أبوه (هنري السادس) في عام ١١٧٩ وهو في الثالثة من العمر. وتوفيت والدته الأميرة (كُنْستانْس) بعد ذلك بعام واحد.

كان من ناحية أبيه، وريثاً لـ (فردريك باربروسا) أمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة، ومن ناحية أمه وريثاً للملك (روجر الثاني) على عرش صقلية.

لم يرث عرش أبيه أوّل الأمر، لأن الأمراء الألمان تجاهلوه بسبب صغر سنه، ولكنه أخذ مُلك صقلية بعد وفاة أمّه. وكان البابا (إنّوسنْت الثالث ـ Innocent) وصيّاً عليه. وهي مفارقة مريرة، لأنه سوف يتنكر للبابا حين يشتد عوده، ويدخل في صراع شرس ضد الكنيسة سوف يمتد إلى عهد خلَفه البابا (قرقوري التاسع).

لم يبذل البابا جهداً في تربيته، وتركه لأفراد الحاشية في صقلية. قضى (فردريك طفولته وصباه دون موجّه يردعه ويضبط سلوكه. كان يفعل ما يشاء ويتعلّم على هواه. كان يختلط بالنبلاء والعلماء والرّعاع والصعاليك واللّصوص والمغامرين.

كان شديد الذكاء، في طبعه ميلٌ عظيم للتهور والمغامرة. وقد وصفه أحد المؤرخين أنه «تعلّم صناعة الحكم في مدرسة قذرة سيئة السّمعة».

يقول عنه المؤرخ الإنجليزي الكبير (اتش. أي. ال. فشر):

«من ضباب القدح والإشانة من المؤرخين المحدثين، تبرز شخصية (فردريك الثاني) آخر أباطرة العصور الوسطى، شخصيّة جذّابة جاذبية تدعو إلى الدهشة.

كان رجلاً مملوءاً بالمواهب والتناقض. متقلبّ المزاج، يجمع بين الرقّة والقسوة. يتكلّم ست لغات ـ منها العربية ـ بطلاقة عظيمة. يؤلّف الشعر الغنائي بأسلوب صقلّي دافئ. يهيم بفن العمارة وينفق بلا حساب على تشييد المباني التي تعد تُحفاً فنية ـ يرعى العلوم والفنون. محارب أتقن فنون الحرب، ورجل دولة من طراز فريد، عظيم الدهاء واسع الحيلة. ورغم ذلك، كان يتهوّر أحياناً دون أن يحسب حساباً للعواقب، أو يبالي بالنتائج.

كان إقباله على التعلّم لا حدود له، وقد قاده ذلك إلى أن يلقي بنفسه في خضمّ الفلسفة والفلك والرياضيّات والطب والتاريخ والعلوم الطبيعيّة.

اختلط بالناس من مختلف الأعراق والديانات والطبائع والأمزجة، فنشأ متحرراً في سلوكه، لا يخضع للأعراف السائدة في عصره. كان يصطفي المسلمين واليهود، ويقرّب إليه المسلمين خاصة، ويضعهم في مناصب رفيعة في الدولة، ويستغلهم لتنفيذ سياساته.

كان إنساناً محيّراً في تناقض سلوكه وتقلّب مزاجه، متسامحاً إلى أقصى حدود التسامح. يتقن اللغة العربيّة وله حريم ضخم كأنه أمير شرقي. يحمي المسلمين واليهود، ثم إذا هو يؤلّف كتاباً يشتم فيه المسيحيّة واليهودية والإسلام.

ثم لا يتردد في حرق أيّ (مرتد) من المسيحيين أو اليهود أو المسلمين.

كانت له طاقة هائلة. واقعي في السياسة. فنان مرهف بالغ الحساسية نصف شرقيّ ونصف غربي. متصوّف وملحد في الوقت نفسه، جريء، مقدام، ثوريّ في فكره وسلوكه. وصفه معاصروه بأنه «أعجوبة العالم»، وقد ظلت صورته كذلك إلى اليوم، رغم تعاقب القرون وتقادم الحِقب».

٨

نيويورك

أول مرّة زرت مدينة «نيويورك» كانت في عام ١٩٦٠، أرسلني القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية لأصف وقائع جلسات الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في تلك الدورة التاريخية التي حضرها أغلب زعماء العالم. أذكر وصولي من لندن قُبيل الغروب، وأذكر إحساسي بالغربة وأنا أنظر إلى لون الشفق. لون بين البنفسجي والأرجواني والأحمر، كأنك تنظر إلى رسم سوريالي. كأنه لا يأتي من جهة بعينها، فلم أستطع أن أميّز أين الشرق وأين الغرب، وهل ثمة شروق أم غروب.

هل كان اسم المطار «أيدلوايْد» في تلك الأيام؟ لم يكونوا قد أسموه مطار «جون أف كندي». لم يكن «كندي» قد صار رئيساً بعد. كل تلك الأحداث المأساوية لما تزل في طيّات الغيب. أحس بغير قليل من التوجس بعد رحلة طويلة عبر المحيط الأطلسي، وفارق

الوقت، والزمن كأنه لا يتحرك، وصورة «أمريكا» في ذهني فوضى، خليط من انطباعات غير مترابطة.

من الكتب كنت قد قرأت كثيراً بالطبع في الأدب الأمريكي. روايات «شتاينْبك» و«همنجوي» و«سكُت فتزجرالد» و«سالنجر» و«فولكْنرْ». والشعراء «والتر اوتْمان» و«روبرت لوول» و«روبرت فرُست». كنت وما أزال شديد الإعجاب بـ «روبرت فرست». والمسرح. قرأت وشاهدت على مسارح لندن أعمال «يوجين أونيل» و«آرثر ملَر» و«تنسي ولْيَمْز». والنقاد: «إدمونْد ولْسُن» و«ليُنل ترلنج» و«ماري مكارثي». والكتّاب السياسيين خاصة «والتر لبْمان» و«برفّسر كينان».

وراء ذلك كله، تلك الصورة الزّاهية التي انطبعت في ذهني وأنا بعدُ صبي، من قراءة الطبعة العربية من الـ «ريدرز دايجست» التي كانت تصدر في الأربعينيات باسم «المختار». كنت أنتظر صدورها لا أكاد أقوى على الصبر، أدخر من مصروفي القليل، لأشتريها كل شهر. كان يترجم المقالات عن الإنجليزية كبار الكتّاب في مصر، أمثال ابراهيم عبد القادر المازني وأحمد زكي وفؤاد صروف، وربما العقّاد أيضاً.

إنني أذكر شكلها الجذّاب، بين الكتاب والمجلة، والرائحة الفضة النافذة، حين تأخذ في تقليب أوراقها، والمواضيع الطريفة المتنوعة. واللغة. إنني ما أزال أذكر بعض العبارات التي انحفرت في ذاكرتي حفراً، مثل قول «الكْس كارل»:

«ليس الشباب زمناً من أزمنة الحياة، بل هو شعور في النفس

وإرهاف في العزيمة وتوقُّد في الخيال، وغلبة شهوة المغامرة على حب الراحة...».

كنت أنتفض طرباً وأنا اقرأ مثل هذا الكلام ـ وأنا بعد صبي، وكانت عبارات مثل عبارة «شهوة المغامرة» تحدث بلبلة في وجداني، أنا الطفل المرهون بآفاق وادي النيل.

كانوا يقدمون عالماً مزيجاً من الصدق والكذب ـ كما أدركت فيما بعد ـ عالماً مغرياً يسوده العدل والحب والسعادة. يتحول فيه الفقراء بجهدهم ومثابرتهم إلى أغنياء. يتغلب الناس على الصّعاب، لا يحد شيء من طموحهم. عالم مرح متفائل. وكانوا يقدمون في كل عدد ملخّصاً لكتاب يسمونه كتاب الشهر. أذكر كتاباً عن حياة «هلن كلَرْ»، تلك السيدة البكماء الصمّاء التي لم تمنعها عاهاتها أن تتعلم ويصبح لها شأن. وكتاب اسمه «لوبو ملك الذئاب»، وكتاب اسمه «الملكات يمُتن كريمات» عن الأعمال (البطولية) لقاذفات القنابل الأمريكية في المحيط الهادي في الحرب العالمية الثانية. وكتاب «آكسل منتي» الشهير «قصة سان مشيل». قرأت الكتاب باللغة الإنجليزية فيما بعد، وزرت «قلعة سان مشيل» في نورماندي، التي يُقال إنها أوحت لآكسل مُنتي بالكتاب، وعبثاً حاولت أن أسترجع المتعة التي وجدتها من قراءة الملخص في مجلة «المختار».

ثمّة سمعت لأول مرة عن «مارك توين» صاحب القصص الرائعة عن مغامرات «تون سوَين» و«هكلْبري فنْ». وعن «أمرْسن» و«هو ثورن» و«جاك لندن». كانت «المختار» زوبعة ثقافية بحق. لقد عادت الآن إلى الصدور، بعد أن كانت قد توقفت زمناً، ولا أعلم كيف هي الآن، وهل الأجيال الجديدة يقبلون عليها بشغف كما كنا

نفعل. ولعل الأمريكيين لا يدركون أي رصيد من الإعجاب تجاه بلدهم صنعته تلك المجلة لمدى مئات الآلاف من العرب، وهو رصيد ظلّت أمريكا تبدده بقسوة منذ عام ١٩٤٧ وإلى اليوم.

ضَعْ إلى جانب هذه الصورة المشرقة، صورة أخرى بدأت تتكوّن لديّ بعد مجيئي إلى لندن. الأفلام عن العنف والمافيا والإجرام. والأنباء في الصحف الإنجليزية عن حوادث الخطف والنهب المسلح، وخاصة في مدينة «نيويورك» حيث لا يأمن الإنسان أن يسير في وضح النهار، حسب تلك الروايات.

بكل تلك الأحاسيس المتضاربة اتجهت إلى جاري في الـ(بَصْ). رأيت رجلاً ضخماً لا يكاد المقعد يتسع لجسمه، صارم الوجه، تماماً مثل مجرم في فيلم عن «آل كابون». صدمني المنظر وكدت أحجم عن السؤال، ولكنني تماسكت، كما أفعل، ومضيت قدماً:
«معذرةً. هل تعلم كيف أصل إلى هوتيل (بلتمور)؟».

أدخلني في ورطة حين قال على الفور:
«إنني أنزل في هوتيل قريب منه. سوف أوصلك إليه».

عجبت لصوته. كأنه لا ينتمي إلى ذلك الجسم. صوت رقيق مهذّب فيه لكنة خفيفة، ربما تكون إسبانية.

كانت الشمس تؤذن بالغروب حين هبطنا من الـ (بص) في (مانهاتن). الغروب أو الشروق أو لعلها غربت بالفعل أو شرقت. لا تدري. إنما ذلك الضوء العجيب ينعكس من الزجاج، مساحات شاسعة من الزجاج، من المباني العملاقة التي حُشدت في ذلك الحيز

الضيّق. أيّ خيال مجنون فعل هذا؟ ولماذا؟ والضوضاء والزحام. كأنك في كوكب آخر.

قلت للرجل:
«هل نأخذ تاكسي؟».
«لا داعي لذلك. هوتيل «بلتمور» على بعد خطوات من هنا».

شكرته على لطفه ولكنه لم ينصرف، بل انتظر حتى أتممت إجراءات تسجيل وصولي، وأعطوني مفتاح غرفتي. قلت له:

«أنا حقاً مدين لك. أشكرك على مساعدتي. أظن أنني سوف أنام مبكراً لأن أمامي غداً مهمة شاقة».

«عندك وقت كافٍ للراحة. سوف أتركك الآن وسوف أمر عليك في الساعة التاسعة. يسعدني أن تقبل دعوتي للعشاء».

أي ورطة هذه؟ العشاء مع واحد من جماعة «آل كابون»؟ ولكن «شهوة المغامرة» لدي، تغلّبت على إيثار السلامة، وقلت فلْيكن.

وصلنا مطعماً في شارع شديد الاتساع، أوسع حتى من «الشانزليزي» في باريس، عرفت من الرّجل أنه شارع الأمريكيتين. وعلى العشاء أخبرني أنه محام من قواتيمالا وله مكتب في نيويورك. كان مهذباً جداً، واسع الاطلاع، كثير الأسفار فيما يبدو. زار مصر وسورية، وعنده فكرة عن السودان. يعرف على الأقل أن عاصمته تُسمى الخرطوم. لكنني رغم ذلك لم أستطع أن أتغلب على إحساس الشك الذي ساورني إزاءه من أول وهلة. لعلّه تاجر سلاح.

لعله مهرّب مخدرات. كل شيء جائز في هذا العالم الغريب.

أعطاني الكرت باسمه وعنوانه وأرقام تلفوناته.
«أرجو ألا تتردد في الاتصال بي إذا احتجت إلى أي مساعدة».

إلا أنني لم أره بعد ذلك. لم أتصل به، وحمدت الله أنه لم يتصل بي. جذبتني فصول المسرحية المثيرة التي كانت تُمثل على مسرح الأمم المتحدة.

■ ■ ■

قاعة الجمعية العمومية في مقر هيئة الأمم المتحدة. حين دخلت وجدت شاباً آسيوياً غض الوجه واقفاً على المنصّة، يخطب باللّغة الفرنسية، صوته يرتعش بالغضب والعاطفة. يقول:

«صحيح أنا أمثل دولة صغيرة لا وزن لهما بمقاييس القوة في العالم. لكن ذلك لن يمنعني من التعبير عن رأيي بصراحة...».

ثم مضى الشاب يهاجم بشراسة ما وصفه بالتدخل الاستعماري في شؤون كمبوديا.

كان في صوته عمق ورنّة صدق تهزّ مشاعر السامع، مهما كان. الأمير سيهانوك المسكين. تستمع إليه اليوم بعد مضي ثلاثين عاماً، فلا تشعر بشيء. هل هو تغيّر أم أنت تغيّرت؟ ظلّ على خشبة المسرح، لا يريد أن يختفي، يقول الكلام نفسه، ويلعب الدور نفسه، والسنوات تمر، وجسمه يشيخ، وشعره يبيّض، ووجه يتجعد،

ومشاكل كمبوديا لا تُحل بل تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

القاعة رحبة مصمّمة بعناية. دائماً يفلحون في بناء القاعات. أجلس في غرفة زجاجية تطل على القاعة، في المكان المخصص للصحافيين والمراسلين على يمين المنصة. الرئيس وإلى يمينه «داج همرشولد» الأمين العام. سوف أشهد فيما بعد، دراما احتمال استقالة «همرشولد». أمامي مباشرة لوحة جدارية تجذب انتباهي. وصفتها في أول رسالة إذاعية بعثت بها بأنها تشبه «قلباً آدمياً مفتوحاً أو دجاجة مشوية».

يا له من وصف غريب! لماذا قلت ذلك؟ ولكنني حين أفكر الآن أجد أن الصورة على غرابتها لم تخلُ من صدق. التناقض العبثي بين أحلام الإنسانية المتعلقة بذلك المكان وواقع ما يحدث فيه بالفعل. الإيماءات بالألم والمعاناة في صورة القلب الآدمي الذي شق أحد عنه الصدر وأخرجه منه. ثم كأنه شوى القلب وقدّمه على طبق لأحد ما ليأكله.

لكن لعلّني لم أكن أعي تماماً ما أقول. لعلّني فقط كنت ثملاً براح الشباب، كالدائخ من جدة المكان، مزهواً بما حسبته قدرتي على التعبير، أهذي بكلام لا أفهم معناه.

قلت أيضاً في تلك الرسالة، أن صوت الأمير «سيهانوك» الغاضب هو صوت دول «العالم الثالث» ـ دول عدم الانحياز.

إن كان ذلك حقاً، فإن صوت الأمير «سيهانوك» اليوم، بعد ثلاثين عاماً، صوت ضعيف، متعب، يائس، مغلوب على أمره.

كان التعبير جديداً تلك الأيام ـ العالم الثالث. وكان مفهوم «عدم الانحياز»، بغيضاً إلى الدول الكبرى في الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، وقد استمعت إلى «جواهر لآل نهرو» العظيم، استمعت إليه عدّة مرات بعد ذلك، يشرح للأمريكان بصوته الهادئ المتحضر، أن «عدم الانحياز» لا يعني «الشيوعية» كما يظنون، وأنه لا يمثل أي خطر عليهم.

ها هم جميعاً في القاعة؟ أبطال «حركة عدم الانحياز». نهرو ونكروما وسكتوري وسوكارنو وجمال عبد الناصر. كلهم ما عدا تيتو. راحوا عن بكرة أبيهم، بالحق أو بالباطل. يوغوسلافيا التي كوّنها تيتو بعد جهد جهيد تتناثر أشلاء.

كانت روح عدم الانحياز، هي الروح الطاغية على ذلك الاجتماع. وكنت أعمل في إذاعة دولة من الدول الكبرى التي يهاجمها هؤلاء الزعماء في خطبهم. ووجدتني في التقارير التي أرسلها أتبنى موقف «عدم الانحياز»، ليس عن وعي أو تدبير، ولكن بعفوية كاملة، كأن ذلك هو الموقف الطبيعي. أليست هيئة الإذاعة البريطانية هيئة «مستقلة» «محايدة»؟

لم يعترض رؤسائي الإنجليز في لندن على ما كنت أبعث به إليهم، فكانوا يذيعونه بلا حذف أو تغيير. لم يفرضوا عليّ رقابة من أي نوع، فقد كانوا يفهمون، أنني تعلمت منهم «الأمانة المهنية». لم أكن أزيّف شيئاً، أو أغيّر أو أبدّل شيئاً. كنت أنقل بأمانة شيئاً، ما أراه يحدث أمامي. وكان معظم ما يحدث في ذلك الاجتماع مخالفاً لسياسات دولتهم. ومع ذلك تركوا لي الحبل على الغارب، وكانوا يقدرون بلا شك، أن ذلك لن يضيرهم في نهاية الأمر.

في جلسة بعد الظهر، سادت في المكان روح جديدة. اجتمعت كلمتهم، ونسوا خلافاتهم. احتفلوا بقبول نيجيريا التي استقلت لتوها، عضواً في الأمم المتحدة. كان احتفالاً بهيجاً ـ شيئاً مثل العرس. دخل وفد نيجيريا القاعة في ثيابهم الجميلة الفضفاضة، يتقدّمهم رئيس وزرائهم، أبو بكر تفاوا بليوا. هل تذكرونه؟ وكان أبو العروس، إن صحّ الوصف، ذلك السياسي الداهية، هارولد ماكملان. وقف بقامته المديدة، وشاربه وعينيه اللتين تعطيان وجهه طابعاً مغولياً ـ وقف مرحباً ومهنئاً.

رجل تُعجب به، كما تُعجب بممثل بارع، حتى وهو يؤدي دوراً بغيضاً إليك. أرستقراطي، ولكن ليس بالوراثة، فهو ينحدر من أسرة إسكتلندية، دفعها الفقر إلى الهجرة إلى إنجلترا، فعملوا بجد، وكوّنوا ثروة، وأنشأوا دار ماكملان، وهي من دور النشر الكبرى في لندن. تعلّم تعليماً أرستقراطياً، وتزوّج ابنة (دوق). دخل البرلمان بسهولة، كما يحدث لأبناء الأسرة العريقة، وكان حزب المحافظين يعتبره «ثائراً»، ثم تحول تدريجياً إلى اليمين، وأصبح مقبولاً لأقطاب الحزب، الذين وجدوه صالحاً لرئاسة الوزارة، بعد فشل فتاهم المدلل «أنتوني أيدن».

كان حزب المحافظين يسمي إيدن «الفتى الذهبي» فقد كانوا يجدون فيه كل الصفات التي يطلبونها في الزعيم. كان أرستقراطياً أباً عن جد، وسيماً بمقاييس الإنجليز، درس في جامعة أكسفورد، وخدم في الجيش، وأبلى بلاء حسناً. ولم يكن وقّاد الذهن إلى الحد الذي يخيفهم منه، فهم لا يطمئنون إلى النوابغ، ولا يولونهم إلّا مضطرين. وكان يعرف الفرنسية والعربية والفارسية، واكتسب شهرة واسعة لمهارته الدبلوماسية. أصبح وزيراً للخارجية ولمّا يبلغ الأربعين

من العمر، ثم استقال من ذلك المنصب في وزارة «تشمبرلين» احتجاجاً على سياسة الحكومة في مهادنتها لهتلر ونظامه النازي. ذلك قوّى من رصيده السياسي. ولما تولّى «تشيرشل» رئاسة الحكومة، عاد «إيدن» إلى وزارة الخارجية وأصبح نائباً لتشيرشل في زعامة الحزب وفي رئاسة الحكومة. وظل سنوات ينتظر أن يحل محله، وبعد لأي قبل تشيرشل أن يذهب.

لم يكد يمضي عامان على تولّي «إيدن» رئاسة الوزارة، حين دخل في صراع مع شاب من صعيد مصر يسمّى جمال عبد الناصر. وكأنّ كل خبرته في الدبلوماسية، ومعرفته بشؤون الشرق الأوسط قد فارقته، فتورط في مغامرة طائشة حين تآمر مع فرنسا وإسرائيل على غزو مصر. حوّل القضية إلى صراع شخصي بينه وبين عبد الناصر، وحاول أن يقنع الشعب البريطاني أن عبد الناصر «هتلر» جديد يجب القضاء عليه. لكنه لم يفلح، بل أحدث انشقاقاً خطيراً في الرأي العام البريطاني، وفي البرلمان، وفي صفوف حزب المحافظين، واستقال «آنتوني نتنج» وزير الدولة للشؤون الخارجية، وواحد من المقربين إلى «إيدن». وتوترت علاقة بريطانيا مع أمريكا. وانتهت المغامرة بالفشل.

حين اضطر «إيدن» إلى إيقاف الحرب، أعلن في البرلمان أن «الحملة» قد حققت أهدافها، فتصدى له «أنايرن بيفان» نائب رئيس حزب العمال، من سلالة عمّال المناجم في «ويلز». حادّ الذكاء، سليط اللّسان، قوي الحجة، من الخطباء المعدودين في تاريخ البرلمان البريطاني. قال بصوت مملوء بالاحتقار الذي عُرف عنه لحزب المحافظين:

«إن رئيس الحكومة ينفخ أبواق النصر وهو يتجرع غصص الهزيمة».

البريطانيون، وحزب المحافظين خاصة، لا يغفرون لزعمائهم إذا قادوهم إلى هزيمة. لذلك ضحّوا بفتاهم «الذهبي». تخلّصوا منه بهدوء، كعادتهم، وجاءوا بدلاً منه، بهذا الثعلب الماكر ـ هارولد ماكملان ـ ليخرجهم من الورطة.

■ ■ ■

كان رجلاً عجيباً ذلك الرجل ـ هارولد ماكملان.

ها هو ذا يقف على المنصة الخضراء من الرخام. وراءه على مستوى أعلى حيث يجلس الرئيس ـ وزير خارجية إيرلندا، إذا لم تخنّي الذاكرة ـ والأمين العام، داج همرشولد، الرجل السويدي الذي يتأرجح مصيره في الميزان.

حياهما بانحناءة خفيفة، ثم تمهل وهو ينظر في القاعة المحتشدة. رجل طويل القامة، غزير شعر الرأس، أشيبه ـ ضيق العينين. في وجهة شيء من وجه السنجاب. هيئته، خليط من الاستعلاء والسخرية والملل. كأنه يمثل على المسرح دوراً لا يكرهه ولكنه ليس راضياً عنه تماماً. كان كذلك طوال الفترة التي حكم فيها.

جاء به حزب المحافظين بعد ورطة «حرب السويس» ليصلح ما أفسده «آنتوني إيدن» فاتجه أولاً إلى إصلاح الأمور مع الأمريكان، ثم ساق الحزب ناحية اليسار، وهو يحدثهم حديث أهل اليمين، وعمل على تفكيك الأمبراطورية البريطانية، وهو يؤكد لهم أن

بريطانيا ما تزال دولة عظمى. قال للشعب البريطاني على التلفزيون، والسخرية في عينيه، توحي بأنه لا يعني ما يقول:

«يجب أن تعترفوا بأنكم أبداً لم تتمتعوا بالحياة كما تتمتعون بها الآن».

حين ذهب حزب المحافظين وجاء حزب العمال، وجدوا الاقتصاد منهاراً والخزينة خاوية.

في خطبة له في «جوهانسبرج» معقل النظام العنصري في جنوب أفريقيا، قال قولته الشهيرة:
«إن رياح التغيير تهب على القارة الأفريقية».

واليوم ونحن ننظر إلى ذلك النظام الكريه يتقوض ونكاد نرى نهايته رؤية العين، لا نملك إلا أن نتذكر بغير قليل من الإعجاب، هارولد ماكملان، الاستعماري القديم، الذي عرف أن زمان الاستعمار قد ولّى.

كان يحب قراءة روايات «ترلوب» التي يسخر فيها من الطبقة الأرستقراطية وكانت فضيحة «برفيومو» التي حدثت في عهده، كأنها رواية من تلك الروايات. حين كشفت الصحافة عن علاقة وزير في الحكومة ببائعة هوى تسمّى «كريستين كيلر» أنكر الوزير العلاقة أول الأمر، ثم اضطر إلى الاستقالة تحت ضغط الرأي العام والبرلمان.

هاج الشعب واضطرب حزب المحافظين، واهتزت الحكومة وهذا

الرجل العجيب هادئ الأعصاب، يراقب ما يجري مثل رجل كبير يراقب عبث أطفال.

اختفى «برفيومو» عن مسرح السياسة، وقد كان أحد الذين يتنبأون لهم برئاسة الوزارة في يوم من الأيام، وانقطع لأعمال الخير في أحياء لندن الفقيرة.

أما «ماكملان» فقد جمع شتات الحزب كما فعل بعد «حرب السويس» وحكم بمزيج من الدهاء والسخرية إلى أن مل اللعبة فتنازل طواعية لـ«لورد هيوم». لكنه حتى وهو يفعل هذا، لم يستطع أن يقاوم رغبته في العبث، فرشح خلفاً له، أرستقراطياً من اسكتلندا، يشهد الناس له بالاستقامة وحسن الخلق، ولكن ليس بالكفاءة، وتجاوز «راب بتلر» الذي شهدوا له بالقدرة والكفاءة. كان بتلر هو الذي أقنع حزب المحافظين بقبول الخطوات التي اتخذتها حكومة العمال من قبلهم، لخلق مجتمع أكثر عدالة، ووضع أساس «الإجماع» الذي قبله الحزبان وحكما بمقتضاه، إلى أن جاءت «مسز ثاتشر».

كان يؤمل أن يخلف «إيدن» وظل ينتظر أن يخلف «ماكملان» فلم يسعفه هذا الثعلب المراوغ.

يقف الآن على منصة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، يواجه الشاب المصري من الصعيد الذي تطاول على هيبة الأمبراطورية. وثمة زعماء عدم الانحياز الذين عاونوه على جرأته. بعضهم، مثل نهرو ونكروما، يمثلون دولاً كانت إلى الأمس القريب، تخضع للتاج البريطاني.

بعد أن فرغ «ماكملان» من إلقاء كلمته، وقف رئيس وزراء نيجيريا، سير أبو بكر تفاوا بليوا، فألقى كلمة بلغة إنجليزية رصينة، شكر فيها بريطانيا على حسن تصريفها لشؤون نيجيريا وإعدادها للاستقلال. وكان «ماكملان» يستمع راضياً، مثل أب يشهد حفل تخريج ابنه من الجامعة. ولعله أحس أن ذلك يكفي لإزالة المرارة التي أحدثها غزو بريطانيا لمصر.

■ ■ ■

بينما كان «هارولد ماكملان» يقف خطيباً على المنصة، بتلك النّبرة المتعالية قليلاً، الساخرة قليلاً، التي يغلب عليها ذلك السّأم الأرستقراطي، كان ينظر من حين لآخر إلى رجل يجلس في أقصى يسار القاعة، وكأنّه يتوجه بحديثه إليه شخصياً. رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم، ليس حسن الهندام، هيئته مثل هيئة رئيس عمّال بناء، أو عمّال شحن في ميناء. رجل لو خُيّر «هارولد ماكملان» لما اختار أن يدعوه إلى العشاء في داره في لندن، مع صهره «دوق دفنشاير». إلا أن ذلك الرجل، الذي يجلس متحفزاً مثل ذئب رابض، هو نجم هذا المهرجان دون منازع. نكيتا سيرقيفتش خريتشوف، أمين عام الحزب الشيوعي ثمة، وأقوى رجل في الاتحاد السوفياتي.

أراه بوضوح من حيث أجلس في غرفة من الغرف الزجاجية المخصصة للمراسلين، التي تشرف من علٍ على بئر القاعة. خُيّل إليّ أنني رأيت شفتيه تتحركان بعصبية وكأنه يهمهم بعبارات بذيئة - فيما بعد قال شيئاً بذيئاً بالفعل - حين أطنب «هارلود ماكملان» في وصف خيرات الاستعمار على نيجيريا، وكأنّ الاستعمار نعمة كبرى منّ الله بها على تلك البلاد.

كان يصل دائماً قبل بدء الجلسة بنحو ربع ساعة، يقود وفده الكثير العدد، تماماً كما يأتي رئيس عمَّال مع عمّالة لاستقبال سفينة بضائع حلّت بالميناء. ويجلس متحفزاً طوال الجلسة، السمّاعات على أذنيه، يكتب أحياناً، ويرفع رأسه إلى المتكلم أحياناً، لا يكلّ ولا يملّ، ولا يترك مقعده حتى نهاية الجلسة.

مرةً لاحظ قلّة الحضور في جلسة صباحية، فهبّ واقفاً، وصرخ غاضباً قبل أن يعطيه الرئيس الإذن:

«أين يذهب هؤلاء المندوبون؟ ماذا يفعلون؟ إن دولهم الفقيرة تدفع أموالاً طائلة لترسلهم إلى نيويورك، ليس للفسحة والتسكع ولكن للعمل».

لم يلبث المندوبون الذين كانوا بالفعل يتسكعون في الردهات ويشربون القهوة في الصالة الفاخرة المخصصة لأعضاء الوفود، أن جاءوا يتسابقون إلى قاعة الجمعية العمومية.

حوّل جلسات تلك الدورة بمهارة عظيمة إلى فصول في مسرحية «تراجيكوميدية». البطل الذي يمثل قوى الخير والعدل والحرية، هو الاتحاد السوفياتي. الشرير الذي يمثل قوى الظلام والباطل والقهر، هو «الأمريكاني» ومعه حلفاؤه دول الغرب، وما أسماهم بالخدم والأذيال في بقية أنحاء العالم.

لم يكن يسمّي الدول المُتخاصم معها بأسمائها، وكأنه لا يعترف بوجودها، فيقول «الأمريكاني» و«الإنجليزي» و«الفرنساوي» و«الطلياني» وهكذا. ولم يكن راضياً تماماً عن دول عدم الانحياز،

شأنه في ذلك شأن الأمريكان، فقد كان يريدهم أن يعلنوا صراحة انحيازهم إلى معسكر الاتحاد السوفياتي، لكنه كان يكفّ عن شتمهم، ويكتفي بالسخرية منهم من وقت لآخر.

ثم اختار عمداً بعض المندوبين ليمثلوا أدواراً كوميدية، ويكونوا هدفاً لمزاحه وعبثه وسخريته. فعل ذلك خاصة مع مندوب الفيليبين.

كان مندوب الفيليبين رجلاً قصيراً نحيلاً يلبس نظارة ويتحدث اللغة الإنجليزية بلكنة أمريكية واضحة وأسلوب متقعر. ومع أن الرفيق نكيتا سيرقيفتش نفسه، كان أبعد ما يكون عن وسامة «كلارك جيبل»، فقد وجد في ذلك الرجل الطيّب ولا بد، هدفاً مستديماً لسلاطة لسانه. وكأنّ «الفيليبيني» استساغ ذلك الدور، كما بين القط والفأر، فكان يتصدى لخريتشوف، مدافعاً عن وجهات نظر يعلم أنها سوف تثير ثائرته. وخيّل إليّ أنه نشأ بينهما شيء يشبه الألفة.

قال خريتشوف مرّة، إن «الفيليبين» يتبع «الأمريكاني» كما يتبع الكلب سيّدة. فإذا.. الأمريكاني... الفيليبيني - والكلمة بذيئة ترجمها المترجم الإنجليزي بهدوء ورصانة. هب مندوب الفيليبين واقفاً، وقال بغضب، والناس يضحكون:

«إنني أحتج يا سيّدي الرئيس على اللهجة البذيئة التي يستخدمها رئيس وفد الاتحاد السوفياتي. إنه يتهجم على ممثل دولة مستقلة ذات سيادة».

فقال خريتشوف:
«الفيليبيني يتحدث عن استقلال بلاده، أين هو هذا الاستقلال؟

الإنسان يحتاج إلى منظار مكبّر كي يراه».

تحت ستار المزاح والعبث والبذاءة، كان واضحاً أنه يلعب دوراً ليس لعباً. كان يوجه ضربات موجعة إلى «هيمنة» الولايات المتحدة، ويريد أن يزعزع العلاقات بينها وبين حلفائها خاصة في آسيا وأفريقيا.

وربما أراد أن يهيّج الشعوب على حكامها في بعض البلاد. كان يخاطب الشعوب مباشرة فوق رؤوس حكّامها من ذلك المنبر العالمي. وكان يعرف أوضاع الفيليبين حق المعرفة، وأن أجزاء ليست صغيرة من الرأي العام متبرّمة من النفوذ الأمريكي في الفيليبين ومن وجود قواعد عسكرية هناك.

في آخر جلسة حضرها قبل سفره اعتذر لكل الذين قد يكون أساء إليهم، وطيّب خاطر «الفيليبين» بصفة خاصة. قال:

«الفيليبيني رجل لطيف في الحقيقة. أرجو ألا يكون غاضباً منّي وآسف إذا كنت قد آلمته أحياناً».

ضحك الناس وضحك مندوب الفيليبين، الذي لا بد أنه تنفس الصعداء، وحمد الله أن ذلك العبء قد انزاح عن كاهله. إلا أن الصحافيين، وخاصة الأمريكان، أحسّوا بغير قليل من الحزن لسفر خريتشوف قبل نهاية الدورة، فقد نشأت بينهم وبينه علاقة لا تخلو من الود.

■ ■ ■

الساعة قُبيل منتصف نهار الجمعة الثاني والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف.

هذه أول مرة أدخل قاعة الجمعية العمومية للأمم المتحدة منذ أن دخلتها قبل ثلاثين عاماً.

تغيّرت أشياء كثيرة، ولكن هذه القاعة كما أذكرها. أجلس الآن في المكان المخصص للجمهور. أمامي مباشرة منصة الرئيس، وأسفلها منصة أصغر حيث يقف الخطباء. السجاد أكثر اخضراراً مما أذكر، ومنصة الخطباء ليست من الرخام الأخضر كما ظننت، ولكنها رمادية اللون مشربة بالزُّرقة، منصة الرئاسة أعلاها هي التي من الرخام الأخضر. اختلطت الألوان في ذاكرتي كما اختلطت أشياء كثيرة، فثلاثون عاماً ليست بالأمر السهل. هنالك في أقصى الركن الأيسر من موضعي الآن، الغرفة الزجاجية حيث جلست طيلة شهر كامل، أراقب فصول مسرحية محزنة أحياناً، مضحكة أحياناً.

القاعة ما تزال كأنها بنيت لتوها، يعلق بها طابع الجدّة، مستديرة، أو كالمستديرة، ينزل فوقها السقف في شكل مخروط، يميل إلى الأمام، المناضد، حيث يجلس المندوبون خضراء أيضاً. الجدران رمادية يتخللها اللون البني، لون الخشب. أعلى منصة الرئاسة على الحائط المواجه لي، دائرة واسعة، تضم غصن الزيتون الشهير، الذي يحمل خريطة العالم كما تحمل راحة اليد الكأس.

اللوحة الجدارية التي وصفتها قبل ثلاثين عاماً بأنها تشبه «قلباً آدمياً مفتوحاً» ما تزال في مكانها. أراها الآن على يميني. أمعن فيها النظر. الله أعلم، ماذا تعني؟ أتخيّل الآن أنني ألمس الخطوط الملساء المنحنية.

أرى على يساري لوحة لم أنتبه لها يومئذ. تشبه اللوحة على اليمين، كأنها انعكاس لها في مرآة.

كنت برفقة زوجتي وشاب سوداني يعمل في سكرتارية الأمم المتحدة اسمه خضر الطيّب عبد الرزاق. سوداني كما يحب الإنسان أن يكون السوداني. درس الهندسة في موسكو وحاول أن يستقر في السودان. يعمل هنا مترجماً، يترجم من الروسية والإنجليزية إلى العربية. هو والدكتور علي عبد الله عبّاس والدكتورة كنستانْس بيركلي، كانوا لنا خير عون في هذه الرحلة.

الدكتور علي عبد الله عباس، أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة الخرطوم. إنسان نابغة، له شهرة واسعة في ميدانه. كريم الخلق، جمّ التواضع، أصيل، أهله نزحوا من «أبو حراز» إلى أم درمان. يحاضر الآن في جامعات أمريكا وقلبه يخفق بحب السودان ويهفو إلى جامعة الخرطوم. أخواننا هؤلاء أدخلوه السجن. مكث ستة أشهر دون أن توجّه إليه أية تهمة. حمد الله أنهم أدخلوه سجن «كوبر» فهو سجن قديم من أيام الإنجليز، تراعى فيه اللوائح والأصول. ثم خرج دون أن يكلمه أحد. جاء إلى الولايات المتحدة بمنحة من مؤسسة «فلْبرايت».

كانوا قد صنعوا ذلك بشيخنا إبراهيم الصلحي أواخر عهد النميري. كان وكيلاً لوزارة الإعلام والثقافة. فنان موهوب، لوحاته تعرض في متاحف الشرق والغرب. رجل ثقافة وفن وسلام، لا صلة له بالثورات والانقلابات. وجدوه يعمل في مكتبه ذات صباح باكر، وكانت تلك عادته، وصادف حدوث محاولة انقلاب في ذلك الصباح، وأن قائد الانقلاب كان من أقربائه. أدخلوه السجن حيث

مكث ستة أشهر دون أن توجه إليه أية تهمة، ثم خرج وهو لا يعلم لماذا أدخلوه السجن ولماذا أخرجوه منه.

خرج فوجد منزله الحكومي لم ينزع منه، ومرتبه الشهري يدخل حسابه في البنك بانتظام، وأكثر من ذلك، إنهم كانوا يحسبون له «بدل طبيعة عمل» وهو في السجن. ثم طلبوا منه أن يعود إلى عمله، وكأن شيئاً لم يكن. يقول إبراهيم الصلحي: «قررت حينئذ أن أترك السودان. قلت هذا بلد مجانين».

السودان من أعقل بلاد الله، والسودانيون من أحسن خلق الله، ولكن بعض حكّام السودان هم المجانين، وعجيب أن أمة كهذه، تنتج حكّاماً كهؤلاء.

نعم، لا بد أن هذا الرسم على الجدار هو «قلب آدمي مفتوح»، فهذا كل ما يستطيع الفن أن يفعله في نهاية الأمر، وسط هذا العالم الهمجي. أن يحوّل آلام الإنسانية إلى لوحات على الجدران، وكلمات على الورق، وذلك لعمري، ليس بالأمر السهل.

ما أن استقر بنا المقام، حتى نادى الرئيس على المتحدث. يا لها من صدفة حسنة. الموضوع قضية فلسطين، والرئيس سعودي، والمتحدث ممثل دولة قطر في الأمم المتحدة. صديقنا من قديم الدكتور حسن نعمة. تذكرونه؟ يوم زرناه، منسي وأنا في دلهي، حين كان سفيراً بها.

رجل عالم شاعر أديب، ناصع البيان قوي الحجة، هذه لغة لا تسمع مثلها كثيراً في مثل هذا المكان، لغة العرب حين يرخى لها العنان،

فيستخفها الطرب وتحلّق بجناحين. تحدّث عن مساعي السلام وتعنت الإسرائيليين وأحزان الفلسطينيين في الشتات. كلمات تلمع مثل قطرات الدموع في عيون الأطفال في المخيمات. لا تقلْ إن الكلام الجميل لا يجدي. إنْ عاجلاً وإن آجلاً تتحول الكلمات الصادقة إلى أفعال.

تحدث الدكتور حسن نعمة عن الحرب الباردة و«اللدادة التي استعرت بين المعسكرين». قال إن ذلك كله قد انتهى.

نعم. اليوم لا توجد حرب باردة، ولا معسكران متقاتلان.

إنما هذه القاعة هي هي، والعرب «هموا هموا» بعض العرب ما يزالون كما قال الشاعر القديم:

وقد ينبُت المرعى على دمَن الثّرى
وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا

■ ■ ■

أراد خريتشوف أن يشرب جرعة من الماء، وهو يخطب. رفع الكأس ونظر إليها برهة ثم قال:

«لو كنت في جورجيا لكانت هذه الكأس ملأى بالفودكا. فلنشرب نخب جورجيا».

هكذا كان، متقلّب الأحوال، يذهب فجأة من النقيض إلى النقيض. وهذا مسرح ليس له نظير في العالم، تذكرت الآن، أنه يشبه «والَسْ

بيري» ذلك الممثل الموهوب. كان يمثل أدوار الثوار في أفلام عن أمريكا اللاتينية، وأحياناً يمثل دور تاجر سلاح، يبيع السلاح للطرفين المتقاتلين.

يكون رقيقاً جداً أحياناً، معتدلاً في رأيه ينادي بالتعاون مع الولايات المتحدة ودول الغرب عموماً، يسعى إلى «التعايش السلمي» - وأظن خريتشوف هو الذي ابتكر ذلك التعبير. ثم ما يلبث أن يتحول فجأة إلى حيوان شرس حاد الأنياب. ولم يكن يفعل ذلك اعتباطاً، بل بحساب وتدبير. كان مسرح الأمم المتحدة في تلك الدورة حافلاً بممثلين لا يستهان بهم، أما هذا فقد كان شيئاً مختلفاً، نمطاً لم يعرف الناس مثيله من قبل، ولعلهم لن يروا نظيره من بعد.

ظن كثيرون أنه عزم على تحطيم الأمم المتحدة، فقد اتهمها بأنها تخضع لسيطرة الولايات المتحدة ودول الغرب، وحمل حملة ضارية على الأمين العام «داج همرشولد» واتهمه بأنه يسخّر المنظمة لخدمة سياسات دول الغرب، وقال إن الاتحاد السوفياتي لم يعد يثق فيه.

بعد أكثر من عشرين عاماً، شهدت في باريس مسرحية مماثلة حين اتهمت الولايات المتحدة مدير عام منظمة اليونسكو، أحمد مختار أمبو، بأنه يوجّه المنظمة لخدمة سياسات تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة. وذهبت أبعد، فانسحبت من المنظمة وجرّت وراءها بريطانيا.

لم تكن الولايات المتحدة عادلة في اتهامها، ولا كان الاتحاد السوفياتي. ولكنه منطق القوة، إذا بدا أن كفة الميزان أخذت تميل. وكان خريتشوف في تلك الدورة، يطالب أحياناً بنقل مقر الأمم

المتحدة من نيويورك، وأحياناً يهدد بأن الاتحاد السوفياتي سوف ينسحب ويقيم منظمة جديدة لا تخضع لسيطرة الغرب، وأحياناً يطالب أن يكون منصب الأمين العام، «ترويكا» من ثلاثة أشخاص مثل العربات الرومانية التي تجرّها ثلاثة خيول.

كان صراعاً بيّناً، كما حدث طوال التاريخ، بين قوتين عظميين، كل منهما، تريد أن يستتب لها الأمر. وزعماء معسكر (عدم الانحياز) هؤلاء، صحيح أن كل زعيم منهم له مواهب لا تخفى، ويمثل جزءاً من العالم لا يستهان به. ولكنهم في نهاية الأمر، يحاولون أمراً مستحيلاً. أن يقيموا لأول مرة في تاريخ البشرية، نظاماً عالمياً لا يخضع لمنطق القوة. استتبّ الأمر طوال التاريخ، إمّا بتوازن القوى، وإما بغلبة قوة واحدة. هكذا كان السلم الروماني، الـ (باكسْ رومانا) والسلم العربي، (باكس أرابكا) ـ من يصدّق اليوم أن العرب فرضوا نظاماً عالمياً في يوم من الأيام؟ ـ والسلم السوفياتي (باكس سوفيتكا) والسلم الأمريكي (باكس أمريكانا).

لا غرابة، أن الأمريكان والسوفيات، كانوا ينظرون إلى زعماء (عدم الانحياز) باحتقار واضح أحياناً، ومستور أحياناً. وكان احتقار الرفيق نكيتا سيرقيفتش لأولئك الزعماء لا يكاد يخفى.

كتم غيظه بصعوبة ذات مرة، وهو يستمع إلى توبيخ الزعيم الغيني (سكتوري) له، كانت الصحافة الأمريكية تصف (سكتوري) بأنه شيوعي، وأنه يخضع لإرادة الاتحاد السوفياتي، غير مكترثة بأنه كان يخرج من جلسات الجمعية العمومية بانتظام لأداء فريضة الصلاة. كان رجلاً حسن السمت في زيّه الأبيض، يجلس في اعتداد واضح بنفسه بين وفده من رجال ونساء، ألوانهم بين خضرة الزنج وسمرة

العرب. أجّل سفره، لأن خريتشوف أخرجه الغضب عن طوره في جلسة مسائية، بسبب قضية الكونغو. كان سكتوري أول متحدث في جلسة الصباح، فألقى خطبة أدهشت الناس لجرأتها، قرّع فيها خريتشوف بعبارات حادة، وقال:

«إن الدول الأفريقية ودول العالم الثالث ليست لعباً تلعب بها أي من الدول الكبرى كيف تشاء».

كتم خريتشوف غيظه لأنه كان يعلم أن (سكتوري) مهما كان، فهو ليس أكثر من رئيس لدولة أفريقيّة فقيرة لا تقاس بجبروت الاتحاد السوفياتي في ميزان القوة. لم يردّ على (سكتوري) وترك الأمريكان ودول الغرب يهللون له على غير عادتهم، ويستمرئون مذاق الانتصار على الاتحاد السوفياتي.

قبل ذلك في جلسة المساء، حدثت تلك الحادثة الشهيرة، حين تجرأ خريتشوف جرأة لا مثيل لها في تاريخ التعامل بين الدول، فخلع حذاءه وضرب به المنضدة أمامه وصرخ بعبارات روسية كان واضحاً أنها شتائم. كان ذلك بسبب شيء قاله رئيس وزراء بريطانيا عن قضية الكونغو. توقف (هارولد ماكملان) عن الكلام، ووضع السماعات على أذنيه، وقال ببراءة مصطنعة، وعلى وجهه تلك الابتسامة الغامضة:

«إنّني أنتظر ترجمة ما تفضّل به رئيس وفد الاتحاد السوفياتي».

الذي قاله الرفيق نكيتا سيرقيفتش، بلغ حدّاً من السوقية والبذاءة جعل المترجمين بجميع اللغات يتحرجون عن ترجمته. وسألت

زميلي «مستر غولد بيرج» مراسل الإذاعة العالمية بهيئة الإذاعة البريطانية، وكان مهاجراً من أصل روسي، وكان شديد الكراهية للاتحاد السوفياتي، فشرح لي العبارة وقال:

«هذا رجل صعلوك لا يستحق أن يدخل هذا المكان».

كان خريتشوف بالفعل، شاذاً في ذلك المكان حيث تعوّد الناس على العبارات المرتبة والشتائم المهذبة. هذا كان شيئاً مختلفاً، كأنه طاقة فجّة من طاقات الطبيعة، لا تدري متى تعصف ومتى تهبّ.

ربما لأجل ذلك انجذب إليه الصحافيون، خاصة الأمريكان، فكانوا يهرعون إلى القاعة كلما تحدث، ويتبعونه حيثما ذهب.

قال لهم مرة:
«بما أننا نعرف كل شيء عن جواسيسكم وأجهزة مخابراتكم، وأنتم كذلك تعرفون كل شيء عن جواسيسنا عندكم، فلماذا لا نوحد جهودنا بدلاً من تبديد الموارد وإضاعة الجهد؟».

اتضح فيما بعد، أنه كان يعني ما يقول بأسلوبه العجيب، وأنه لم يكن يمانع في الوصول إلى تفاهم بين القوتين العظميين، يقتسمان بموجبه مناطق النفوذ في العالم، فلا تتعدى أي منهما على نفوذ الدولة الأخرى. ولكن الأحداث قد برهنت أن الأمريكان كانوا يطلبون ما هو أعظم، ولعلّهم حصلوا عليه، فالعالم يشهد الآن، ولو إلى حين زمان الـ (باكسْ أمريكانا).

سأل صحافي أمريكي خريتشوف عن تقييمه لما أنجزته تلك الدورة

للجمعية العمومية فأجاب ضاحكاً:
«كنت في شبابي أعمل حطّاباً في جورجيا. كنت أعرف آخر اليوم ماذا أنجزت، من كمية الحطب الذي قطعته. أمّا هنا، فكيف تقيس الإنجاز؟».

■ ■ ■

صعبٌ أن تجد رجليْن أكثر اختلافاً من هذين الرجليْن، اللّذين رمتهما الأقدار، واحدهما إزاء الآخر، في ساحة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٠ ـ نكيتا خريتشوف، وداج همرشولد. الأول كأنه شخصية في رواية من روايات «دسْتويفسكي». الطبع الروسي المتأجّج، والأحاسيس الحادة المتقلبة. الذكاء والصراحة والمكر، والطيبة والقسوة. والثاني كأنه خرج من مسرحية من مسرحيات «أبسن». القتامة الإسكندنافية، وضبط النفس، وتقديس الجهد في حد ذاته، والصراع بين نوازع النفس البشرية ومتطلبات المثل العليا، والشعور بالذنب من جرّاء محاسبة الذات بلا هوادة.

كان همرشولد من خلاصة الصفوة الإسكندنافية، من عائلة سويدية عريقة، تعلّم في جامعة «أبسالا»، حيث درس الأدب والفلسفة والقانون والاقتصاد. اشتهر بثقافته الواسعة وطاقته الذهنيّة الهائلة وكفاءته في الإدارة. تقلّب في المناصب إلى أن أصبح الرجل الثاني في وزارة الخارجية السويدية.

لكنه لم يكن معروفاً خارج السويد، وحتى اسمه الذي يعني «درع الحديد» كان ثقيلاً على اللسان أول مرة. ولما اقترحه الإنجليز

والفرنسيون عام ١٩٥٣ خلفاً لـ«ترجفي لي» النرويجي، تعجّب كثير من الناس، ولم يكن حتى الأمريكان قد سمعوا به. لكنهم لم يمانعوا في ترشيحه أميناً عاماً للأمم المتحدة، ورضي به السوفيات في غمرة فترة الانفراج القصيرة التي أعقبت موت ستالين.

اتخذ مجلس الأمن قراراً بترشيحه دون علمه، ولمّا عُرض المنصب على همرشولد تردّد في قبوله ثم قبل على مضض.

قال له «ترجْفى لي» يخوّفه من صعوبة المهمّة:
«إن مهمة الأمين العام للأمم المتحدة، هي أشق مهمّة في العالم، ويكاد النجاح فيها يكون مستحيلاً. سرعان ما يكتشف أي أمين عام ذلك، إذا هو أراد أن يؤدي مهمته كما تصورها ميثاق سان فرانسيسكو. وإذا كان فهمه للمنصب كما أفهمه أنا، فإنه سوف يجد أن من المستحيل عليه أن يتجنّب إغضاب دولة من الدول الكبرى أو الدول الصغرى. سوف يكون هدفاً للنقد من اليمين واليسار والوسط. وإذْ إن الأمين العام يخدم الأمم المتحدة ككل فلا سبيل أمامه إلا أن يُضحي بنفسه في سبيل إيجاد حلول عادلة».

وجد همرشولد كلّ ما تكهن به «ترجفي لي». وجد نفسه في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٠ يقف في الجمعية العمومية يواجه قاعة مكتظة ليعلن قراره، هل يبقى في منصبه أو يستقيل. ويتوقع كثير من الحاضرين ومنهم الرفيق نكيتا سيرقيفتش أن يقدّم همرشولد استقالته.

قبل همرشولد المنصب عام ١٩٥٣ دون حماسة، وقال في أول خطاب له أمام الجمعية العمومية بعد أن أدى القسم:

«المهمة التي أمامنا هي التصالح والواقعية والبناء».

وختم خطابه ببيت من الشعر لشاعر سويدي:
«أعظم صلاة يتوجّه بها الإنسان، ليست التي تطلب النصر، ولكن التي تطلب السلام».

ولكن أحداث الكنقو، والصراع الشرس للدول الكبرى على السيطرة، سرعان ما كشف له، أن السلام مطلب عسير.

يستمد الأمين العام للأمم المتحدة سلطاته من المادة السابعة في الميثاق التي تجعل الأمانة العامة مساوية للجمعية العمومية ومجلس الأمن ومجلس الوصاية والمجلس الاقتصادي والاجتماعي. وينص البند ٩٧ على أن الأمين العام «هو المسؤول الإداري الأول في المنظمة». وينص البند ٨٦ على أن الأمين العام، إلى جانب صلاحياته المنصوص عليها «يقوم بأي مهمة تكلفه بها أي من تلك الهيئات».

فوق ذلك، فإن البند ٩٩ يعطي الأمين العام الحق في أن يلفت نظر مجلس الأمن إلى أي وضع في العالم قد يهدد السلام والأمن، وأن مجلس الأمن لا يحق له أن يرفض النظر في أي موضوع يرفعه إليه الأمين العام حسب نص تلك المادة.

استغل همرشولد هذا النص استغلالاً واسعاً خلال سنوات عمله، مما أغضب عليه بعض الدول أحياناً، وخاصة الاتحاد السوفياتي. وقد وجد أنه يستطيع أن يحرك كل جهاز الأمم المتحدة بناء على تفسيره الخاص لما يمكن أن «يهدد السلام والأمن»، وأن يتخذ كل الخطوات التي يراها هو مناسبة للتأكد أن وضعاً ما «يحتمل أن يهدد الأمن».

وقد أرسل مراقبين دوليين إلى «لاوس» مثلاً دون تخويل من مجلس الأمن، مما أغضب عليه الاتحاد السوفياتي.

كان همرشولد في رأي المعجبين به «رمزاً أخلاقياً ونفوذاً ذا هيبة طاغية». وقد حوّل منصب الأمين العام بالفعل إلى دائرة نفوذ أوسع بكثير مما أرادته الدول الأعضاء، وخاصة الدول الكبرى. حدث ذلك بسبب تفوقه العقلي الواضح وطاقته الهائلة على العمل. وأيضاً بسبب توازن القوى السياسية في العالم، الذي أحدث شللاً في المنظمة وأصبح الأمين العام في حالات كثيرة، الجهة الوحيدة القادرة على الحركة.

كانت مغامرة جريئة انتهت بالفشل في الكنقو.

كان همرشولد يصف دوره قائلاً:
«السياسة والدبلوماسية ليست قضية مهارة في اللعب لا صلة لها بمواقف اللاعبين. النتائج لا تحددها المقدرة السطحية، ولكن يحددها عمق الالتزام بالمبادئ. إن النجاح السهل يحققه المهرجون، أما النتائج التي تبقى وتصمد، فلا بد لها من شخص يبني بعزيمة وصبر».

وكان يقول إن ولاءه للمجتمع الدولي ككل يحتّم عليه أن ينزع كل ولاءاته الأخرى حتى ولاءه لوطنه ويضيف:

«كيف يستطيع شخصٌ ما أن يفعل هذا دون أن يفقد المقومات الروحية التي يكتسبها الإنسان من انتمائه لبلد بعينه؟ الإجابة هي، أنه إذا فعل هذا، واعتمد على إمكاناته الذاتية، فسوف يجد

بديلاً... وطناً في كل مكان. سوف يجد الأبواب مفتوحة أينما ذهب».

■ ■ ■

ليس جديداً هذا الموقف الذي يقفه (داج همرشولدْ) اليوم في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٠، فقد كاد يستقيل من قبل، في شهر تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٦. المشكلة اليوم هي قضية الكنقو التي يتعرّض بسببها إلى هجوم مركّز من الاتحاد السوفياتي الذي يجلس حاكمه الفعلي إزاءه في هذه اللحظة في قاعة الجمعية العمومية للأمم المتحدة ينظر إليه شزراً. ومنذ أربع سنوات، قامت دولتان كبيرتان، وعضوان دائمان في مجلس الأمن، بعدوان صريح على دولة من الدول الأعضاء، اعتبره الأمين العام بمثابة ضربة مخربة لكل المساعي التي بذلها لتحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط.

كان همرشولد بحكم تكوينه الفكري والثقافي أقرب ما يكون إلى بريطانيا وفرنسا. كان يتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية، متعمقاً في آدابهما، محباً للشاعر الفرنسي «سانْ جون بيرس» وصديقاً حميماً للشاعر الإنجليزي «دبليو أتش أودن». في لندن أو باريس، يحيط نفسه بالشعراء والفنانين والكتّاب والمفكرين، ويحس كأنه في ستوكهولم.

أيضاً كان يحمل بعض الإعجاب لرئيس وزراء إسرائيل «ديفيد بن غوريون» ويرى فيه مثلاً للزعيم الفيلسوف الذي يجمع بين الفكر والعمل، وكان يحب أن يتحدث معه في التاريخ والفلسفة،

ويحاوره في أفكار الفيلسوف اليهودي «مارتن بوبر» الذي كان همرشولد معجباً به.

أما في الجانب العربي، فقد كان بينه وبين الرئيس جمال عبد الناصر، احترام متبادل، ولكن علاقتهما كانت متحفظة من الجانبين، ينقصها الدفء، فقد كانت مشاربهما واتجاهاتهما الفكرية مختلفة، كان أميل إلى الدكتور محمود فوزي، وزير خارجية مصر يومئذ. كان يحب فيه صفاء ذهنه، وهدوء طبعه، ومهاراته في فن الدبلوماسية. وكان أيضاً يؤثر المنجي سليم، وزير خارجية تونس، وعمر عديل، مندوب السودان. وكان معروفاً أنه لم يكن يمانع أن يخلفه في منصب الأمين العام واحد من هؤلاء الثلاثة، وخاصة محمود فوزي.

كانت صدمة كبيرة لهمرشولد حين هاجمت إسرائيل مصر في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٦، وفي الوقت نفسه بدأت بريطانيا وفرنسا هجوماً جوياً على المطارات المصرية والقواعد العسكرية المصرية، وبدأت قواتهما تتحرك نحو مصر. كانت حُجة إسرائيل هي القضاء على معسكرات الفدائيين على الحدود بينها وبين مصر، وكانت ذريعة بريطانيا وفرنسا هي «الفصل بين القوّتين المتحاربتين على ضفتي القناة».

كان واضحاً منذ البداية، وتأكد ذلك فيما بعد، أنه كان ثمّة تواطؤ بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا، فقد كان الهدف واحداً، عبّر عنه رئيس وزراء بريطانيا، أنتوني إيدن، صراحة في رسالة وجهها إلى الرئيس الأمريكي، أيزنهور، بتاريخ ٦ أيلول/سبتمبر عام ١٩٥٦ جاء فيها: «إننا مقتنعون بأن الاستيلاء على القناة، ما هو إلا الرمية الأولى، في حملة مدبرة، خطط لها عبد الناصر للتخلص من النفوذ

الغربي جُملة، وطرد المصالح الغربية من البلاد العربية، وهو يؤمن بأنه إذا نجح هذه المرة، متحدياً ثماني عشرة دولة، فإن نفوذه في البلاد العربية، سوف يبلغ حداً يمكّنه من تأجيج ثورات يقودها ضبّاط شبّان... ونحن نعلم من مصادرنا المشتركة أنه يدبر بالفعل لثورة في العراق، الذي هو أكثر الدول العربية استقراراً وتقدمية. سوف تكون الحكومات الجديدة في واقع الأمر، خاضعة لمصر، إن لم يكن لروسيا. سوف يكون لزاماً عليهم أن يضعوا مواردهم البترولية تحت سيطرة دولة عربية موحدة بزعامة مصر وخاضعة للنفوذ الروسي. وحين يجيء ذلك الوقت، فسوف يمنع عبد الناصر البترول عن أوروبا الغربية وسوف نكون جميعاً تحت رحمته...».

كان العراق أقرب الدول العربية إلى بريطانيا، وأكثرها صداقة لها. ورغم ذلك، اضطر الأمير عبد الإله، حين قامت الحرب، أن يكتب إلى إيدن محذراً، وقال:

«إن (غزو بريطانيا لمصر) وضع أصدقاء بريطانيا ـ وأنا أعد نفسي واحداً منهم. في وضع حرج إزاء الرأي العام في العالم العربي وفي العراق».

وقد أبلغ الوصي، السفير البريطاني في بغداد، أن الحكومة العراقية لن تستطيع أن (تسكت) أكثر من أسبوع واحد، ولا بد أن موقف العراق قد أدهش أيدن، الذي كان يتوقع منه تأييداً مطلقاً، غير مدرك، رغم دراسته للغة العربية، أن ثمة حدوداً لا يملك أي حاكم عربي أن يتجاوزها، مهما بلغ منه العداء لحاكم عربي آخر، فكتب إلى عبد الإله، مستنداً إلى حُجج أخرى غير التي قدّمها للرئيس الأمريكي:

«أؤكد لك تأكيداً قاطعاً أن الهدف الوحيد لتدخل القوات البريطانية، هو إيقاف الحرب بين إسرائيل ومصر وضمان القناة (حرية الملاحة). ونحن مقتنعون بأن وجود قواتنا في مواقع هامة، هو وحده الكفيل بتحقيق هذا الهدف. وتدلّ كل المعلومات التي وصلت إلينا، أن إسرائيل قد ألحقت بمصر هزيمة ماحقة، وأن العمل الذي قمنا به هو وحده الذي أنقذ مصر من حدوث مزيد من الكوارث، وقد علمنا أن القوات الإسرائيلية، سوف تستجيب لطلبنا بألا تقترب من القناة إلى مسافة أكثر من عشرة أميال، مع العلم بأن أبواب مصر، حتى القاهرة نفسها، مفتوحة على مصاريعها أمامها. هذا على الأقل، يُعتبر مكسباً، وأرجو أن يتضح قريباً للعالم، أن عملنا هو وحده الذي حقق هذه النتيجة، وبمجرد أن نحتل المواقع الهامة على القناة فسوف نطلب من الإسرائيليين الانسحاب من الأراضي المصرية..».

لكن الذي أقلق أيدن أكثر من تحذيرات العراق، كان عاصفة الاستنكار التي هبّت في وجهه من أقرب الدول إلى بريطانيا في الكمنولث، رابطة الشعوب البريطانية، فقد أرسل إليه رئيس وزراء سيلان معرباً عن إحساسه بـ «الصدمة والانزعاج» لتدخل بريطانيا ومطالباً بـ «الانسحاب الفوري». وكتب جواهر لآل نهرو رسالة مهذبة ولكنها تتضمن سخطاً واضحاً، ختمها قائلاً:

«إنني عبّرت عن شعوري بوضوح وصراحة لأنني أعتقد أن هذا هو الأسلوب الذي يجب أن يتخذه الصديق نحو صديقه. وإذا لم يوضع حد لهذه الأعمال الخاطئة، فإن المستقبل سوف يكون فيما يبدو لي، مظلماً جداً».

كذلك عبرت كندا ونيوزيلنده عن سخطهما، وحتى روبرت منزيس رئيس وزراء أستراليا، الذي كان قريباً جداً من السياسة البريطانية، لم يجد بدّاً من أن يكتب إلى أيدن معرباً عن حزنه لما وصفه بـ «الصراع الواضح في مجلس الأمن بين بريطانيا وفرنسا من جانب والولايات المتحدة من جانب آخر» وأضاف قائلاً:

«يجب ألا تشك لحظة في ولاء هذا البلد لبريطانيا. ورغم ذلك أجد لزاماً عليّ أن أطلب منك أن تبذل كل جهدك، بشتى السبل، للوصول إلى تفاهم مع الولايات المتحدة آخذاً بعين الاعتبار أن أعداءنا سوف يعتبرون الانشقاق في صفوف المعسكر الديموقراطي، أعظم انتصار أحرزوه في الحرب الباردة».

بيد أن الدول الثلاث، بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، كانت رغم ذلك، مصممة على بلوغ هدفها المشترك ـ تحطيم القوة العسكرية والمعنوية المتزايدة لمصر، ومنع قيام أي نوع من الوحدة العربية، لا سيما وحدة تتزعمها دولة «ثورية». لكن من سوء حظ إيدن بالذات، أن الولايات المتحدة لم تكن طرفاً في اللعبة، ولم تكن موافقة عليها. وغريب أن إيدن لم يدرك ذلك باكراً فقد أوفد إليه الرئيس أيزنهاور عدداً من المبعوثين، منهم وزير الخارجية (جون فوستر دالس) وكتب له عدّة مرّات، يحذره مغبّة العمل الذي ينوي القيام به. وقد كتب له في ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٥٦ يقول:

«استعمال القوة العسكرية ضد مصر في هذه الظروف، سوف تكون له نتائج أخطر من دفع العرب إلى تأييد عبد الناصر. سوف يُحدث ذلك خلافاً عميقاً بين بلدينا، ولا بدّ أن أخبرك بصراحة، أنه إلى الآن، لا يوجد أي اتجاه في الرأي العام الأمريكي لتأييد عمل كهذا،

بل إن الأمر المحسوس في الرأي العام، هو الاعتقاد أن الأمم المتحدة قد أنشئت أصلاً للحيلولة دون حدوث مثل هذا العمل.

لذلك، فإننا تابعنا بقلق تحركاتكم للقيام بعمل عسكري ضد مصر. ونحن نعتقد أن عبد الناصر قد يلجأ إلى الأمم المتحدة مطالباً إياها شجب هذه الأعمال واعتبارها عدواناً، وأنها تنطوي على رفض للوسائل المتاحة لحل النزاع حلّاً سلمياً...

إنه يبدو لنا ـ فوسْتر وأنا ـ أن الهدف الذي نسعى إليه، نحن وأنتم، يمكن الوصول إليه بوسائل أبطأ وأقل إثارة من استعمال القوة العسكرية. توجد مجالات واسعة للعمل، لم ندرسها دراسة كاملة، لأن ذلك سوف يأخذ وقتاً.

إن عبد الناصر يتألق ويزداد حيوية بالإثارة. إذا صبرنا عليه حتّى تخف عناصر الدراما، وركزنا على تفريغه من الهواء بوسائل قد تكون بطيئة ولكنها مضمونة، كالتي ذكرتها، فإنني واثق بأننا سوف نصل إلى النتائج المطلوبة».

أما الأمين العام للأمم المتحدة، داج همرشولد، فقد وجد في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٦، أن الهجوم الثلاثي على مصر، قد سدد ضربة كادت تقضي على كل آماله في إيجاد حل عادل لقضية الشرق الأوسط ـ أي قضية فلسطين.

■ ■ ■

كان (داج همرشولد) يشعر بغير قليل من الرضى في ربيع عام ١٩٥٦. كان قد نجح إلى حد كبير في تهدئة الأمور على امتداد خطوط الهدنة بين إسرائيل والدول العربية، وخاصة مع مصر. كان

يحس أنه نجح في خلق «حالة نفسية» إيجابية يستطيع أن يستثمرها لتوجيه المنظمة لإيجاد حل عادل لقضية الشرق الأوسط.

ظنّ همرشولد، وكثير من الناس حينئذ، أن منظمة الأمم المتحدة، أخذت تتشكل كقوة جديدة، لا تخضع لطموحات الدول الأعضاء، وخاصة الدول القوية، قوّة معنوية هائلة، يسندها الرأي العام في العالم، يمكن أن تنجح إذ فشلت عصبة الأمم في إقامة نظام عالمي مستقر، لا يخضع لمنطق القوة، ولكن لمنطق العدل والمساواة. لذلك كان يقول بكثير من التفاؤل:

«تستطيع الدول، بقليل من التبصّر، أن تستخدم المنظمة لمحاولة إيجاد حلول للقضايا الكبيرة في العالم، بدلاً من محاولة حلّها بطريقة فردية. هذا سوف يقوّي المنظمة، ويجعلها بالتالي أقدر على معالجة قضايا السلام».

ثم، كأنما فجأة، بدا كما لو أن كل جهود الأمين العام قد ذهبت سدى، ففي يوم الإثنين ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر، شنّت إسرائيل هجوماً عسكرياً واسع النطاق على مصر، وأعلنت أن قواتها اكتسحت سيناء «للقضاء على قواعد الفدائيين».

لم يكن الحدث مستغرباً تماماً، فمنذ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة في ٢٦ تموز/يوليو عام ١٩٥٦، كردّ فعل مباشر لسحب أمريكا عرضها لتمويل السد العالي، أخذت بريطانيا وفرنسا تخططان لتدخل عسكري في مصر.

اتضح فيما بعد، أن بريطانيا وفرنسا، بينما كانتا تحاولان في الظاهر

التوصل إلى حل من خلال منظمة الأمم المتحدة، كانتا تعملان سراً بالتواطؤ مع إسرائيل، على فرض إرادتهما بالقوة على مصر.

لم يكن همرشولد يعلم حينئذ، أن بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وقعت في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر اتفاقاً سرياً في Sevres في فرنسا ينصّ على ما يلي:

«في عصر يوم ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر تشن القوات الإسرائيلية هجوماً واسعاً على القوات المصرية.

في يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر توجه الحكومتان البريطانية والفرنسية، نداء إلى مصر لوقف إطلاق النار وقفاً تاماً، وسحب قواتها إلى مسافة عشرة أميال غربي القناة، وأن تسمح للقوات البريطانية ـ الفرنسية المشتركة، أن تحتل بصفة موقتة، مواقع رئيسية على القناة.

في الوقت نفسه، يوجه نداء للحكومة الإسرائيلية لوقف إطلاق النار، وسحب قواتها إلى مسافة عشرة أميال شرقي القناة.

إذا رفضت أي من الحكومتين، أو لم تُعط موافقتها خلال أربع وعشرين ساعة، في تلك الحالة، تتدخل القوات البريطانية ـ الفرنسية. وإذا لم تستجب مصر للنداء، فإن القوات البريطانية ـ الفرنسية، تبدأ الهجوم في وقت مبكر من يوم ٣١ تشرين الأول/أكتوبر.

وعدت إسرائيل ألا تهاجم الأردن، وإذا هاجم الأردن إسرائيل فإن

بريطانيا لن تكون ملزمة بنص المعاهدة بينها وبين الأردن لمساعدته، لأن المعاهدة تلزم بريطانيا فقط في حالة اعتداء إسرائيل على الأردن.

تحتل القوات الإسرائيلية الساحل الغربي لخليج العقبة وتُحكم سيطرتها على خليج تيران».

في اليوم نفسه ـ أي يوم ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ـ عرض (أنتوني إيدن) الخطوط العامة للخطة على مجلس الوزراء البريطاني، دون أن يكشف لهم ما اتفق عليه في Sevres مع فرنسا وإسرائيل، وأضاف:

«يمكن الافتراض أنه في حالة حدوث هذه العملية، فإن إسرائيل سوف تقوم بهجوم شامل على مصر. هذا سوف يساعد على اختصار فترة الهجوم الجوي (من القوات البريطانية ـ الفرنسية). الهدف الثاني من العملية هو ضمان سقوط نظام الكولونيل عبد الناصر في مصر».

لم يكن همرشولد على علم بكل هذا، لذلك حين بدأ الهجوم الإسرائيلي على مصر، أصيب بصدمة عنيفة، وكان غاضباً أشد الغضب حين اجتمع عشية ذلك اليوم مع (كابوت لُدْج) مساعد وزير الخارجية الأمريكي الذي أبلغه غضب الرئيس آيزنهاور لما حدث، وطلب منه أن يدعو مجلس الأمن للانعقاد، فقال همرشولد إنه كان ينوي أن يفعل ذلك على أي حال.

اجتمع مجلس الأمن يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر، واستمر الاجتماع إلى وقت متأخر من الليل، قوي اعتقاد الأمين العام بتواطؤ

بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل، حين استعملت الدولتان حق الفيتو ضد قرار مجلس الأمن الذي يطلب من إسرائيل وقف القتال فوراً.

قضى همرشولد الليل ساهراً يحاول أن يحدد موقفه. وفي بداية اجتماع المجلس في اليوم التالي ٣١ تشرين الأول/أكتوبر قرأ بياناً كتبه بيده، ينطوي على تهديد واضح بالاستقالة، قال فيه:

«الأمين العام يخضع لنصوص الميثاق ومبادئه. وهو لا يستطيع أن يؤدي واجباته، إلا إذا أوفت الدول الأعضاء بكل العهود التي قطعتها لاحترام الميثاق بكل نصوصه».

ثم أضاف:
«إذا كانت الدول الأعضاء تعتقد أن مصلحة المنظمة تقتضي أن تكون واجبات الأمين العام بخلاف ما ذكرت، فعليها في هذه الحالة، أن تفعل ما تراه مناسباً على ضوء اعتقادها هذا».

أدرك كل من يعنيهم الأمر، خاصة بريطانيا وفرنسا، أن استقالة الأمين العام في تلك الظروف، سوف تواجههم بوضع لا قبل لهم به، ويكون بمثابة احتجاج سوف يجد تأييداً واسعاً من الرأي العام في العالم. لذلك سارعوا جميعاً إلى تأكيد ثقتهم به، والتمسك باستمراره في منصبه.

سوف تختلف المواقف ويختلف الممثلون في عام ١٩٦٠، ولكن جوهر القضية لن يتغيّر ـ الصراع الأزلي بين ما تظن الدول، خاصة القوية منها ـ أنه يخدم مصلحتها، وبين متطلبات نظام عالمي يقوم على العدل والأخلاق والمثل العليا.

■ ■ ■

خرجت منظمة الأمم المتحدة من «أزمة السويس» كما خرج أمينها العام «داج همرشولد» أكثر قوّة ونفوذاً. حدث ذلك لأن القوتين العظميين في العالم الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، كانتا متفقتين. القضية واضحة بالقياس إلى أزمة الكنقو فيما بعد. في جانب وقفت دولتان كبيرتان، أخذ نجمهما في الأفول، تتشبثان بتلابيب مجد غابر، تحاولان محاولة يائسة إثبات قوتهما باستعمال «ديبلوماسية البوارج». وفي الجانب الآخر وقفت القوتان الوليدتان ومعهما كافة القوى الحديثة في العالم، والرأي العام العالمي.

كانت محاولة يائسة بحق. والإنسان اليوم يعجب حين يعيد قراءة تاريخ تلك الحقبة، كيف أن دولتين عريقتين في فن السياسة والحكم لجأتا إلى تلك الحيلة التي ما كان لها أن تنطلي على أحد، فرنسا التي أنجبت ريشليو وتاليران وكلمنصو. وبريطانيا «العظمى» التي أنجبت لورد قريي ولورد هلفاكس ولويد جورج. ولا بد أن إيدن وريث هؤلاء الدهاقنة، شعر بمرارة شديدة، وهو يتلقى الدروس في فن الدهاء السياسي، من آيزنهاور، رئيس الدولة التي كانت مستعمرة بريطانية إلى عهد ليس بالبعيد.

الأمر في جوهره، كان وما يزال، كما قال ذلك الحبر البريطاني «لورد برايرلي»:

«القانون الدولي ليس إلا عباءة تستر أوضاعاً نشأت بالقوة».

كذلك قال الأثينيون لأهل «ميلوس» في القرن الخامس قبل الميلاد:

«... أما فيما يتعلق بالحق والباطل، فليس ثمة فارق بينهما في نظر

الناس. الذين احتفظوا باستقلالهم إلى الآن، استطاعوا ذلك لأنهم أقوياء.. والذين لم نهاجمهم، لم نهاجمهم لأننا نهاب قوّتهم. إن فرض سلطاننا عليكم، لن يضيف فقط إلى مساحة أمبراطوريتنا ولكنه أيضاً سوف يزيد من إحساسنا بالأمن، نحن نسيطر على البحر، وأنتم أهل جزيرة ولكنكم ضعفاء، ليس لكم من القوة ما للجزر الأخرى، لأجل ذلك يعنينا عناية قصوى ألّا تفلتوا من قبضتنا».

لا توجد صراحةٌ ولا صدق أكثر من هذا، أما ورثة أثينا ـ وروما ـ في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد حاولوا ستر سياساتهم بـ«عباءة» كما قال لورد برايرلي، ولكنها كانت عباءة ممزقة مهلهلة لا تكاد تستر عورة.

لماذا فعلت بريطانيا وفرنسا ذلك؟ لماذا لم تمضيا قدُماً كما فعل الأقوياء طوال التاريخ؟ لماذا البحث عن ذريعة؟

ربما لأن الدولتين لم تعودا قويتين بالفعل، أو لم تعد لهما القوة الكافية. تأكد ذلك حين شبت الحرب. السبب الثاني هو ظهور عنصر جديد في السياسة الدولية، ربما لا يكون واضحاً تماماً، ولكنه محسوس الأثر ـ ذلكم هو «الرأي العام». فيما بعد في حرب فيتنام أصبح الرأي العام قوة هائلة.

يبدأ ميثاق الأمم المتحدة بعبارة فيها أصداء واضحة من مقدمة دستور الولايات المتحدة «نحن شعوب الأمم المتحدة».

من كتب ذلك؟ وهل كانت الدول الكبيرة التي خرجت ظافرة من

الحرب العالمية الثانية، وأخذت المقاعد الدائمة في مجلس الأمن، وأعطت نفسها حق «الفيتو» ـ هل كانت هذه الدول تعني ما تقول حقاً؟

الأمين العام للأمم المتحدة، أخذ العبارة مأخذ الجد. إنه ابن السويد، الدولة التي لم تغرق في أوحال الاستعمار الأوروبي في أفريقيا وآسيا وأستراليا والقارة الأمريكية. وهي في النصف الثاني من القرن العشرين تقدم نموذجاً طريفاً، يعتبره كثير من الناس مخرجاً من غلواء الرأسمالية أو الشيوعية.

وهمرشولد إلى ذلك من صفوة نتاج التراث الأوروبي «الإنساني» ـ ذلك الوجه الآخر، الوجه المضيء للحضارة الأوروبية فيه شيء من روح الشعراء والفلاسفة، وكان بالفعل يكتب الشعر. مثلاً هذه الفقرة من خطاب له، يجد الإنسان فيها أثراً واضحاً من فكر الفيلسوف الفرنسي «تيلهارد دي شاردان»:

«السعي على هامش تطور المجتمع الإنساني، يعني السعي على حافة المجهول. سوف يظهر في المستقبل، أن كثيراً مما نبذله اليوم، عديم الجدوى. لكن ذلك لا يشفع لنا إذا نحن أحجمنا عن الفعل، حسب ما يمليه علينا إدراكنا، غير متغاضين عن قصور هذا الإدراك دون أن نفقد الإيمان بالنتيجة الحتمية للتطور الخلاّق الذي أسعدنا الحظ بالمساهمة في تحقيقه».

«التطور الخلاّق» وإذا شئت قلت «تراكم الإبداع» ـ ذلك ما كان يدعو إليه «دي شاردان»، ذلك الفيلسوف الزاهد، وقد كان همرشولد، أحد حواريّيه. إنما تاريخ الإنسانية إلى الآن، لا يدل على

أن «تراكم الإبداع» له أي تأثير على سياسات الدول، بعضها إزاء بعض. بل إن منطق القوة يسير في خط موازٍ لمنطق «الإبداع» ونادراً ما يلتقي معه. كان عبد الملك بن مروان رحمه الله، مع علمه وأدبه، يدرك ذلك تمام الإدراك، فقد كان من أوائل أساطين الـ«ريال بولتيك».

في عام ١٩٥٦، يبدو لهمرشولد على أي حال، أن الأمم المتحدة هي القوة المعنوية الجديدة، التي سوف تحدّ من غطرسة الدول، وتحمل طموحات الشعوب نحو السلام. وقد أسعده أن الأمريكان والسوفيات، بالتعاون الوثيق معه، استخدموا الجمعية العمومية، التي يصفها بعض الناس بأنها «مستودع ضمير الإنسانية». أغلقت بريطانيا وفرنسا الطريق في مجلس الأمن، فلجأوا إلى وسيلة كانت الولايات المتحدة قد ابتدعتها للتدخّل في كوريا باسم الأمم المتحدة، وأسمت ذلك «الاتحاد من أجل السلام». أصبح ممكناً بتلك الوسيلة تخطي مجلس الأمن والعمل بتفويض من الجمعية العمومية، على اتخاذ الخطوات اللازمة لصيانة الأمن والسلام في العالم.

هكذا خرج «همرشولد» منتصراً من أزمة السويس، إذ خرجت بريطانيا وفرنسا مضعضعتين. كانت مرحلة فاصلة بالنسبة لهما. أصبح واضحاً أنهما لم تعودا قوتين من الدرجة الأولى. لم تلبث فرنسا أن فقدت الجزائر، وكاد ينفرط عقدها لولا أن جاءها ديغول. وتنازلت بريطانيا عن دورها «شرقي السويس» للولايات المتحدة.

أما إسرائيل، «سبارطا» الشرق الأوسط، فإنها لم تخسر كثيراً. أذعنت للقوتين العظميين، وخاصة أمريكا، وانسحبت من سيناء، ظلّت تتربّص عشر سنوات، ثم أنقضت، بمفردها هذه المرة، بعد أن

حصنت نفسها وضمنت الولايات المتحدة إلى جانبها، والرأي العام في أوروبا وأمريكا. وكانت مصر قد أعطتها المبرر الـ Casus Belli كما يقولون على طبق من ذهب.

إن سلوك إسرائيل، ينبئ بوضوح أنها تعمل بوحي المبدأ القديم الذي حوّله الفلاسفة الألمان إلى مذهب محترم في السياسة ـ «الريال بولتيك». من هؤلاء «شبنجلر» الذي يبغضه اليهود بغضاً شديداً، فهو يقول:
«الدولة، كي تصير قويّة، لا بد لها من الدخول في صراعات مستمرة مع جيرانها».

إنهم يقولون، بمثل الصراحة التي خاطب بها الأثينيون أهل «ميلوس»:

«حدود إسرائيل تكون حيث تنتهي قوّة إسرائيل».

وحين يقيمون المستوطنات فوق أرض فلسطين فإنهم يعلمون أنهم لا يفعلون شيئاً جديداً. لقد كانت المستوطنات طوال التاريخ طلائع وضع اليد على الأرض بأكملها. ولا يحسون أنهم يحتاجون إلى أي مبرر «خلقي». كذلك فعل الغالبون من قبل. كذلك فعل الأثينيون منذ أكثر من ألفي عام.

■ ■ ■

لم يتحمّس زعماء دول الغرب لدعوة خريتشوف لهم لحضور دورة الجمعية العمومية للأمم المتحدة الخامسة عشرة المزمع عقدها في ٢٠

أيلول/سبتمبر عام ١٩٦٠. لم يكونوا قد نسوا بعد، كيف أن الزعيم السوفياتي «نسف» قمة باريس بينه وبين الرئيس آيزنهاور، منذ ثلاثة أشهر فقط. ولكن حين أبحر الرفيق نكيتا سيرقيفتش على السفينة السوفياتية «بولْتكا» قاصداً نيويورك، حاملاً معه زعماء بلغاريا والمجر ورومانيا، لم يجدوا بداً من إعلان نيتهم الحضور. واضطر الأمين العام للأمم المتحدة أن يصدر بياناً يرحب فيه بمقدم أولئك الرؤساء، لأنه «يهيئ الفرصة لتبادل الآراء على أرفع مستوى، بشأن القضايا الكبرى التي تواجه العالم».

اليوم، بعد مضي زمن على تلك الأحداث، يرى عدد من المؤرخين، أن خريتشوف لم يذهب لتحطيم الأمم المتحدة، ولا النظام العالمي القائم، ولكنه كان يريد الاعتراف بالوضع الجديد للاتحاد السوفياتي، كقوة كبرى موازية للولايات المتحدة وبقية دول الغرب. وربما جاز له يومئذ أن يحس بكل تلك الثقة. حقق الاتحاد السوفياتي انتصارات علمية واضحة، وأحرز مكاسب دبلوماسية في آسيا وأفريقيا، وفي أمريكا أعطته الثورة الكوبية الإحساس بأنه يزاحم الولايات المتحدة في عقر دارها. وقد اختار ساحة الجمعية العمومية، ميداناً لـ«حرب العصابات» الكلامية، التي شنّها دون هوادة.

لم يكن سعيداً وهو يستمع إلى خطاب الرئيس آيزنهاور، وأربدّ وجهه بوضوح حين قال آيزنهاور:

«إن الهجوم على الأمين العام، هو في الواقع هجوم على منظمة الأمم المتحدة نفسها».

ثم لمّا قال:
«ما سوف يحدث في الكنقو سيقرر مدى قدرة الأمم المتحدة على حماية الدول الحديثة العهد بالاستقلال في أفريقيا. ليس ذلك فحسب، ولكن قدرتها على حماية الدول الصغيرة إطلاقاً من العدوان».

كان ذلك ما يدعو إليه الأمين العام. كانت تلك هي الفلسفة التي يستند إليها في عمله. ولكن لعله تمنّى لو أن آيزنهاور لم يذهب إلى ذلك الحد، في تأييده، خاصة أنه ربطه بقضية الكنقو، التي يعلم همرشولد أنها تثير ثائرة الرفيق خريتشوف.

هذا، منذ وصل إلى نيويورك، وهو لا يكلّ عن مهاجمة الأمين العام. وفي خطابه في الجمعية العمومية في اليوم التالي لم يترك مجالاً للشك. قال إن الأمين العام منحاز «إلى معسكر الاستعماريين» وإن الأمم المتحدة لم تعد تعكس حقيقة الوضع في العالم؟ لا يوجد معسكران ولكن ثلاثة معسكرات. المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، ومعسكر الدول غير المنحازة. لذلك يجب إلغاء منصب الأمين العام، واستبداله بثلاثة أمناء «ترويكا» يمثل كل منهم قوة من القوى الثلاث.

قال همرشولد في رده «القضية لا تتعلق بشخص الأمين العام بل بالمؤسسة. صفْ منصب الأمين العام بأي كلمات تشاء - الاستقلال، الحياد، النزاهة. كلها صفات يجب أن يتصف بها الأمين العام.. وهذه الصفات، ربما تقوم عقبات في وقت من الأوقات، في سبيل أولئك الذين يهمهم تحقيق أهداف سياسية يصعب عليهم تحقيقها ما لم يتخلّ الأمين العام عن مبادئه».

وأضاف همرشولد أن كلام خريتشوف «يطرح موضوع الثقة في الأمين العام».

لم يتردد خريتشوف في إزالة أي غموض بهذا الصدد، فطلب حق الرد مباشرة، وقال:

«كي نتجنب أي لبْس أو سوء فهم، أريد أن أؤكد أننا لا نثق في مستر همرشولد ولا نستطيع أن نثق به. وإذا لم يجد هو الشجاعة الكافية للاستقالة بأسلوب الفرسان ـ إذا صح القول ـ فإننا سوف نستخلص النتائج التي يحتّمها مثل هذا الموقف».

بوسع الإنسان أن يتخيّل وقع هذه الكلمات. هذا الرجل الذي قد تقتحمه العين، ليس رجلاً عادياً. إنه زعيم ثاني أقوى دولتين في العالم، وتطالب أن يُعترف بها ندّاً للولايات المتحدة، الدولة الأولى. هل كان خريتشوف يعني ما يقول، أم أنه كان يمثل عمداً دوراً بغيضاً بمهارة عظيمة؟

في جلسة بعد الظهر، امتلأت القاعة بأعضاء الوفود والمراقبين والصحافيين. وازدحمت الأماكن المخصصة للجمهور. لم يبق موطئ لقدم، وكان كثيرون يتوقعون أن يعلن همرشولد عن استقالته.

تحدث بصوت خفيض هادئ، يخفي توتراً عظيماً. قال:

«إنني لو استقلت سوف ألقي بالمنظمة في مهب الرياح، في هذه الظروف الصعبة الملموءة بالمخاطر. إنه لا يحق لي أن أفعل ذلك (...) إنني أتحمل مسؤولية إزاء الدول الأعضاء كلها، الدول التي

تمثل المنظمة بالنسبة لها أهمية قصوى (...) الاتحاد السوفياتي ليس في حاجة إلى حماية المنظمة، ولا أي من الدول الكبيرة. الدول التي تحتاج إلى المنظمة هي الدول الأخرى. وبهذا المعنى فهي منظمة هذه الدول (الصغيرة) قبل كل شيء (...) سوف أبقى في منصبي إلى نهاية فترتي، خادماً للمنظمة، وحامياً لمصالح تلك الدول، طالما أرادت لي البقاء (...) لقد تحدث مستر خريتشوف عن الشجاعة. سهل جداً على المرء أن يستقيل. سهل جداً أن ينحني المرء لرغبة دولة كبيرة. إنما أن تقاوم، فذلك شيء آخر، وهو أمر يعلم أعضاء هذه الجمعية، أنني لم أتردد عن فعله مراراً...».

إنني أذكر جيداً الأثر البالغ الذي أحدثه هذا الخطاب، والتصفيق الذي قوطع به عدة مرات. ثم في النهاية حين وقف الناس وظلوا يصفقون ويهتفون زمناً. إلا الرفيق نكيتا سيرقيفتش. ظل جالساً مع جماعته، يضرب على المائدة بكلتا قبضتيه. مثّل دوره إلى آخر مداه.

في مساء اليوم التالي دعا خريتشوف همرشولد إلى حفل الاستقبال الذي أقامه في مقر الوفد السوفياتي في (بارك أفنيو). استقبله بحفاوة عظيمة، وقبّله وعانقه، وقال له ضاحكاً:

«لا تراهن على حصان الرأسمالية. إنه حصان خاسر. راهن على الحصان الرابح، حصان الاشتراكية».

٩

واشنطن

دخول الولايات المتحدة الأمريكية لحامل جواز سفر سوداني، أصعب من دخول الجمل في سم الخياط. لا عجب، فهي في نظرهم فردوس أرضي لا يسمحون بدخوله لكل من هبّ ودبّ. ونحن السودانيين في عهدنا السعيد هذا أصبحنا نثير الرعب. كأنّهم حسبوني من رسل (التوجه الحضاري)، جئتهم غازياً في عقر ديارهم، لأنسف المباني - على زعمهم - وأزرع المتفجرات في محطات المترو. أنا السوداني المسالم؟ بعد هذه السن؟ بعد كل تلك الأعوام من تحكيم العقل والدفع بالحسنى؟!

كانت سفارتهم في لندن قد أعطتني (الفيزا) دون صعوبة. وجدوا اسمي مسجلاً عندهم في الكومبيوتر، وأنهم كانوا قد أعطوني فيزا لسنة كاملة. كنت يومئذ مدعواً من جامعة (بوسطن) التي استغلت نفوذها لتسهيل أمر دخولي. وجدوا كل ذلك مسجلاً عندهم،

فناولتني الفتاة جوازي، وابتسمت في وجهي ابتسامة لا تصنّع فيها ـ على طريقة الأمريكان ـ وقالت لي بصوت قدّرت أنه من الجنوب:

«أتمنى لك إقامة طيّبة في الولايات المتحدة». لذلك لم أحفل أنهم يُنذرونك كتابةً، أن الحصول على الفيزا، لا يضمن لك دخول بلادهم، وأن القرار النهائي رهن بسلطات الجوازات في المطار الذي تقصد إليه.

رضيت ذلك منهم، كما رضيت من قبل الإجابة عن بعض أسئلتهم العجيبة في (الفورم) الذي تملؤه عند طلب الفيزا. هل أنت أو أي أحد من عائلتك عمل أو يعمل في الدعارة أو تجارة المخدرات؟

لا أعلم دولة في العالم غير الولايات المتحدة تسأل مثل هذا السؤال، ولا أدري إن كانت مواثيق حقوق الإنسان تبيح لهم ذلك.

قبل ذلك، بدأت كلمتي في جامعة (بوسطن) مازحاً ـ وكنت جاداً كالمازح ـ بالسخرية من تلك الأسئلة، بعدها جاءني عدد من الأمريكان الكرماء يعتذرون لي، وأفهموني أن وراء ذلك سبباً قانونياً، لأنك إذا أجبت بـ(لا) واتضح أنك ارتكبت شيئاً من ذلك، فإنه يحق لهم أن يخرجوك عن أرضهم دون اللجوء إلى القانون.

سرّوْا عنّي، ولكنني لم أفهم تبريرهم، وقلت هذا في طبيعة الـ(سوبر

باور)، تنهض على ساقين، إحداهما من ذكاء، والأخرى من غباء، وإذا طالت ساق الغباء عن ساق الذكاء، سقط العملاق. وقد يتمزّق إن كان من ورق. وقد يتهشم إن كان من فخّار. وقد يصطفق بعضه على بعض إن كان من صفيح. والأمر لله من قبل ومن بعد.

في مطار (دالاس) مشيت سادراً، أحمل جوازي الأخضر ـ جواز ثورة الإنقاذ ـ فإذا قبالتي يافطة تقول «مواطنو الأقطار التالية يذهبون إلى...» وكان بينها من الدول العربية: ـ ليبيا وسورية والعراق ولبنان... والسودان.

وأنا أتّجه إلى حيث أُمرت إذا برجل غريب الوجه واليد واللّسان، يخرج من عندهم غاضباً مكفهراً، علمت فيما بعد أنه أخ عراقي مدعو للمؤتمر نفسه الذي أنا مدعو إليه، وأنهم صنعوا معه ما سوف يحدث لي وشيكاً. وفي السودانيين شيء من طبع أهل العراق. من ذلك أنهم إذا لطفوا فكأنهم صبا نجد كما وصفه الشعراء، وإذا هاجوا... العياذ باللّه. وقد خبر ذلك منا الأتراك والإنجليز والحكومات الوطنية منذ عبّود والنميري. وقد يهتاجون بعد!

استقبلني موظف شاب وساقني إلى طاولة وأمسك بيديّ كلتيهما، يريد أن يغمسهما في حبر أمامه.

قلت له: ماذا تريد أن تفعل؟
قال بطلف وهو يبتسم/ نأخذ بصماتك.
«لماذا؟».

«أوامر من مصادر عليا. نفعل ذلك مع مواطني دول معينة. وأنا بصراحة لا أعرف الغرض؟».

«لكنني... العام الماضي في بوسطن لم يُطلب مني ذلك.. ثم..».

«عجيب».

«ثم إن سفارتكم في لندن لم تنذرني بأنني سوف أتعرّض لهذه المهانة وإلاّ لما جئت أصلاً».

كان الموظف أسود، أو (آفرو أمركان)، كما أخذوا ينادونهم، ولعلّه تخطى حدود الوقار الذي تفرضه وظيفته، فقال لي بلطف عظيم:

«يا أخي. هذه مجرد إجراءات لا تعني شيئاً. لا تزعج نفسك».

إنّما نفسي كانت قد انزعجت بالفعل، حلّ الغضب محل الدهشة، وسمعت صوتاً فيه أصداء من رعونة السودانيين الذين أحرقوا جيش إسماعيل باشا في (شَنْدي) وأبادوا جيش الإنجليز في (شيكان) يؤُزّني أزّاً:

«يا زول!... أمريكا وأبو أمريكا!».

بلى. سوف آخذ أول طائرة إلى لندن. وأيش لهم عندي؟ لا أطلب منهم عملاً ولا إقامة. وكونهم (سوبر باور) أو (مقًا باور)... في ستين داهية».

بدأت أنكص على عقبيّ. ثم فجأة توقفت. استعذت باللّه من الشيطان الرجيم. وقلت أحكّم العقل وأقبل بالأمر الواقع. هذه بلادهم وهذه قوانينهم. وأيضاً تذكرت الناس الذين ينتظرونني. تلك السيدة الفاضلة نادية حجاب التي كتبت لي من نيويورك وكلمتني مرات بالتلفون تلح عليّ. وقد جعلوني متحدثاً (رئيسياً) في حفل العشاء الذي يختمون به مؤتمرهم يجب ألا أخيب ظنهم.

أيضاً فكرت في مدينة واشنطن الجميلة والمسارح والمتاحف والمكتبات، والأمريكان الطيبين وراء تلك الأسوار، وهم كبقية الشعوب أكرم من سلطات جوازاتهم.

قلت فليكن. وما هي إلا ذلّة لحظات ثم تمضي، بعدها أنخرط في مباهج عاصمة الدّنيا الجديدة والنظام العالمي الجديد.

■ ■

وراء حواجز المطار وجدتُ مدينة أخرى، تضيئها شمس أكتوبر (تشرين الأول) في هذا المناخ الخريفي.

تركت لندن عند الظهيرة، وبعد سفر نحو سبع ساعات، وجدت الشمس في واشنطن لم تتهيأ بعد للنّوم. كان الضوء متبرجاً سافراً، والطقس أدفأ كثيراً مما توقعت. مثل شتاء الخرطوم.

رأيت وأنا أخرج من تلك الورطة، فتاة لا شك أنها عربية، صبيحة الوجه، تمسك كتاباً من كتبي مترجماً إلى اللغة الإنجليزية، وتبتسم، يا لها من لفتة لطيفة!

تقول، وكيف عرفت أنها عربيّة؟ وهل مثلي يخفى عليه الوجه العربي؟

حملتني بسيارتها إلى النزل في وسط البلد، وعلمت منها أن اسمها مهى وهي فلسطينية، ابنة الدكتور زياد العسلي رئيس اتحاد خريجي الجامعات العربية الأمريكية، وهو الاتحاد الذي دعاني للمشاركة في مؤتمره السنوي.

قالت لي:
«بدل أن أرفع يافطة عليها اسمك، فضلت أن أرفع كتاباً من كتبك».

سرّت عنّي ـ حفظها اللّه ـ وأنستني ما لقيت من فظاظة الحكومة الأمريكية متمثلة في سلطات جوازاتها. وجدتها شديدة الذكاء واسعة الاطلاع. درست الأدب الإنجليزي في جامعة (جورج تاون) ثم تريد الآن أن تدرس الطب. كأنها قرأت كل شيء، وهي لم تصل بعد الخامسة والعشرين.

في تلك الرحلة القصيرة من المطار إلى الفندق، استفدت منها أشياء كثيرة، عن الحياة في أمريكا والجاليات العربية فيها، وكيف يحافظ الشباب أمثالها على انتمائهم العربي مع مواطنيتهم الأمريكية.

حدّثتني عن قراءاتها في الأدب العربي والأدب الإنجليزي والأدب الأمريكي، وذكرت لي أعمالاً لكتّاب وكاتبات أمريكيين لم أسمع بهم من قبل، نصحتني بقراءتها.

سألتها عن الكاتبة الأمريكية (توني مورسُن) التي فازت بجائزة نوبل، وكنت قد عكفت على قراءتها مؤخراً فقالت:

«في كتابتها شيء يحرّك الاهتمام، لكنها في رأيي ليست كاتبة عظيمة».

كان ذلك هو انطباعي مما قرأت من كتبها حتى الآن.

فيما بعد خلال تدارس أحوال العالم العربي في المؤتمر، وبعض المتحدثين كانوا متشائمين في طروحاتهم، فكرت في تلك الفتاة اللطيفة الذكية المثقفة، ومئات الشباب أمثالها، ممن لقيت في رحلاتي داخل العالم العربي وخارجه، قلت، إن عالَماً ينجب أجيالاً كهذه، لا يمكن أن يندثر، بل هو على العكس، مقبل على نهضة عظيمة.

كل ورقة عشب، وكل فرع شجرة، وكل حصاة، وكل غدير، وكل جسر، كلها واضحة محددة المعالم، كأنها وفود في مهرجان. الضوء ناصع ساطع ينعكس على زجاج السيارات وعلى مياه البرك والجدران ذات اليمين وذات الشمال.

بالألوان التي صنعتها الطبيعة أواخر فصل الخريف، شيء يتجاوز الخيال ويستعصي على الوصف. تقول هذا مثل الذهب، ولكنه ذهب لم تتداوله أيدي التجار ولا دخل في خزانات البنوك.

ألوان الفراشات، والظباء كما وصفهن الحردلّو وذو الرُمة، ألوان الشفق وقوس قزح والسجاجيد الفارسية النادرة والنقوش العربية والخزف الصيني.

بين الفضة والذهب. بين الخضرة والبنفسج. بين الكمثرى والعنب. بين الليمون والبرتقال.

هذه أمريكا أخرى. أمريكا الشعراء، وهي حقيقة، كما أن سلطات الجوازات حقيقة، وعليك أن تضع هذا إلى جانب هذا ولا تتعجل في الحكم، كل مرة أزور هذه البلاد، أترك انطباعاً كان عندي، وأعود بانطباع آخر.

وهذا (روبرت فرُست)، أمير شعراء أمريكا وأعظم من غنّى فيها للطبيعة:

«أيهذا الصباح الدافئ الخافت الصوت
من أصباح أكتوبر،
أبدأ ساعات هذا اليوم ببطْء
اجعله يبدو لنا أطول مما هو
قلوبنا تحن إلى الإغواء،
فاعمل فيها فنون إغوائك
افتحْ خزانتك وأخرج منها عند الفجر ورقة واحدة،
وورقةً واحدة عند الظهيرة،
واحدةٌ من أشجارنا القريبة،
وواحدة من أشجار الغابات البعيدة
ضَعْ على وجه الشمس برقعاً
من الضبّاب الشفّاف،
واخلُب لُبّ الأرض بسحر الأرجوان».

■ ■ ■

اتحاد خريجي الجامعات العربية ـ الأمريكية، هو في الواقع، كما اكتشفت خلال الاجتماعات، أوسع مما يبدو من اسمه. إنه بمثابة مؤتمر كبير يشمل عدداً من المنظمات العربية في أمريكا، أذكر منها اللجنة العربيّة الأمريكية لمناهضة التفرقة العنصرية ـ يعْنون التفرقة العنصرية ضد العرب وهو أمر بدا لي طريفاً، إذ إن هؤلاء جلهم من الذين وصفهم حسّان (شُمّ الأنوف من الطراز الأول)!

والاتحاد الأمريكي لمدينة رام اللّه، وجمعية بير زيت، والاتحاد الفلسطيني الإسلامي، والاتحاد الوطني للعرب الأمريكيين، وجمعية دعم فلسطين واتحاد المحامين الأمريكيين من أصل عربي وغيرها. وهي اتحادات وجمعيات تشمل أغلب الولايات المتحدة.

ربما الاسم الذي ينطبق أكثر، هو أنه اتحاد لكل الأمريكيين من أصل عربي. تأسس عام ١٩٦٧، وأهدافه كما وردت في منشوراته، هي «تقوية العلاقات وتنمية التفاهم بين العرب والشعوب الأمريكية وتشجيع دراسة القضايا المشتركة بين العالم العربي وأمريكا دراسة عميقة، ونشر الوعي عن العالم العربي وتصحيح الانطباعات المشوهة العالقة بأذهان الأمريكان عن العالم العربي، وتنوير الأمريكان بالمصالح التي تربطهم بالعالم العربي، والتعبير عن وجهات النظر العربية خاصة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي».

يتصدى الاتحاد لكل هذه القضايا الضخمة، بنشاطات متنوعة. منها المحاضرات، واستغلال وسائل الاتصال المتاحة، وعقد الندوات والمحاضرات إلى جانب نشاطات اجتماعية وترفيهية. وهم يدعون إلى مؤتمراتهم كُتّاباً وشعراء وأكاديميين وباحثين من أمريكا والعالم العربي وغيرهما.

واضح من تاريخ إنشاء الاتحاد ووصف أهدافه، أنه قام في أعقاب الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ حين بدا للعرب في الداخل والخارج، أن ثمة خطأ ما في أساليبهم وتوجهاتهم، وأن عليهم أن يعيدوا النظر في جملة أحوالهم. ويمكن أن يتصور المرء مضاضة الألم والمرارة التي أحسها العرب في أمريكا. كانوا يعيشيون في قلب الدوّامة. وقد خيّل للناس في تلك الأيام الحالكة، أن العالم الأوروبي الغربي جملةً، إمّا جاهلٌ بأحوال العرب وقضاياهم، وإما أنه لا يريد بهم خيراً عن عمد.

يُحمد لهؤلاء الأخوة والأخوات في اتحاد خريجي الجامعات الأمريكية، أنهم قبلوا الافتراض بأن ذلك جهلٌ عارض يمكن إزالته، وأن التقصير هو من العرب أنفسهم، لذلك على العرب أنفسهم أن يعملوا على بث الوعي، وتغيير الأفكار.

وذلك عين العقل، كما يظهر لي من زيارتي المتكررة لأمريكا. وقد لفت نظري أنهم سموها (الشعوب الأمريكية). وهي كذلك كما نعلم. إنهم ليسوا شيئاً واحداً، ولكنهم شتّى أقوام، وخليط أفكار وأمزجة واتجاهات. إنما يلمّهم علم واحد ودستور واحد ونظام مشترك للحكم. وكل جهد عندهم يثمر ولو بعد حين. ويظهر لي أن هؤلاء العرب الأمريكان أدرى بشعاب أمريكا وأقدر على بث الوعي في عقول الأمريكان. وذلك ليس لمصلحة العرب فقط، ولكن لمصلحة أمريكا أيضاً.

تلك الحُرقة التي أحسّها العرب الأمريكيون في أعقاب هزيمة عام ٦٧ ما تزال موجودة منها بقايا يحسّها لأول وهلة الضيف القادم عليهم. يلاحظ، أنهم ما يزالون يتحمسون لقضايا

لم يعد يتحمس لها الناس في البلاد العربية ـ في الظاهر على الأقل.

ربما بفعل الاغتراب والحنين إلى الوطن الأم، أخذوا ينظرون إلى العالم العربي على أنه عالم واحد وشيء واحد بحق. وربما أيضاً حياتهم في أمريكا، جعلتهم يحسون أن ذلك ليس أمراً مستحيلاً. إذا كانت أخلاط الشعوب الأمريكية تعيش في دولة واحدة، فلماذا لا يصدق ذلك على الشعوب العربية؟

كانوا في ندواهم خلال المؤتمر، يتحدثون دون حرج عن فكرة لم يعد الناس في الأوطان العربية يطرقونها إلا على استحياء. وبعضهم صمت عنها كلية. وبعض مفكريهم بدأ يدعو إلى نبذها على أنها شيء لا يمكن تحقيقه في دنيا الواقع، وأن الجري وراءها هو السبب في أكثر ما نزل بالعرب من مصائب.

■ ■ ■

كان الموضوع العام لمؤتمر خريجي الجامعات العربية الأمريكية الذي انعقد في واشنطن هو (البحث عن نهضة عربية ودور العرب في البلاد العربية وخارجها في تحقيقها).

أسموها باللغة الإنجليزية Renaissance. وهي كلمة يترجمونها أحياناً بـ (بعث) وأحياناً بـ (إحياء). لكننا نعلم أن (البعث) و(الإحياء) هو في اللّغة العربية، إعادة الحياة إلى شيء أو شخص ميت. والأمّة العربية ـ وهي أمة لا مراء ـ لم تمت في يوم من الأيام. إنما هي تسقط وتنهض، وتكبو وتعتدل. لذلك أجد كلمة (نهضة) أصدق بواقع الحال من (بعث) و(إحياء).

وكان من ألمع خطباء المؤتمر، الدكتور كلوفيس مقصود، الذي كان إلى عهد قريب ممثلاً لجامعة الدول العربية في الولايات المتحدة، ثم تفرّغ للعمل الأكاديمي والبحث.

هو من هذا الجيل من العرب، خاصة من بلاد الشام الذين تشربوا حُلُم الوحدة العربية، ونشأوا عليه، فأصبح يجري في عروقهم مجرى الدم. وقد بدا لذلك الجيل في الخمسينيات والستينيات أن الوحدة العربية أصبحت في متناول اليد، وأن الجيَشان العاطفي الذي حرّكه الرئيس جمال عبد الناصر رحمه اللّه، سوف يحمل الأمة العربية إلى ذلك الشاطئ السحري.

ثم كان ما نعلم من هزيمة عام ٦٧ وما تركت من آثار بعيدة المدى في وجدان الناس وعقولهم. وربما قاسى عرب أمريكا أكثر مما قاسى غيرهم. يصف أحد نوابغ العرب الأمريكيين، بروفسور إدوارد سعيد إحساسه إزاء تلك الهزيمة في كتابه (سياسة الاغتصاب)، فيقول:

«أحسست لأول مرّة منذ أن جئت إلى أمريكا، أنني قد رجعتُ عاطفياً. رجعت إلى العالم العربي عموماً وإلى فلسطين خصوصاً. كانت تلك نتيجة مباشرة للحرب (٦٧) التي ذقت مرارتها وأنا في نيويورك... إن جيلي تربّى على الإيمان المطلق بوطن عربي، كما انحدر إلينا من عصر (النهضة) في أواخر القرن التاسع عشر، وما صحب ذلك من نضال لإحياء التراث العربي. وهي حركة بلغت ذروتها في الثورة العربية الكبرى ضد الحكم العثماني، عام ١٩١٧.

ورث جيلي الإحساس التاريخي بالمرارة، ذلك أننا حين ظننا أننا سوف نحصل على استقلالنا الذي وعدنا به البريطانيون

والفرنسيون، وحرضونا على الثورة ضد الحكم العثماني في سبيله، إذا هم يخونوننا وينكثون بوعودهم لنا...».

وفي موضع آخر من كتابه، يقول بروفسور إدوارد سعيد:
«في ستة أيام فقط انهار كل شيء بناه عبد الناصر ومؤيدوه... أصبح أن تكون عربياً يعني الإحساس بالهزيمة والصدمة العميقة، والحيرة وفقدان الثقة بالنفس...».

من تلك الصدمة والحيرة، انطلقت ـ ما نعلم ـ اتجاهات فكرية وسياسية متعددة. وربما كان أوضحها الاتجاه (البراغمتي) الواقعي. وهو اتجاه نرى آثاره فيما يجري هذه الأيام.

ليس بروفسور إدوارد سعيد ـ كما يتضح من كتبه ـ بعيداً عن (الواقعية)، ولا الدكتور كلوفيس مقصود. الخلاف بينهما وبين آخرين، هو في مدى هذه الواقعية وفي توقيتها. وعند كلوفيس مقصود خاصة: ـ هل الواقعية توصل في نهاية الأمر الى تحقيق الحلم الأسمى، حلم الوحدة العربية، أم هي تقضي عليه؟

ولعل من الطبيعي أن يظل مفكر مثل كلوفيس مقصود متشبثاً بالحلم العربي.

إنه رجل وقف جهده كله ونذر حياته كلّها في مطاردة ذلك (الحلم). ظل يصول ويجول ويكرّ ويفر في غمرات تلك المعركة، التي تبدو خاسرة أحياناً، وفي أحيان أخرى كأنها قاب قوسين من النّصر.

■ ■ ■

أغلب العرب الأمريكيين ـ كما لمست من مؤتمر خريجي الجامعات الأمريكية ـ يحسون بولاء مزدوج. فهم من ناحية مواطنون أمريكان، يسري عليهم كل ما يسري على المواطن، ويتمتعون بحقوق المواطنة كلها. هم من ناحية ثانية أصول عربية، يحبّون أن يحتفظوا بأواصرهم مع أوطانهم الأصلية.

إنه وضع ليس مريحاً دائماً، إذ إن علاقات أمريكا بالعالم العربي، أو بعضه، تتأرجح بين الصعود والهبوط، والهدوء والتوتر. وقد تساءل أحدهم: ـ هل تمسّكُ العرب المهاجرين بولائهم للعالم العربي، يصعّب عليهم الحياة في أمريكا؟ هل هذا الولاء يضيّع عليهم فرصاً وامتيازات، سوف يحصلون عليها إن هم انخرطوا كلية في الحياة الأمريكية وقطعوا صلاتهم بالعالم العربي؟

إنه سؤال صعب. ولا شك أن بعضهم فعل ذلك. إنما العرب المجتمعون في هذا المؤتمر يريدون أن يفعلوا العكس. يريدون أن يكونوا أمريكيين، وفي الوقت نفسه، يحافظون، بل ينمّون إحساسهم بـ (الهوية) العربية.

أجل، إنه وضع صعب. وتجد لمحات من هذا التوتر ـ إن لم يكن التمزّق ـ في كتابات بعض مفكريهم، أمثال بروفسور هشام شرابي وبروفسور إدوارد سعيد.

وأيضاً لدى الدكتور قرقوري نُجيم، الذي قدّم في المؤتمر محاضرة عنوانها (حماية جالياتنا في أمريكا).

هذا رجل أمريكي من أصل لبناني. وهو من هؤلاء الرجال والنساء ـ

وهم كثيرون في هذا المؤتمر ـ الذين لا يجدون تناقضاً بين حبهم لأمريكا، موطن هجرتهم، وحبهم لمواطنهم الأولى. وقد أخذوا على عاتقهم، الدفاع عن الحريات والحقوق، ونصرة الضعفاء ليس من منطلق أنهم عرب، بل من منطلق أنهم أمريكان. ويزيد من إعجاب المرء بهم، أنهم جميعاً في مراكز مرموقة، بمنأى عن غائلة القوانين، مثل (قانون الإرهاب) المقترح، التي يتأثر بها المهاجرون العاديون من العرب.

هذا، والدكتور نُجيم واحد من المستشارين القانونيين في الاتحاد الأمريكي للحقوق المدنية بواشنطن وهو اتحاد يضم قراب ثلاثمائة ألف عضو، ويعمل على صيانة حقوق الأفراد كما نص عليها الدستور الأمريكي وميثاق الحقوق.

أدلى الدكتور نجيم بشهادات أمام عدد من لجان الكونجرس بخصوص مضاعفات قانون الإرهاب المقترح، ومحامياً عن حريات الأفراد، التي سوف يحدّ منها القانون، مثل حرية العمل. كذلك يعمل الدكتور نُجيم عضواً في اللجنة الوطنية للهجرة، وهي عبارة عن تكتّل واسع يشمع مائة وخمسين لجنة تهتمّ بحقوق المهاجرين.

وكان الدكتور نجيم قبل ذلك، مديراً للخدمات القانونية في اللجنة الأمريكية العربية لمناهضة الاضطهاد العنصري. ومن موقعه ذلك، أشرف على صياغة ردود الفعل العربية ضد حملات الكراهية، وهي حملات تأخذ أحياناً طابع الاعتداء الصريح. وأيضاً ضد مضايقات أجهزة الأمن في حالات التوتر السياسيّ كما حدث إبّان حرب الخليج.

قال الدكتور نُجيم في محاضرته، إن الحكومة الأمريكية، بناء على قانون مكافحة الإرهاب المقترح، تقرر ضربة لازب، أيّ الجماعات المهاجرة تستحق الدعم، وأيها تكون موضع الشك والحذر. وأشار إلى أن المهاجرين العرب، سوف يتعرضون لمزيد من العنت إذا أُجيز ذلك القانون، فهو يعطي الحكومة السلطة أن تمنع دخول أي أجنبي، لا لسبب، إلا أنه ينتمي إلى دولة متهمة بالإرهاب، كما يخوّلها الحق في ترحيل أي أجنبي اعتماداً على مصادر سرية لا يحق للشخص المعني تفنيدها أو إثبات بطلانها. وذكر أن القانون المقترح، يُلزم كل فرد بحمل بطاقة إثبات الشخصية.

تطرق بعد ذلك إلى قضية أطفال المهاجرين، وقال إن قانون مكافحة الإرهاب المقترح، لن يسمح لهم بتنمية صلات ثقافية أو روحية مع أوطانهم الأصلية، فهو ينص على فرض اللغة الإنجليزية على أنها لغة التداول والتعامل الوحيدة.

كلّ هذه قضايا كبيرة، تلك التي أثارها حديث الدكتور نُجيم، هي تعطي صورة أخرى عن الفردوس الأرضي في العالم الجديد.

هكذا نرى أن دولة المهاجرين أخذت بفعل التحوّلات السياسية والاجتماعية، تضيق بالهجرة. مجتمع التنوع والتعدد، أخذ ينحو نحو اللغة الواحدة والثقافة الواحدة. دولة المؤسسات والحريات، أخذت تتبع الأساليب البوليسية التي لم تزل تعيبها في الآخرين.

أمّا فيما يتعلق بالمهاجرين العرب، فبعد أن ظلوا يحاولون أن يعزلوا أنفسهم عن خضم المعارك الكبرى التي خاضها الأمريكان السود في

الدفاع عن حقوقهم، إذا هم تحت وطأة الظروف يحسون الأحاسيس نفسها ويتحدثون اللّغة نفسها.

ومن دعابات الظرف القاسية، أن العالم العربي الذي هاجروا منه، إما طواعية أو اضطراراً، إذا أشباحه تلاحقهم. إذا فجّرت قنبلة في مكان ما في العالم العربي، أو قُتل سائح أو اختطفت طائرة، تصل آثار ذلك إلى أمريكا كأنها موجات في بحر، فتقضّ مضجع المهاجر العربي وتكدر عليه صفو حياته. فلا فكاك له من ذلك العالم.

■ ■ ■

وجدت تلك السيدة الفاضلة نادية حجاب، كما عهدتها دائماً ـ الذكاء وروح الدّعابة والطاقة العظيمة على العمل. أعرفها منذ أيامي في قطر في السبعينيات ـ حيّاها الحيا وسقى ـ جاءت إلى الدوحة، وكانت قد حصلت لتوها على درجة الماجستير في اللّغة الإنجليزية، من الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان أبوها، بروفيسور وصفي حجاب، من خبراء منظمة اليونسكو لتطوير جامعة قطر.

عملت معنا في وزارة الإعلام، فكانت هي والفلسطينية الموهوبة الأخرى، السيدة ليلى فانوس ـ ابنة صديقنا المرحوم داود فانوس ـ من أكثر العاملين في الوزارة نشاطاً وإنجازاً. وأذكر أن الوزير عيسى غانم الكواري وأنا حين قررنا أن نعيّنها رئيسة للقسم الإنجليزي، وهي في أوائل العشرينيات من العمر، جاءني أحد قدماء العاملين في الوزارة، وكان رجلاً نزيهاً مخلصاً، وقال لي: «هذا القرار خاطئ».

سألته لماذا، فأجاب:
«لثلاثة أسباب. أولاً هي صغيرة السن. وثانياً هي امرأة، وثالثاً هي مسيحية».

قلت له: إنني أعتبر هذه الصفات كلّها ميزات وليست نقائص.

كان أكثر مني تحسباً لبعض الجهات المحافظة في الدولة، ولعلني كنت أكثر منه إدراكاً لنضج السيدة ليلى فانوس العقلي وأنها من هؤلاء النصارى العرب المخلصين، الذين هم أكثر الناس مودّة للذين آمنوا. وقد تزوجت مسلماً فيما بعد.

اتضح أن الوزير وإياي كنا على حق، فقد أحدثت ثورة حقيقية في البرامج الإنجليزية، وارتفعت بالقسم إلى مستوى لم يصله أحد بعدها. وهي اليوم ملحقة صحافية في السفارة القطرية في لندن، حيث تقوم بجهد عظيم، ليس لقطر وحسب، ولكن للأمة العربية عموماً.

لم تلبث نادية حجاب أن سافرت إلى لندن، فتوّلت تحرير المجلة المعروفة Middle East Magazine، وكان لها نشاط إعلامي واسع تلك الأيام، فكانت تكتب في الصحف وتتحدث في الإذاعة والتلفزيون، وتحاضر وتشارك في الندوات والمؤتمرات. وقد أصدرت كتابين باللغة الإنجليزية في تلك الفترة، أحدهما عن النساء العربيات العاملات، والثاني عن العرب الفلسطينيين في إسرائيل.

ثم التحقت بمنظمة الأمم المتحدة في نيويورك، فدفعتها مواهبها

الواضحة إلى الترقي سريعاً، وهي الآن من الموظفين الذين يصنعون سياسة برنامج الأمم المتحدة للتنمية.

لم تمنعها أعباؤها الوظيفية عن مواصلة الجهد دفاعاً عن القضية الفلسطينية والقضايا العربية عامة. وهي عضو في هيئة الأمناء للمعهد الفلسطيني للدراسات الاقتصادية، كما انتخبت في هذا المؤتمر، أميناً عاماً مساعداً لاتحاد خريجي الجامعات العربية الأمريكية.

تعرفت عن طريقها بقريبتها الدكتورة سلوى مقدادي النشاشيبي من جامعة (بيركلي) في كلفورنيا. وقد انصرف همّ هذه السيدة المخلصة إلى التعريف بالعالم العربي عن طريق الفن. وقد أشرفت منذ عام ١٩٦٨ على تنظيم عدة معارض في أماكن شتى في أمريكا. وفي عام ١٩٩٤ نظمت معرضاً فنياً في مدينة شيكاغو بعنوان (دوافع التغيير: فنانون من العالم العربي)، حكم عليه النقّاد أنه أحسن معرض فنّي يقام في شيكاغو في ذلك العام. وقد انتقل المعرض بعد ذلك إلى أربع مدن أمريكية كبرى.

يلفت النظر في جهد الدكتورة سلوى، أنها تستغل وسائل الاتصال الجماهيرية في أمريكا خاصة «الفيديو»، وأنها تهتم بنشر الوعي عن العالم العربي، بين أطفال المدارس الأولية وطلاب المدارس الثانوية. ولعلها من الرواد في هذا الميدان.

وجدت في ذلك المؤتمر أيضاً، الدكتورة غادة الكرمي، ابنة أستاذنا الجليل حسن الكرمي.

تلك عائلة مشهود لها بالعلم والذكاء. وكان الأستاذ حسن

الكرمي تلك الأيام أواخر الخمسينيات، يقدّم من الإذاعة العربية في الـ«بي. بي. سي» برنامجه الشهير «قولٌ على قول» الذي استمر سنوات، ويصدر معاجمه المعروفة ومنها «المغني». وكانت ابنتاه غادة وسهام تدرسان في جامعة لندن، غادة تدرس الطب وسهام تدرس الكيمياء.

انصرفت الدكتورة غادة بعد ذلك إلى التخصص في تاريخ الطب عند العرب، فأصبحت من المعدودين في ذلك المجال. وهي اليوم (زميل) في معهد الدراسات الإسلامية ودراسات الشرق الأوسط في جامعة «درم» في بريطانيا.

إلى جانب ذلك فإن الدكتورة غادة الكرمي، تناضل منذ سنوات، في معترك القضية الفلسطينية، ولها في ذلك مواقف مشهودة في مواجهة دعاة الصهيونية من الإنجليز.

في عام ١٩٩٤، أطلقت حملة دولية للدفاع عن عروبة القدس. ظلت القدس دائماً شغلها الشاغل، وحين تتحدث عنها، تبلغ بها الحماسة درجة الشراسة. وقد رأى الناس في مؤتمر واشنطن طرفاً من تلك الشراسة فقد كانت محاضرتها عن القدس.

■ ■ ■

الدكتور مأمون فَنْدي، من (نقاده) في أقصى صعيد مصر. وهي بلدة معروفة لدينا في السودان، لأن أهلها مشهورون بنسيج نوع من الأُزُر، الواحدة تسمى (فِرْكه). وفي اللسان: ثوب مفروك بالزعفران وغيره، أي صبغ به صبغاً شديداً.

والأمر كذلك عندنا، إذ إن الأزُر تُصبغ وتضمّخ بالعطر، مما تصنعه النساء إرضاء للحليل.

ومن تلك الأزر نوع فاخر يسمى (القرمصيص). وتقول الأغنية القديمة:

الـــقـــرمـــصـــيـــص غـــالـــي
مـــا بـــيـــدُّوه جَـــمّـــالـــي

وهو بخلاف صاحب الجمل الذي تصفه الأغنية الأخرى:

جـــمـــلاً جـــايـــي مـــن جـــدّه
الـــقـــيـــد والـــرشْـــن فـــضّـــه

ولم أجد للكلمة أصلاً، إلا أن تكون مشتقة من (قَرْمَص). ومن معانيها «تَقَرمص في الثوب أي دخل فيه وتقبّض»، فيكون في ذلك معنى الاستدفاء.

تلك الأزر التي تصنعها (نقاده) في صعيد مصر، تلبسها النساء السودانيات، ولا تلبسها المصريات. وقد ظل الحال كذلك منذ عشرات السنين، وهو من بدائع فنون التكامل الاقتصادي الذي تصنعه الشعوب بمنأى عن تدخّل الحكومات. ومن ذلك أيضاً تجارة الجمال، التي ظلت رائجة منذ عهد دولة (سنّار)، عبر دروب مثل (درب الأربعين)، لم تستطع الحكومات على عدوتي وادي النيل، أن تشدّها بكل عدّها وعتادها. ولو استطاعت لفعلت.

هذا، وقد أعجبني في هذا العالم الصعيدي، أنه رغم دراسته وزواجه وحياته في أمريكا، لم يفقد لهجته الصعيدية ولا دفئه الصعيدي. هو

الآن (برفسر) في جامعة (جورج تاون) العتيدة بواشنطن، وهو لم يبلغ الأربعين بعد، فأعجب لنجاح الصعايدة في أمريكا، وخيبتهم في (بر مصر)!

سهرت معه وزوجته الدكتورة (جودت) في دار صديقنا المشترك الفاتح إبراهيم أحمد في (فرجينيا)، حيث أقمت بعد نهاية المؤتمر. جاءنا يلبس (جلابية) صعيدية سوداء، قال إنه يظهر بها أحياناً في المناسبات العامة في الجامعة. ذلك لا شك نوع من الغزو الثقافي المضاد الذي يشنه الصعيد على أمريكا.

أو هو نوع من (التوجه الحضاري). لا غرو، فالصعايدة يحق لهم أن يكون عندهم (توجه حضاري). عندهم الكرنك ووادي الملوك وأبو سمبل، وأغلب مخلفات الحضار الفرعونية. تركوا للمصريين في (وجه بحري)، الأهرامات، وهي عبارة عن صخور صمّ، لا يعلم أحد ماذا تعني. من قال إن الصعايدة سُذّج؟

أرانا صوره عند أهله في (نقاده)، مع زوجته الأمريكية. ألبسوها (الملاية) و(الطرحة)، وأدخلوها فيما تدخل فيه نساء الصعيد من أعمال البيت والغيط، مما قد لا تطيقه بنات القاهرة والإسكندرية. وكانت سعيدة بكل ذلك كما أكدت لنا.

هذا الصعيدي العالم، أيضاً كاتب مبدع، وله قصص جميلة بالإنجليزية والعربية، بالإضافة إلى ذلك يخوض في الشؤون العامة في كبريات الصحف الأمريكية، مثل الـ (نيويورك تايمز) والـ(كريستيان ساينس مونيتر). فأعجب مرة أخرى لذكاء الصعايدة.

في علمه شيء من الإبداع، وفي إبداعه شيء من العلم. وقد ظهر ذلك واضحاً في محاضرته عن (أزمة الحكم في المشرق). كانت محاضرة تتسم بالحيوية الفكرية، والأسئلة التي يسألها عادة الشعراء والروائيون.

مثله في ذلك، الجنوبي الآخر، الدكتور علي عبد اللطيف أحميده، فهو من فزّان، التي هي بمثابة الصعيد في ليبيا، هو أيضاً فخور بجذوره الليبية الفزانية، مفعم بذلك الذكاء الجنوبي الذي يحسب الذي لا يميزه أنه غفلة. ولعله كان يشتري تراماً من من أهل بنغازي لو كان في بنغازي ترام! إنما الصعيدي المصري الذي اشترى الترام، لم يكن ساذجاً، لقد أدرك منافع (الخصخصة) قبل سنوات من ظهور (ملتُن فريدمان) و(مسز ثاتشر).

تخرّج علي الفزاني من جامعة القاهرة، وأخذ الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة (واشنطن)، ويعمل الآن أستاذاً مساعداً للعلوم السياسية في جامعة (نيو إنجلاند)، وله كتاب صدر باللغة الإنجليزية عنوانه (تكوين ليبيا الحديثة ـ الدولة والاستعمار والمقاومة ١٨٢٠ ـ ١٩٣٢) وكانت محاضرته في المؤتمر عن (أزمة الحكم في بلاد المغرب).

هكذا ترى، أن أمريكا ـ مهما قلْت عنها ـ قد كشفت في هذين العربيين الجنوبيين، عن مواهب! لعلّها غابت عن القاهرة وطرابلس.

■ ■ ■

كأنما كتب على السودانيين في هذا الزمن لحكمة لا يعلمها إلّا الله، أن يلّفوا ويدوروا بلا سبب. الدولة والحكومة والأفراد، في داخل البلد وخارجها، والهدف قريب، والطريق سهل.

هذا ما حدث لنا ـ الفاتح ابراهيم أحمد وأنا ـ ونحن نسافر من (فرجينيا) إلى (فرجينيا). كنا نقصد (مركز الحوار العربي) في ضاحية (فيينا) حيث جمع صديقنا صبحي غندور الناس لمحاورتي منذ الساعة السادسة.

قمنا في الساعة الخامسة والنصف، لأن الفاتح هو أيضاً يسكن في (فرجينيا)، وقدّرنا أن نصف ساعة تكفي.

هبت الريح بنا رخاء، وامتزجت ألوان الخريف على جانبي الطريق، بذلك الصوت الساحر، صوت الفنانة الموهوبة هادية طلسم، وهي تغني على الشريط:
نسيتني أنا وخلاص يعني
ما في طريق يرجعني

هكذا إلى أن وصلنا (فيينا)، وكانت الساعة تقارب السادسة. ذلك من حسن التوفيق، فالمركز لا شك على بعد خطوات.

لكننا لم نلبث أن دخلنا في (تجربة) ـ كما يقول أخواننا النصارى ـ وكان الفاتح قد نسي أن يحضر معه العنوان. كان واثقاً أنه يعرف المكان بـ (الفطرة). ظللنا نتخبط ونلف وندور، أسوأ مما تفعل حكومة (الإنقاذ)، ونحن كما اتضح لنا فيما بعد، فعلاً على بعد خطوات من حيث نريد.

الفاتح من أهلنا الركابيين، الذين نزحوا قديماً من (العفاض) إلى (طيبة) في الجزيرة، فجمع بين روحانية الركابية، وسماحة أهل الجزيرة، وتمدن خريجي جامعة الخرطوم في عهودها المضيئة، إلى جانب صفات اختص بها مثل حبه للشعر والفن. منظم عادة، فلا أدري ماذا حدث له الآن. ضحك فجأة، ونحن في دوامة تلك الورطة، وقال:

«أصابتنا عدوى الشوش».

يقصد الدكتور محمد إبراهيم الشوش، وكنا نتهمه بالتوهان، ونعبث به لأجل ذلك، وها نحن الآن في تيه ليس مثله تيه الشوش. افتقدناه كثيراً هذه المرة. كان معنا في ربيع ٩٤، وهو نعم الأنيس. لديه ذخيرة لا تنفد من النوادر، وقدرة عجيبة على رسم صور كاريكاتورية لفظية لأشخاص ومواقف. وهي موهبة تبدو واضحة في كتابيه الجميلين (نوادر هذا الزمان) و(وجوه وأقنعة). وذلك جزء يسير من عبقريته.

بدأ الإحساس بالحرج يضغط عليّ، فقد جاوزت الساعة السابعة، والناس ينتظرون، وبينما نحن على تلك الحالة، نلف وندور، ونمضي ونعود، إذ لاحت لنا محطة بنزين، بدت لي في ذلك الخلاء الأمريكي، كأنها محطة سكة حديد خلوية، بين (شدياب) و(هيا) ـ قلنا نميل إليها، نسأل، أو نضرب تلفوناً لمركز الشرطة، أو أي شيء.

وإذا نحن ثمة بشاب سوداني، من سودانيي الـ (دياسبورا). وارحمتا للسودانيين في المنافي! وما أكرمهم في مثل تلك المواقف! تلبب الشاب قضيتنا كأنها قضيته. ومن هنا إلى هنا، وجدنا ضالتنا. وما

إن خرجنا من عنده، حتى وجدنا طلائع بثهم صبحي غندور، يتسقطون أخبارنا، ويبحثون عنا.

وجدنا خلقاً كثيراً، ظلوا ينتظرون، وبعضهم لا شك جاء من أماكن بعيدة، فزاد ذلك من حرجي. إلا أن صبحي غندور لم يلبث أن هوّن عليّ الأمر، بتلك الروح الطيبة وتلك الجاذبية التي يتميز بها أفراد هذه الأسرة كلهم. إنها أسرة أحمل لها وداً قديماً مقيماً. فيهم أحسن ما في الطبع اللبناني.

سرني أن الكلام باللغة العربية، بعد تكاليف اللغة الإنجليزية في اجتماعات خريجي الجامعات الأمريكية. وكانت سحن الناس ولهجاتهم تنمّ عن أنهم من مشارق الأرض العربية ومغاربها. وارحمتاه للعرب في المنافي! وكانت أسئلتهم وأفكارهم فيها كل حيوية العالم العربي وتناقضاته. وأيضاً ذلك الإحساس بأن ثمة شيئاً مشتركاً يجمع بينهم.

ذلك هو ما رمى إليه هذا الشاب المتأجج بالذكاء والحيوية، حين أنشأ مركز الحوار العربي أواخر عام ١٩٩٤، ليكون امتداداً وتكملة للمجلة التي يصدرها منذ وصوله إلى أمريكا ـ مجلة (الحوار). وقد ذكر في كلمته التي بيّن فيها أهداف المركز يوم افتتاحه أنه:

«... دعوة للجمع بين الفكر والثقافة العربيتين على أرض غير عربية. فهي أرض أمريكية نحاول أن نصون عليها لأنفسنا ولأجيالنا القادمة، ما عندنا من أصول ثقافية وحضارية...».

وقال في موضع آخر من كلمته:
«... التفاعل والحوار المنشود سيترك أثراً كبيراً خارج محيطهم المباشر، وسيؤدي عبر الجدل الفكري الحر إلى صياغة طروحات عربية جديدة تفيد هنا على الساحة الأمريكية لكل العرب وقضاياهم المشتركة، كما تفيد بوصولها إلى الساحة العربية نفسها...».

نعم، هذا هو الهدف النبيل من (مركز الحوار العربي) و(اتحاد خريجي الجامعات العربية الأمريكية) وكل الجمعيات والاتحادات التي تلمّ شتات العرب في أمريكا. وهي كلها تستحق التأييد والدعم.

الهدف قريب والطريق واضح. ونحن نلف وندور، كما قال الشيخ التنوخي:
«... مزارها قريب ولكن...».

■ ■ ■

تفرقت البلابل، وهاجر بشير عباس الملحن الموهوب الذي قدّمهن للجمهور السوداني أوائل السبعينيات.

كنّ صغيرات وجميلات، وأصواتهن مثل شقشقة العصافير عند الفجر. أغانيهن خفيفة مرحة، جديدة ولكن فيها روح القديم. غزلة ولكنه غزلٌ صاف عفيف خال من أية إيحاءات جنسية.

أخذن العذوبة والشجن من منطقة النوبة العريقة أقصى شمال

السودان، بتراكماتها الحضارية، التي أخذ منها محمد وردي أيضاً فنّه العبقري.

ربما أكثر من أي ظاهرة أخرى، كان غناء (البلابل) تلك الأيام، يعبّر عن روح السودان. عن ثقته في نفسه وتفاؤله في المستقبل، وإقباله على الحياة. ولمّا انفرط عقدهن، كأنما السودان نفسه فقد حيويته وأخلد إلى الكآبة والركود.

والدُهن الأستاذ محمد عبد المجيد طلسم رحمه الله، كان من الرّجال الروّاد أصحاب النظر البعيد من طراز المرحوم بابكر بدري الذي آمن بتعليم البنات في السودان، أول القرن في وجه مقاومة اجتماعية عظيمة. وقد أسعدني الحظ أنني تتلمذت على يدي المرحوم طلسم فترة في جامعة الخرطوم، حين كان محاضراً في كلية العلوم. أذكر مرحه وطيبته وأبوّته الغامرة.

كان رجلاً شجاعاً شجاعة بالغة، ففي وقت كان فيه المجتمع السوداني ينظر إلى الفن، وخاصة التمثيل والغناء، بريبة وحذر وغير قليل من الاحتقار سمح لبناته السبع أن يدخلن المعهد العالي للموسيقى والمسرح، ويعملن بعد تخرجهن في ميدان التمثيل والغناء. وكنّ من المؤسسات في الفرقة القومية للفنون الشعبية. وهي فرقة سرعان ما حصلت على شهرة عالمية واسعة.

في أواخر عام ١٩٧١، انطلقت فرقة (البلابل) المكوّنة من ثلاث أخوات هن هادية وآمال وحياة. ويُعزى أكبر الفضل في انطلاقتهن ونجاحهن إلى الموسيقي الموهوب بشير عباس. وهو أيضاً

من أسرة عريقة من (حلفاية الملوك) في الخرطوم بحري.

لقيت هادية طلسم أول مرة في زيارتي لواشنطن في ربيع عام ٩٤، مع زوجها الدكتور عبد العزيز بطران، أستاذ التاريخ في جامعة (هوارْد). عرّفني بهما الفاتح إبراهيم أحمد. وكان معنا الدكتور محمد إبراهيم الشوش، وأسامة الذي يسكن قريباً من الفاتح. وهو مهندس معماري، اضطرته الظروف أن يعمل في النقل. صوته جميل في الغناء وكذلك الفاتح، فكانا لها بمثابة الكورس، وأحياناً يغنيان معها.

قضينا في دارهم وفي دار الفاتح، أمسيات لا تنسى، نستمع إلى ذلك الصوت الساحر.

تعيد إلى الحياة بصوتها العربي النوبي، ووجهها الفرعوني، واستغراقها حين تغني كأنها تصلي ـ عالماً كاملاً ضاع أو كاد يضيع. غنّت تلك الأغنية القديمة التي لا أملّ سماعها:

يجْلي النّظر يا صاح
منظر الإنسان، الطرفة نايم وصاحي

وغنت تلك الأغنية البديعة للمطرب الكبير أحمد المصطفى:

زاهي في خدره ما تألّمْ
إلّا يوم كلموه تكلّمْ
حنّ قلبُه ودمعه سالْ
هفّ بي الشوقْ قالْ وقالْ

وغنت للمرحوم إبراهيم الكاشف:

أنا يا طير بشوفك
محل ما تطير بشوفك

غنت من القديم والجديد، من أغانيها وأغاني غيرها، بالعربية وبالنوبية، فجعلت الناس يغرقون في سُبحات سودان آخر، في زمان آخر.

في زيارتي هذه المرة، صادفتُ بشير عباس أيضاً، وهو بالإضافة إلى موهبته الكبيرة في التلحين، عازف لا يجارى في العود، وله صوت جميل في الغناء. فسمعنا منهما عجباً.

لاحظتُ كيف أنها توزّع همّها بين فنها وطفليها. تكون مستغرقة في الغناء، وفي الوقت نفسه، منتبهة إلى تحركات طفليها في أرجاء الدار. ولاحظت كيف أن زوجها الدكتور بطران، هذا الإنسان المهذب المتحضر، يرعى موهبتها الكبيرة بحنو وعطف عظيم.

صوتها غدا أكثر نضجاً. تلبسته أشجانٌ بعيدة الغور، كأنّما الصوت مرآة للتحوّلات العميقة التي تجتاح السودان نفسه.

ذلك الزمان زمان الظبي المكنون في خدره لن يعود بطبيعة الحال. ولكن الزمان الجديد، الذي يتشكل بوحي من أصوات المغنين والشعراء والكُتّاب والحداة، لعلّه يأتي في صورة مدهشة لم تخطر في خيال أحد.

■ ■ ■

منذ أن صمتت المآذن في الأندلس قبل ما يزيد على خمسة قرون، لم يحدث أن ارتفع الأذان خارج ديار الإسلام في حشد كالذي جمعه (لويس فرخان) الزعيم (الأفرو ـ أمريكي)، أمام البيت الأبيض، وعلى مرمى حجر من مقر الكونجرس الأمريكي في (كابتول هِل).

كان ذلك قبل وصولي إلى واشنطن ببضعة أيام، ولكنّي شاهدت المظاهرة مسجلة على شريط (فيديو). منظر مهيب حقاً. آلاف فوق آلاف من البشر تجيش وتمور وتتزاحم بالمناكب. وجوه صارمة، ووجوه مبتسمة، وعيون كأنها مسحورة، مشدودة إلى أفق يبدو لها قريب المنال.

لم يكونوا كلّهم من المسلمين، ولكن طاف فوقهم جميعاً نداء الإسلام بسماحته التليدة، بصوت عذب تخالطه عُجمة، يخيّل لك أن مثله صوت بلال. طافا فوقهم كما ترف أجنحة الحمام أو كما ينتشر ضباب خفيف فوق الوديان.

تعلّقت الأبصار برجل رشيق على منصة، زنجي ولكنه ليس أسود، لونه أفتح من ألوان بعض العرب. زعيم ذو جاذبية غير عادية، تبدو في صوته الأغنّ كأصوات المغنين، وحركاته الرشيقة كحركات راقص باليه. يعلو ويهدر فكأنه موج يتكسر على صخر. ويرقّ ويعذّب فكأنه أم تهدهد طفلاً. وحين تلا سورة الفاتحة في نهاية الاجتماع بتلك العُجمة الموحية، رقّ جداً، وانحسر الغضبُ عن وجهه وصوته.

لعلّه متطرف، ولكنه تطرّف ينبع من حُبّ عميق لشعبه، كان في

الواقع أكثر اعتدالاً ممّا تخيّلت. هذا زعيم - مهما كان من أمره - يستمد قوته وعنفوانه من ماضي شعبه الحافل بالدموع.

العرب الأمريكيون، يلتقون مع الأمريكيين من أصول أفريقية في قضية الهوية والانتماء. إنما العرب هاجروا طواعية واختياراً، وجاءوا في عهد قريب نسبياً. ما يزالون متمسكين بجذورهم القديمة، يحاولون أن يوفّقوا بين ذلك وبين ولائهم الجديد لموطن هجرتهم.

أولئك شأنهم مختلف كما نعلم. لم يجيئوا، إنّما جيء بهم قسراً في ملحمة هي الأبشع في تاريخ الإنسانية. وذلك يعطيهم نوعاً من الإحساس بالتفوق أو الخصوصية، كونهم (الضحيّة) الكبرى. لذلك يضيقون بالعرب أحياناً، وهو أيضاً وراء اصطدامهم باليهود، لأن اليهود يريدون أن يحتكروا مكانة الضحية الأولى والأكبر في ضمير البشرية.

(فرخان) قال بصراحة أكثر من أي زعيم (أفرو - أمريكي) آخر، أن الاضطهاد الذي تعرّض له اليهود، لا يعتبر شيئاً بالقياس إلى ما أصاب السود الأمريكيين. كأنهم ينافسون اليهود على صفة (شعب الله المختار) - أي المختار للمعاناة والعذاب.

إنني أحسست أن العرب الأمريكيين، بدأوا يجدون بعض أسباب التقارب مع الأمريكيين من أصول أفريقية، وإن كانوا ما يزالون ينظرون إليهم بشيء من الحذر. ربما ينتج من ذلك التقارب، إن حدث، بعض الاعتدال في توجهات الأمريكيين السود، وأيضاً مزيد من التضامن عند العرب الأمريكان.

تقول لميس الأشطل، وهي طالبة جامعية في نيويورك، في مقالة فازت بالجائزة الأولى في مسابقة اتحاد خريجي الجامعات العربية الأمريكية:

«الآن، وقد بلغت التاسعة عشرة من عمري، فقد بدأت أدرك أن (هويتي) ليست مكتملة تماماً. وأهم من ذلك أنني أدركت أن الهوية المكتملة ليست شيئاً ضرورياً. ليس ضرورياً أن أكون شيئاً واحداً كي أحس بالفخر (...) إنني الآن أحس بالرضى أنني عربيّة وأيضاً أمريكية...».

وتقول طالبة أخرى اسمها غيداء سالم، من قصيدة باللغة الإنجليزية:

«تستطيع أن تنتزع وطني مني لكنك لا تستطيع أن تنتزعني من وطني. العلم الذي أرفعه لونه أحمر وأبيض وأزرق لكن تراثي يحيا في ذاتي.
أنا عربية أمريكية».

■ ■ ■

لبثت دهراً، لا يخطر لي أن أزور أمريكا، أيام كان دخولها سهلاً، والعقل أكثر استعداداً لتقبّل المناخات الجديدة والتجارب الجديدة. وما كان ذلك لقلّة الفرص.

حين سافر منسي رحمه اللّه إلى أمريكا، لم يكن يملّ من حثّي على المجيء إلى أمريكا والاستقرار فيها كما فعل هو، أدرك فوراً بقدرته المرهفة على انتهاز الفرص، أن تلك البلاد الشاسعة المتخمة بالثراء، التي بدت له كأنها (سائبة) ليست ملكاً لأحد، تنطوي على

احتمالات لا حدود لها.

كنت أقول له «يا أخي. إذا كان لا بد من منفى، فليكن عند الإنجليز. هؤلاء قوم على علاّتهم، عرفناهم وعرفونا. أمّا أن يقوم الإنسان من منفى يعرفه إلى منفى لا يعرفه ويبدأ من جديد؟ لا يا عمّي، خلّني حيث أنا، وأنت أمريكا مبروكة عليك».

ثم ذهب صلاح أحمد محمد صالح إلى واشنطن، مرّة ملحقاً ومرّة سفيراً، فكان هو أيضاً يزيّن لي أمر المجيء إلى واشنطن. كذلك لم يخلُ الأمر من دعوات من جامعات ومؤسسات ثقافية.

الأمريكان، رغم ما نعلم من لؤمهم السياسي أحياناً ـ وقد رأينا مؤخراً ضرباً من ذلك اللؤم في تأييدهم الغبي للاعتداء الإسرائيلي على لبنان العزيز ـ إلا أن جامعاتهم والحق يقال، تتّبع نحو الكتّاب والشعراء والمبدعين عموماً سلوكاً لا مثيل لتحضّره واستنارته. لا توجد في العالم، جامعات تحتفي بهذا الصنف من الناس، كما تحتفي الجامعات الأمريكية.

من أمثلة هذا السلوك الجميل، أنهم يدعون الكاتب أو الشاعر، ويجعلونه أستاذاً زائراً لمدة عام أو عامين، فيتفرغ إلى عمله الإبداعي، ومن وقت إلى آخر يعمل محاضرة أو يعقد سيمناراً.

لا توجد جامعة عربية واحدة ـ حسب علمي ـ تفعل هذا. وفي العام الماضي، منحت جامعة شيكاغو العالم الحبر الدكتور إحسان عبّاس، الدكتوراه الفخرية. إن الواحد منا قد يغفر لأمريكا بعض آثامها في العالم العربي، لعمل مثل هذا.

كانت جامعة الخرطوم قبل مجيء هذا العهد، تسلك ذلك السلوك المتحضر. كانت من الجامعات القليلة في العالم العربي ـ وربما كانت الجامعة الوحيدة ـ التي تمنح دكتوراهات فخريّة. الآن، اللّه أعلم، لكنني أرجح أن الظلام الذي نزل على البلد، قد طمس ذلك البصيص من الضوء.

عشرات المبدعين العرب، استفادوا من سخاء الجامعات الأمريكية، منهم صديقنا يوسف إدريس رحمه اللّه. كانت عبقرية يوسف إدريس ومزاجه لا تتفقان مع المناخ الأمريكي، فيما أحسب، فظل رغم زياراته لأمريكا، يراها لا كما يشتهي الأمريكان ـ الأمريكان الرسميّون بالطبع. أما الشعب، فتلك قصة أخرى.

لم أعدم دعوة من هذه الجامعة أو تلك، فلم أستجب لها، لأن أمريكا لم تكن من البلاد التي تغريني زيارتها. وما كان ذلك عن جهل أو كراهية، فقد أحببت بعض كتابها وشعرائها ونقادها وفلاسفتها، إنما البلد في مجموعها لم تكن تعني لي شيئاً.

كنت أحب لو تيسّر لي أن أزور أمريكا اللاتينية مثلاً، خاصة البرازيل، علماً بأن معلوماتي عن ذلك الجزء من العالم كانت ـ وما تزال ـ أقل كثيراً من معلوماتي عن أمريكا.

وفي أول عهدي بإنجلترا بادرت إلى زيارة فرنسا والدنمارك. مفهوم أمر فرنسا، لكن لماذا الدنمارك؟

بلي، لبثت زمناً أتقلّب في البلاد، ولا أحس بأية رغبة في التحرك نحو الولايات المتحدة الأمريكية. ماذا يمكن أن يكون في أمريكا؟ تخيلتها يومئذ كأنها نسخة باهتة من العالم الأنجلوسكسوني الحقيقي

كما عرفناه في إنجلترا.

من الذي يترك لندن إلى نيويورك أو ديترويت أو حتى واشنطن؟ يقايض نهر (التمس) بأنهار ليس لأسمائها رنين. الهدسن والبتوماك واللّه أعلم ماذا. ربما استثنى نهر المسسبي، بسبب سحر الجنوب وروايات (وليم فولكنر) و(مارك توين).

ومنطقة البحيرات في إنجلترا بكل ما علق بها من ضباب رومانسي بسبب الشعراء الكبار الذين عاشوا حولها وتغنوا بها، أين منها بحيرات أمريكا بصناعاتها الثقيلة ودخانها وبؤسها؟

ماذا يمكن أن يكون في أمريكا؟ ها هنا منبع اللّغة الإنجليزية والثقافة والحضارة الأنجلوسكسونية الأصلية، وما أمريكا إلا صدى، مجرد صدى، من ذلك الصوت.

ثم في عام ١٩٦٠، أرسلتني هيئة الإذاعة البريطانية إلى نيويورك فوجدت مدينة مثل الكابوس ـ كما خيّل لي ـ أقامها خيال رجل أو رجال مجانين، وتأكد لي أسوأ ما تخيلته عن أمريكا.

بعد ذلك أتيحت لي فرصتان للعمل مع الأمم المتحدة في نيويورك فأبيتهما، وظللت قانعاً بنصيبي من الحضارة الغربية بإنجلترا وشيء من فرنسا. أما أمريكا، فماذا في أمريكا؟

طبعاً ـ ولأن الدّهر لا تنتهي دعاباته ـ فقد عشنا ورأينا إنجلترا، أصل العالم الأنجلو سكسوني، بسبيلها إلى أن تصبح بمثابة صدى لأمريكا، ونسخة باهتة منها.

كان منسي رحمه اللّه، حين أذكر له محاسن العيش مع الإنجليز يقول:

«يا شيخ بلا إنجليز بلا كلام فارغ. أصلك أنت ما تعرفش أمريكا. أنت بس تعال وحتشوف العجب».

■ ■ ■

جاء محمد إبراهيم الشوش من منفاه في (أدمنتُن) بكندا، فوجدته هو والفاتح إبراهيم أحمد في انتظاري في مطار (دالاس) بواشنطن. اتفقنا من قبل، على اللقاء، وحضور اجتماعات (مؤتمر الدراسات السودانية) معاً، والتجوّل في واشنطن، والضحك من نوادر الشوش. إنه يضحك منذ أن يستيقظ حتى ينام. ليس من السعادة، ولكن من حدّة الذكاء، وشدة الحزن.

سوف نسمع غناء كثيراً من سودانيي الشتات، في الحنين إلى الوطن والحسرة على فراقه. سوف تغني هادية طلسم:

نلْقَى وين طيبةْ أَهَلْنا
أو وطن يشبه وطنّا
نحن واللّه ظلمنا روحنا
لمّا هاجرنا ورحلْنا.

وسوف يغنّي يوسف الموصلي من كلمات الشاعر الكتيّابي، أغنية مريرة يخاطب فيها الوطن:

وأشوف قرشك يسير في السوق

وأشوف قطنك ملاية على البحر والبر
كفن لي من كتف خيلك
سرق خيرَك
ولا خلّى الصغير يكبر
ولا خلّى القليل يكتر
ولا يابس ولا أخضر.

والكتيّاب، هم عشيرة الشاعر العبقري التجاني يوسف بشير، رحمه اللّه، فلا عجب!

كان خروجي من لندن سهلاً، اللّهم إلّا من الفحص المتعسّف من قبل خطوط الـ(يونايتد) الأمريكية. يفرغون حقيبتك من محتوياتها كلها، ويفتحون قارورات الدواء، وأدوات الحلاقة وأنبوب معجون الأسنان. ثم يأخذون الحقيبة ليكشفوا عليها بأشعة (إكس).

قلت للموطف:
«ألا ترى أنها من المشمع، ليس فيها طيّات يمكن أن يُدَسّ فيها أي شيء مما تبحثون عنه؟».

قال بذلك الصوت الذي يلجأ إليه الموظفون حين يعُوزهم المنطق:
«هذه أوامر فدرالية».

قلت له:
«ولكن ألا تظن أن الأوامر يمكن أن تنفذ بشيء من التصرف؟».

قصة تنفيذ الأوامر دون تفكير، قصة لعلّي أتعرض لها في المستقبل،

فقد أسعدني أنني وجدت في إحدى مكتبات واشنطن، كتاباً ظللت أبحث عنه زمناً في لندن ولا أجده. كتاب الفيلسوفة الأمريكية (حنّا أرنْدت) ـ (آيخمان في القدس).

كنت قد قرأته أول صدوره عام ثلاثة وستين، إنما هو من الكتب التي تحب أن تقرأها أكثر من مرّة.

كانت (حنا أرندت)، وهي من أصل يهوديّ ألمانيّ، معروفة بعدائها للصهيونية. وحين اختطفت الحكومة الإسرائيلية (أدولف آيخمان) من مخبئه في الأرجنتين، وأخذوه وقدّموه للمحاكمة، على أنه نموذج رجيم لإنسان شرير أشرف على إبادة ملايين اليهود، ذهبت (حنا أرندت) إلى القدس، ثم أصدرت انطباعاتها عن المحاكمة في هذا الكتاب الذي وصفته بأنه «تقرير عن الطبيعة العادية للشر».

ظهر في المحاكمة أن (آيخمان)، رغم كلّ الفظائع التي ارتكبها، وهو أمر لم ينكره، تصرّف كأي (موظف عادي)، ينفذ أوامر رؤسائه. وقالت:

«تلك كانت طبيعة الأشياء. كل ما اجترحه من إثم، إنما فعله تنفيذاً لأوامر الفوهرر. كل ما فعله، فعله بوصفه موظفاً مطيعاً لأوامر رؤسائه».

سبقها إلى ذلك المؤرخ الإنجليزي الفذ (جي. بي. تيلور) الذي قال في كتابه (أسباب نشوب الحرب العالمية الثانية) أن هتلر لم يكن (شيطاناً عبقرياً)، ولكنه كان زعيماً عادياً استفاد من أخطاء الآخرين.

ذلك الكتاب أسخط اليهود سخطاً شديداً. أما كتاب (حنّا أرندت)، فقد جُن له جنونهم. ذلك لأنها يهودية، ولأنها وصفت أعظم مأساة حاقت بهم في تاريخهم المأساوي، أنها كانت «في طبيعة الأشياء».

هذا، وقد كان دخولي الفردوس الأمريكي هذه المرة، أسهل مما توقعت. ختمت الضابطة جوازي فوراً ومدته إلي. امرأة (بيضاء) نصف، طيبة الوجه، كأنها جلست في ذلك المكان عن طريق الخطأ.

قلت لها:
«أهذا كل ما في الأمر؟».
«نعم».
«ألا تريدون بصماتي؟».
قالت مبتسمة:
«إنهم أخذوها في زيارتك السابقة. أليس كذلك؟».

يسميه الدكتور الشوش (الفردوس الموبوء). المكتبات عامرة بالكتب، والمحلات التجارية ملأى بالسلع، والشوارع والزحام والعمارات والعلم والتكنولوجيا. وقنوات التلفزيون ـ وهي فوق المائة ـ تعرض برامج لنساء يعاشرن نساء، ورجال يطلبون أن يصدر قانون يبيح لهم زواج رجال. أبناء يضربون أمهاتهم، وآباء يقتلون أبناءهم. وهم على وجه العموم قوم طيبون، حسنو المعشر، دائمو الابتسام.

هذا، وقد غنّى يوسف الموصلي بصوته العذب، عن سودان الإنقاذ والبؤس والشتات:
في دبابة... في دبابه

عاد لمتين في دبابه؟
أسارك كل ما طوّلْ
كؤوسك جفّت أكوابَهْ

■ ■ ■

لم تكن (كارولاين لوبان) موجودة في مؤتمر جمعية الدراسات السودانية هذا العام. أخبرنا زوجها (رتشارد)، أنها تشارك في رحلة دراسية تأخذ عاماً كاملاً، على ظهر سفينة تطوف بهم حول العالم.

سوف يجدون بلا شك، متعة السياحة، وفائدة الدراسة، ولذة عمل الخير، لأن السفينة تحمل نخبة، بينهم الأستاذ والباحث والمتخصص الذي يريد أن يطلع على تخصصات أخرى. تقف بهم على محطات في الطريق، فيتعرّفون على أهلها، ويعقدون فصولاً وندوات في جامعاتها. يفيدون ويستفيدون.

أليس ذلك ابتكاراً جميلاً جادت به قريحة الأمريكان؟ إنهم رغم لؤمهم السياسي أحياناً، ذوو قرائح وقادة. يا ليت شخصاً أو مؤسسة أو حكومة في ديارنا العامرة تأخذ به. ألا يكون شيئاً رائعاً، لو أن جامعة الدول العربية (جامعة السجم والرماد، كما نقول بلهجتنا)، استأجرت سفينة، ووضعت عليها ثلاثين أو خمسين... أو مائة، من أكاديمي وباحث ومفكر وشاعر وكاتب وصحافي وغيرهم. تقوم السفينة من طنجة، وتعرّج على الجزائر وتونس وبنغازي والإسكندرية وجدّه وبور سودان وعدن، ثم تدخل في غيابات الخليج ومتاهات العقل العربي.

تكون بمثابة (ثنْك تانك ـ خزّان أفكار) عائم. يدخل المسافرون في حوارات عميقة مفتوحة عن بعض القضايا التي.. (ماذا تفعل القضايا بالأمة العربية؟ تقضّ مضجعها؟ تؤرّق عينها؟ تعكّر صفوها؟ تكدّر عيشها؟ تحرّك نخوتها؟) وأيضاً يخرج الأساتذة المسافرون، فيتعرفون على المدن العربية التي ترسو سفينتهم عندها، ويعقدون الندوات ويعطون المحاضرات في جامعاتها فيستفيدون ويفيدون.

رعا الله صديقنا العالم الجيولوجي الشاعر الأديب الدكتور درويش مصطفى الفار في معقله في الدوحة. ظل زمناً يعرض أفكاراً كهذه في عمود يكتبه في صحيفة «الراية» القطرية. لم يترك شيئاً إلا أحصاه. أفكار عظيمة، كل فكرة منها تحيي بلداً ميتاً. ولا حياة لمن تنادي.

كنت أقول له:
«يا شيخ العرب! ـ كذلك كنت أناديه لأنه من العريش ـ الى متى تظل تنفخ في هذه القربة المقطوعة؟».

يضحك كما يضحك أهل العريش، إن كنت خبرتهم، ويقول:
«إلى أن يأتي الله بالفرج. ولن أملّ حتى يملّوا».

أجل. غابت (كارولاين لوبان) عن مؤتمر الدراسات السودانية هذا العام، وكان غيابها ملحوظاً، فهي وزوجها، وهما أستاذان في جامعة (رود آيلند)، من الطاقات المحركة في (جمعية الدراسات السودانية).

أعطياها من جهدهما ووقتهما، ويرجع إليهما أكبر الفضل في نشأة الجمعية وازدهارها. كل ذلك بدافع الحب للسودان وأهله.

أيام عز جامعة الخرطوم، كان يفد إليها دارسون من شتّى أنحاء العالم. من طوكيو إلى سان فرانسيسكو، ومن ستكهولم إلى ديربان، يجيئون بغرض التحضير لنيل شهادات الدكتوراه في جامعاتهم، عن جوانب من تاريخ السودان وشعوبه وبيئاته. كلّهم عادوا، وهم يحملون وداً عظيماً للسودان. وفضلهم لا ينكر في إيضاح جوانب ظلت غامضة من تاريخ السودان وشعوبه ومناخاته.

أذكر منهم على سبيل المثال، العالم الأمريكي (جيْ سبولدنج) ـ وهو مشارك في هذا المؤتمر ـ الذي تعمّق في دراسة تاريخ (مملكة سنّار)، وأصدر عنها كتاباً ثبتاً، لا يوجد له مثيل في سعته وشموله، ويزيد من إكبارنا لهذا العالم، أن المؤرخين السودانيين، لم يولوا الحقبة السنارية حقها من العناية فقد انصرف أغلبهم إلى دراسة الحقبة المهدية، لقرب عهدها، وتوفر مصادرها. وكذلك الحقبة الاستعمارية. إنما غاية الفضل فيما ناله السودان من عناية هؤلاء الدارسين الأجانب، لا بد أن يعود إلى الرجل الذي لا تلد النساء كثيرين أمثاله، المرحوم بروفسور محمد عمر بشير، مات مقاتلاً في سبيل العلم حتى آخر رمق، ولم يطاوعني قلمي على رثائه، فقد كان فقده، من ذلك القبيل، الذي يُلجم الألسن، ويخرس الأقلام. كان عالماً رحباً تولّى، فكيف ترثي عالماً بأكمله؟

أيام كان مسؤولاً عن الدراسات العليا في جامعة الخرطوم، كان هو الذي يوجه مسار هؤلاء الدارسين الأجانب. هذا إلى دارفور، وهذا الى كردفان، وهذه الى البحر الأحمر، وهذا إلى الجنوب، وهذا إلى الجزيرة. وقد وجه (كارولاين لوبان) إلى منطقة الشايقية في الشمال، فأقامت هنالك زمناً، بين كريمه ونوري ومروى.

تغلغلت إلى أعمق أعماق حياة الناس. أكلت الكسرة بالويكه والمرارة بالشطّة. شربت ماء النيل العكر في الجروف. لبست (ثوب الزّراق) و(فركة القرمصيص). غنّت ورقصت مع النساء في الأعراس. ركبت الحمير وسفن الشراع. سارت (شايقية) محضاً.

أحبها الناس إلى حد أنهم أسموها (مهيرة)، على اسم فارستهم (مهيرة بت عبّود)، التي تصدّت لجيوش الأتراك، وأظهرت بسالة في الحرب أزرت ببسالة الرجال.

ويا أكرم الله تلك الرحم التي لا تكفّ عن العطاء. انطوت صفحة (مهيرة بتْ عبود) في ديار الشايقية، فولدت رحم الأمة الولود، مهيرة أخرى في أم درمان. تلكم هي فاطمة أحمد إبراهيم وكفى. صاحبة الصولات في البرلمان، حاملة لواء الحرية في تشرين الأول/أكتوبر ونيسان/أبريل.

يكفي أن تقول فاطمة أحمد إبراهيم. إلا أن الله سبحانه وتعالى، بقدر ما أنزل بها من الفواجع، فقد أهال عليها فخاراً فوق فخار، فهي زوجة الشفيع أحمد الشيخ، فارس حرمات الوغى وفتى فتيان الجعليين. أضاعه النميري قبل أن تغرق سفينته بقليل. وأخوها المرحوم صلاح أحمد إبراهيم، صاحب (غابة الأبنوس)، حيث يقول:

أنا في أفريقيا صحرائها الكبرى وخط الاستواء.
اليوم جاء من يقول لنا لسنا أفارقة. إذاً من نكون؟

تزوج ابنها أحمد الشفيع في لندن ففرح السودانيون لذلك أي فرح، كأن انتفاضة رجب المباركة، قد هلّت من جديد، وقلنا لعله يكون

فألاً حسناً ينهي أحزان هذه السيدة النبيلة.

كان عشاء العرس، سندوتشات الفول المدمّس. وقالت فاطمة في كلمتها، أن أهل العروس تنازلوا عن الصداق، مؤخّره ومقدّمه، وأن العرس كلّه لم يكلفها شيئاً، فقد قام به الأهل والجبّان، وأنها تعمدت أن تقدم طعاماً بسيطاً في العشاء، مراعاة لظروف الوطن، وعسى أن (يختشي) الآباء الذين يزوّجون أبناءهم وبناتهم ببذخ واستهتار، فيغلّون المهور ويجلبون الطعام الفاخر بالطائرات.

بلى، أحبت (كارولاين لوبان) السودان وأهله حبّاً يجعلنا نحن مواطنيه نحس بالتقصير. في (بوسطن)، هالتها دعوة بعض الجنوبيين إلى الانفصال. كانت الدموع تسيل على خديها وهي تلقي محاضرتها. لم تكد تقوى على الحديث. قالت إنها عرفت سوداناً واحداً. وأحبت سوداناً واحداً.

■ ■ ■

اعتدنا في هذه المؤتمرات، أن يطلع لنا (شقيق) جنوبي أو أكثر، يتلو علينا تهماً ممجوجة، كيف أن العرب الشماليين استعبدوا الجنوبيين وهضموا حقوقهم واسترقّوهم. وهم (أشقاء)، كما قال الحسن بن هانئ عفا الله عنه:

كمُن الشنآنُ فيه لنا
ككمُون النّار في حجره

أعجب ما في الأمر، أنهم يرون الفيل ويطعنون ظلّه، كما نقول في أمثالنا. لم نسمع أو نقرأ لأحد منهم، يحقد على الاستعمار الأوروبي أو الاستعمار الإنجليزي.

حكم الإنجليز السودان قرابة ستين عاماً، واتّبعوا أول عهدهم أساليب من البطش والاستبداد، في الجنوب كما في الشمال، حتّى دان لهم القطر بشقّيه. وكان في الجنوب حاكم إنجليزي يدعى (ميجور كوك)، كانوا يضربون به المثل في الفظاظة، فكانوا يقولون:
«زمن ميجور كوك. زمن يخيِّشوا ناس».

أي يضعون الإنسان في كيس الخيش ويربطون عليه.

لم يفصلوا الجنوب، كما كانوا ينوون أول عهدهم، ولم يوحِّدوه توحيداً بيّناً. وتركوا أمر التعليم للإرساليات التبشريّة، تفعل ما تشاء وتزرع بذور العداوة والبغضاء.

كنتُ أحد طلبة مدرسة (وادي سيدنا) الثانويّة الذين زاروا الجنوب عام ١٩٤٨. كانت تلك أول مرّة يسمحون فيها لطلبة شماليّين بزيارة الجنوب. وكان ذلك بقرار من الحاكم العام.

وجدنا حيث حللنا في الجنوب، صبية في سننا، قد أُوغرت صدورهم، ومُلئت حقداً على العرب والمسلمين.

أما دور الاستعمار الأوروبيّ في تجارة الرقيق، فأمره معروف. لقد أثبتت المصادر الأوروبية نفسها، أن الأوروبيين ـ من إنجليز وفرنسيين وبرتغاليين وإسبان وهولنديين وحتى أمريكان ـ رحلو إلى الأمريكتين

ما يقدّر في بعض المصادر بخمسين مليون أفريقي. وكان الوسطاء في تلك التجارة المعلومة، من الأفارقة السود أنفسهم.

لا يذكرون هذا، ولكنهم لا يملّون من تذكيرنا بالزبير باشا. إنما الزبير باشا لم يكن ـ ولم يكن تبوتب العماني ـ تاجر رقيق. كان طالب مُلك. وقد أسّس دولة امتدت من تشاد حتى بحر الغزال. وكادت تبقى لولا التدخل الأوروبي. وكذلك كان الحال مع تبوتب في الكنغو.

كان كبار قوّاد الزبير من (الزّنج). وكان نائبه والرجل الثاني في دولته رابح، الذي ظن كثيرون أنه ابنه لشدّة ما قرّبه إليه، فسموه (رابح الزبير). وهو لم يكن شمالياً، بل جنوبياً من أعالي النيل.

كان الجنوبيون أخفّ وطأة في مؤتمر (جمعية الدراسات السودانية) هذا. جاءتنا الاتهامات هذه المرة من جهة لم تكن في الحسبان، وقد كان في البرنامج محاضرة لجنوبي اسمه (آمبروز بني) عنوانها: «التنكّر لأفريقيا في أعمال الطيب صالح ـ موسم الهجرة إلى الشمال وأزمة الهوية في السودان».

كنت متشوّقاً أن أسمع رأيه، لكنه لسبب ما أحجم عن تقديم محاضرته في آخر لحظة. لقيته لقاء عابراً، فوجدت رجلاً مكفهر الوجه محمر العينين كأنه يصارع كابوساً. قلت له:

«من أين جئت بهذا الزعم أنني تنكّرت لأفريقيا؟ وكيف أفعل وأنا أفريقي؟ هل يستطيع كاتب غير أفريقي أن يكتب رواية موسم الهجرة إلى الشمال؟».

لكنني وجدت من العبث محاورته، فقد طوى ضلوعه على ضغن لا يريد أن يتخلّى عنه. والضغن لدى بعض الناس مثل الحب، يملأ عليهم حياتهم ويعطيهم معنى لوجودهم.

من حسن الحظ أن الجنوبيين ليسوا كلهم مثل (آمبروز بني). بل إن منهم أناساً الواحد منهم (تضعه على الجرح فيبرأ)، كما يقول المثل السودانيّ.

من هؤلاء الرجل الفاضل بحق (أبل ألير) الذي لو انتُخب رئيساً للجمهورية لما وجد أي شمالي غضاضة في ذلك. فيه شيء من روح (نلسن مانديلاّ) العظيم.

هؤلاء يدركون أن الجنوبيين لم يكونوا وحدهم ضحايا الحكومات العسكرية التي تعاقبت على السودان ـ ولا ينكر أحد أن تلك الحكومات بما فيها هذا العهد الماثل ارتكبت أخطاء فادحة في الجنوب. إنهم يفهمون أن الشماليين أيضاً كانوا ضحايا العسف والقهر والاستبداد. لم تترفق تلك الحكومات بالشمال، لأنها شمالية. بل لعلّها أمعنت في هوانهم، كما القريب قد يظلم القريب.

وحقيقة الأمر أن الشماليين حملوا أكبر العبء في التصدي لجبروت الحكم التركي، ثم فظاظات الخليفة عبد اللّه أواخر العهد المهدي، ثم صلف الإنجليز أول عهدهم، وأخيراً ظلم ذوي القربى من الحكومات العسكرية المتعاقبة.

إنما بعض الجنوبيين يريدون أن يستأثروا بدور الضحية، لأن في

أمريكا وأوروبا دائماً أناساً يطلبون (ضحية) يسعدهم أن يعطفوا عليها، حتى لو كانوا هم السبب في كون (الضحية) ضحية أصلاً.

■ ■ ■

كأنّ الزمان فجأة أصابه الخَبَل.
نشأنا في الثلاثينيات والأربعينيات، وحتى الستينيات، ونحن لا نفرّق بين العربيّ والنوبي والبجاوي والزنجي، نميّز هذا من ذاك، ولكن التمييز لا يحمل وراءه كرهاً أو احتقاراً.

كان السوداني يسافر من وادي حلفا في أقصى الشمال، إلى تخوم الجنوب وراء كوستي، ومن بور سودان في الشرق إلى نيالا في الغرب، فيجد حيثما حلّ أقواماً لا يختلفون سطحية في السلوك ونمط العيش. يفهم لغتهم، ويأكل طعامهم ويصلّي معهم في مساجدهم.

وحتى غير المسلمين، كانوا ينخرطون ببساطة في نسيج الحياة، فلا تكاد تميّز بين المسلم وغير المسلم. وكان عندنا في بلدتنا في منطقة الشمال الأوسط ـ وما يزالون ـ طائفة من القبط الذين هاجروا قديماً من مصر. كانوا في أزيائهم وحديثهم وأسلوب حياتهم، لا يختلفون عن سائر الناس، يحضرون الأعراس، ويشيّعون الجنائز، ويجلسون في المآتم مع المسلمين. لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من أعراف أهل البلد. فقط يفرّق بينهم الموت. حينئذ يدفن الواحد منهم في مقبرة منفصلة عن مقابر المسلمين.

إخواننا في شرعة الحياة، ولكن نحن لنا ديننا، وهم لهم دينهم.

وفي مؤتمر (جمعية الدراسات السودانية) هذا، أعطانا الباحث الأمريكي الدكتور (روبرت كريمر) محاضرة كانت بمثابة تكريس رائع، لذلك الأسلوب الفريد الذي اتخذه المجتمع السودانيّ المسلم إزاء الأقليات غير المسلمة.

كانت المحاضرة عن عائلة سودانية، يهودية عُرفت باسم (بسيوني). كان عميد الأسرة، واسمه (موسى بن صهيون) من طائفة اليهود السفرديم في فلسطين. هُجر إلى السودان في القرن الماضي إبان الحكم التركي، واستقر في الخرطوم، وعمل في التجارة، وكوّن لنفسه مركزاً ونفوذاً، وكان سبباً في أنه جذب إلى السودان عدداً من العوائل اليهوديّة، من مصر وتركيا وفلسطين.

أصبح (بن صهيون) عميداً للجالية اليهودية، وتأسس على يديه أول معبد لليهود في السودان، كما صارت لهم مقبرة منفصلة.

ولما انتصرت الثورة المهدية، وأجْلت الحكم التركي عن السودان، اعتنق بن صهيون الإسلام، كما فعل سائر اليهود والقبط. غيّروا اسمه إلى (بسيوني)، وأعطوه لقب (أمير) فظل مشرفاً على الجالية اليهودية، الذين تجمعوا في حيّ (المسالمة) بأم درمان، وهو حيّ خصّص للجاليات التي دخلت في الإسلام من يهود وقبط، وما يزال موجوداً إلى اليوم.

ذلك الحيّ، كان له دور لا يستهان به في تاريخ مدينة أم درمان، وفي تاريخ الحركة الفنية والثقافية في السودان. منه خرج الشاعر الغنائي الفذ (أبو صلاح) والأديب المرحوم مبارك إبراهيم، الذي صحب الشاعر العبقري التجاني يوسف بشير، وكان مرجعاً في أخباره وشعره.

تزوج موسى بسيوني أول عهده يهوديّة من أزمير. ثم في عام ١٨٦٠، تزوج من سودانية من أصول قبطية مصرية وجعلية سودانيّة، عرفها أهل أم درمان باسم (ست المنّا) وكانت مشهورة ومحبوبة لديهم. وقد ولدت لبسيوني سائر أبنائه وبناته ويرجحون أنها كانت على الإسلام.

على أثر انهيار الحكم المهدي، واستتباب الأمر للحكم الاستعماري البريطاني، ارتدّ بعض اليهود وبعض القبط، وظلّ آخرون متمسكين بعقيدتهم الإسلامية، والراجح أن بسيوني ظلّ متمسكاً بالإسلام.

وقد عرف السودانيون المعاصرون ابنه، داءود بسيوني، الذي كان من كبار موظفي الدولة أيام الإنجليز، واستمر كذلك في العهود الوطنيّة إلى أن بلغ سن التقاعد.

أذكر أنني زرته مع صديق لي أوائل الثمانينيات ولم أكن أعرفه من قبل. كان الوقت وقت عيد أضحى فوجدناهم قد ضحوا كسائر المسلمين. ووجدنا داءود بسيوني يقرأ في مصحف قال لنا إنه نقله بخط يده.

كان رجلاً حظي باحترام كبير في أوساط (العاصمة المثلثة)، وحين توفي عام ٨٧، شيّعه جمع غفير من الناس، ووقف على قبره عدد كبير من أقربائه، كانوا خليطاً عجيباً، منهم المسلم والنصرانيّ واليهوديّ.

هكذا كان السودان في ذلك الزمن المعتدل المُسامح.

كان المسلمون يدعون إلى دينهم بالكلمة الطيّبة والموعظة الحسنة

والصدق في المعاملة، ويقبلون الآخرين على علاّتهم. وكان الجنوبيون يدخلون في الإسلام طواعية بالمئات، وأحياناً بالآلاف، وذلك بواسطة التجار الشماليين، الذين كانوا يتسلّلون إلى الجنوب، رغم الحواجز التي أقامها الإنجليز. وكذلك أدخلوا اللغة العربية، التي انتشرت حتى أصبحت هي لغة التخاطب في الجنوب.

لم يحتج الأمر إلى جيوش وقهر وبطش.

اليوم يبدو الزمان كأنه قد أصيب بالجنون، أو كاد. وجنون الزمان ليس غير جنون البشر. أخذ أناس لم يساورهم أيّ شك من قبل، يسألون من هم، ومن أين جاءوا، وما هي (هويّتهم).

في هذا المؤتمر ظهر لنا شاب من منطقة النُّوبة في أقصى الشمال، من حيث دخل العرب المسلمون بلاد السودان منذ قرابة أربعة عشر قرناً. ظل يردد بمناسبة وبلا مناسبة، كيف أنّ العرب قهروا شعب النوّبة، وقضوا على حضارته، وطمسوا (هويته)!

■ ■ ■

في زيارتي هذه إلى واشنطن، قرأت كتاباً من هذه الكتب، التي حين تفرغ منها، تبدو لك الأشياء غير الأشياء.

كنت قد قرأته منذ سنوات، في حَمْأة الجهالة، حين يكون الإقبال على المعرفة مثل الإقبال على الجهل. كالذي يأكل دون أن يهضم، أو يسمع دون أن يفهم. ولا أذكر أنه ترك أثراً في نفسي، اللّهم إلا إحساساً خافتاً بالرغبة في العودة إلى مكان زُرتَه، وتعلم أنه جميل، لكنك لم تتبين جماله. ثم وأنا أعدّ حقيبتي للسفر، إذا بهذا الكتاب

يبرز لي من بين الأرفف، يكاد يقفز من مكانه. قراءة الكتب، وصداقة البشر، والوقوع في الحب، كلّ ذلك بقَدَر.

فرغت من قراءته في دار الفاتح إبراهيم أحمد. وربّما بسبب صحبته الذكيّة الخيّرة هو والشوش، والمنظر الجميل من الطابق الثاني عشر، حيث شُرفة الفاتح تطل عى الغابات والعشب والغدران في فرجينيا، والأضواء البعيدة بالليل، وأحوال الغيْم والنور في سماء واشنطن وما حولها أول الصيف. بسبب كل ذلك، حين فرغت من الكتاب، فكأنني زرت تخوماً عجيبة لم أزُرها من قبل.

الكتاب هو (العهد الملكيّ والثورة) لـ (ألكسي دي توكفيل) الذي يشرح فيه العوامل التي أدت إلى القيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩.

كان (دي توكفيل) من طبقة النبلاء، وكان عضواً في البرلمان عام ١٨٣٩، وصار وزيراً للخارجية عام ١٨٤٩. ولمّا استولى (لوي نابليون) ـ نابليون الثالث ـ على الحكم، عزله من منصبه، ثم أدخله السجن فترة، لأنه رفض أن يُعلن ولاءه للعهد الجديد. وفي عام ١٨٥٦، أصدر هذا الكتاب، الّذي جلب له شهرة لم تخفُت حتى اليوم.

كان كاتباً بارعاً، ومفكراً بعيد الغور، ومؤرّخاً منصفاً، وإنساناً عاشقاً للحرية والإنسانية.

وأحب أن أعطي القارئ شيئاً من مذاق هذا الكتاب العظيم، في هذه الفقرة التي يصف فيها (دي توكفيل) الشعب الفرنسي:

«... حين أتمعّن تلك الأمة في حدّ ذاتها، لا أملك إلّا أن أعترف، بأنها أدعى للعجب من أي حدث مُفرد من أحداث تاريخها. هل ظهرت أمة أخرى على وجه الأرض، في مثل خصوبة مفارقاتها وتطرّف أفعالها؟

أُمة تتحكّم فيها العواطف أكثر من المبادئ. دائماً أحسن وأسوأ مما يُتوقع منها. بينما تراها تبلغ حداً من الحقارة تحت مستوى الإنسانية، إذا هي فجأة تبلغ من السمو حداً فوق مستوى الإنسانية بمراحل. سماتها راسخة بحيث تستطيع أن تتعرّف عليها من صور رُسمت لها قبل ثلاثة آلاف عام، ولكنها في الوقت نفسه متقلّبة في نزواتها وأهوائها إلى حدّ أنها تصبح لغزاً أمام نفسها.

تنظر الأمة إلى أفعالها وتحسّ بالدهشة كما يحسّ بها الغرباء.

شعب ينزع إلى الحياة الأسريّة المستقرة، والعادات المألوفة المكرّرة، ولكنه حين يُقبل على التغيير، فهو مستعد أن يذهب إلى أقصى الحدود، ويغامر بلا حساب.

شعب صعب المراس بطبيعته، ولكنه يؤثر الخضوع للاستبداد والعنف، على أن يحكم حكماً حرّاً بواسطة ممثلين ينتخبهم بمحض إرادته. أحياناً ينفر من التسلّط، وأحياناً يخضع بحيث لا يشبهه شعب آخر في خضوعه.

شعب تقوده بخيط واه إذا كانت الأمور هادئة، ولكن إذا ارتفعت رايات الثورة، فما من حاكم يستطيع أن يسيطر عليه. دائماً يخدع سادته، الذين يهابونه أكثر مما يجب، وأقل مما يجب...

شعب مؤهّل لأعظم الغايات، ولكنه لا يُحسن أي عمل غير الحرب. يهيم بالمغامرة والقوّة والنجاح والبهرج والضوضاء، ويؤثرها على السعي الدؤوب لإحراز المجد الحقيقي.

شعب موهوب، ولكنه وُهب حب البطولة أكثر مما وهب حب الفضيلة، وأعطي العبقرية أكثر مما أعطي الحكمة. ينساق وراء الأحلام الكبيرة الخادعة، ولا يصبر على الجهد المُضنّي لتحقيق الإنجازات العظيمة.

أروع أُمة وأخطر أمة في أوروبا، وأكثر الأمم إثارة للإعجاب والكراهية والخوف والشفقة. لكنها أبداً لا تُقابل بعدم الاكتراث.

لا توجد أُمة إلا هذه، تستطيع أن تلد ثورة كالثورة الفرنسية، في مباغتتها وتهوّرها وجيشانها. ثورة مليئة بالعثَرات والتناقضات والأعمال المتضاربة.

لم يكن الفرنسيون يستطيعون القيام بتلك الثورة إلّا للأسباب التي شرحتُها، ولكن لا بد من القول أيضاً، أن تلك الأسباب لا تكفي لتبرير تلك الثورة إلّا في فرنسا».

■ ■ ■

نجاح هذه الدورة من مؤتمر الدراسات السودانية ـ وقد كان مؤتمراً ناجحاً رغم أي شيء ـ يعود في معظمه إلى رئيسه الحالي، الدكتور أحمد الأمين البشير. عمل بمهارة فائقة على إشاعة المرح وتهدئة الخواطر وإزالة التوتر. وقد أتاح مجالاً واسعاً للحوار وتبادل الآراء،

وأضاف بُعداً فنياً لم يوجد في المؤتمرات السابقة، فخصص جلسة كاملة لتقديم رقصات شعبية وعروض موسيقية.

أدار الدكتور محمد إبراهيم الشوش تلك الجلسة الختامية، فأظهر من البراعة والذكاء وخفة الروح، ما جعل الناس ينفضّون عن ذلك المؤتمر، وهم أقلّ حزناً وهمّاً مما تحتّمه الظروف.

الدكتور أحمد الأمين البشير أستاذ لتاريخ الحضارات بجامعة واشنطن، لذلك فهو معتاد على النظر إلى تقلّب أحوال السياسة نظرة تأخذ في الاعتبار عوامل المدّ والجزر في حركة التاريخ على مساحات شاسعة. وهو يرى من هذا المنطلق، أن ما يحدث في السودان اليوم، رغم كلّ العناء والشقاء، فهو أمر لا مفر منه في حركة النموّ والتحوّل.

بعبارات أخرى، لعلّ وراء ما نرى من ضوائق وعنت في العيش وإجحاف من السلطات وخلخلة في بنية المجتمع ربما لم يسبق لها مثيل منذ ما يربو عن قرن ـ لعل تحت كل هذا شيئاً مدهشاً يتكوّن، وأن المجتمع في حقيقته لا يسير إلى الخلف ولكنه يسير إلى الأمام.

هذه نظرة فيها عزاء عظيم، وأنا شخصيّاً أحبّ أن أصدّقها. وهي تناسب مزاجي بوصفي كاتباً روائياً، أبداً يحاول أن يستشرف ما وراء الجبل، وفي حلكة الظلام، يجهد أن يتميز بَصْبَاص الضوء.

الكاتب الروائي ـ في ظنّي ـ أقرب ما يكون إلى المؤرّخ. وقد

أعجبني ـ على سبيل المثال ـ حديث البروفسور حسن أحمد إبراهيم عن فترة الحكم التركي في السودان (١٨٢١ ـ ١٨٨٥).

الدكتور حسن من الجيل الثالث من المؤرخين السودانيين المعاصرين، وكان إلى عهد قريب أستاذاً للتاريخ في جامعة الخرطوم، حيث كانت له مساهمات علمية ذات أثر، وهو الآن أستاذ في جامعة ماليزيا الإسلامية، وخروجه من جامعة الخرطوم خسارة كبيرة.

خلُص في بحثه، إلى أن فترة الحكم التركي، رغم أنها اتسمت بالفساد وسوء الإدارة والاستبداد، فإنها لم تكن شرّاً خالصاً.

وحّدت السودان ضمن حدوده الحالية إلى حد كبير، وبدأت عملية التحديث، وفتحت البلاد للمؤثرات الأوروبية، وساعدت على انتشار الإسلام في أطراف القطر خاصة في الجنوب.

ومن الطريف أن نعرف رأي رجل مثل الزبير باشا (ودْ رحمه) عن الحكم التركي، فقد تعامل معهم، وتصادم بهم، وأتعبهم وأتعبوه وخذلوه في نهاية الأمر. ولا يوجد سبب يجعله يحسن الظن بالأتراك.

من حسن الصدف أنني وجدت بين الكتب المعروضة في المؤتمر، كتاباً عنوانه (الزبير باشا يروي قصة حياته في منفاه بجبل طارق). وهو عبارة عن مقابلة طويلة عملتها معه صحافية بريطانية اسمها (فلورا شو) عام ١٨٨٧، بعد أن نفته السلطات الإنجليزية إلى جبل طارق.

هذه المقابلة تعدّ من الوثائق الهامة عن حياة هذا الرجل المقدام المغامر المثير للجدل. وقد ترجمها الأستاذ خليفة عبّاس العبيد، الذي كان من الرعيل الأول من السفراء في الخارجية السودانية. وهو من عشيرة الزبير ومتزوج من حفيدته، وقد صدر الكتاب عن مركز الدراسات السودانية بالقاهرة، الذي يشرف عليه العالم السوداني الدكتور حيدر إبراهيم. وفي الكتاب بالإضافة إلى المقابلة، معلومات عن حياة الزبير، ووثائق ورسائل.

وفيما يلي، يتحدث الزبير عن رجل يُدعى إسماعيل أيوب، عينته الحكومة التركية والياً على إقليم دارفور بعد أن فتحه الزبير، وكان يؤمل أن يقرّوه والياً عليه:

«... لكن إسماعيل أيوب لم يستمع لصوت العقل.. لم يكن يصلح أن يكون حاكماً لأنه لم تكن لديه أي فكرة عن الناس الذين يحكمهم أو أي شفقة أو عطف.. لم يشأ أن يغرس البذرة في التربة ويزرع بأناة وصبر، بل أراد أن يكتنز كل المحاصيل ليكنسها كنساً ويذهب بها.

كان ما فعله أشبه بجني الحنطة وهي ما تزال خضراء غير ناضجة، فدمّر البلاد من أجل أن يحقق لنفسه قليلاً من الثراء. وهكذا كان الحال مع حكّام السودان أبداً. ولو أنه أحسن حكم ذلك المركز لكان من المحتمل أن يصير خزانة لمصر.. ولهذا السبب فإنه لن يكون من الممكن للحكومة التركية الاحتفاظ بالسودان.

لكن لا أريدك أن تظني أن الحكم التركي كان حكماً سيئاً كله... كان فيه بعض الخير... عندما فتح الأتراك البلاد كانت متخلّفة

جداً. لم تكن بها أية طرق وكان من المستحيل على التجّار التنقّل.

العمل الجميل الذي قامت به الحكومة التركية هو فتحها للطرق. العمل السيئ هو جشع الموظفين وغشهم للأهالي وظلمهم. لكن الطرق تبقى... وتبقى أيضاً عادة التجارة وتستمر...».

■ ■ ■

في حفل العشاء الذي أقامه مؤتمر جمعية الدراسات السودانية، كان الخطيب هو (مستر هيوم هوران ـ Hume-Horan)، أحد السفراء السابقين للولايات المتحدة في السودان. مثّل بلاده أواخر عهد الرئيس النميري وأيّام الحكومة الانتقالية برئاسة عبد الرحمن سوار الذهب، ثم في العهد الديموقراطي الذي أعقبها حين كان السيد الصادق المهدي رئيساً للوزارة.

مستر هيوم هوران معروف بحبّه للسودان وشعبه، وقد عبّر عن ذلك بقوله:

«من واجب الدبلوماسي أن يكون محايداً مثل الطبيب. إذا ترك عواطفه تتغلب عليه، فلن يكون مفيداً.. ولكنني أعترف أنه كان من الصعب عليّ أيام عملي سفيراً للولايات المتحدة في الخرطوم، ألاّ أكون متحيّزاً للسودان.. وذلك لأن السودانيين يمتازون بجاذبية غير عادية».

هذا الحب للسودان، هو الذي جعل مستر هوران يبدأ حديثه معبّراً عن حزنه العظيم لما صارت إليه الأحوال في السودان، كما يراها،

من عزلة سياسية وأحوال اقتصادية بالغة البؤس، وسمعة سيئة في المحيط الدولي، وقال:

«لم يكن هذا هو المستقبل الّذي حلم به السودانيون وتمنّاه لهم أصدقاؤهم الكثيرون في الخارج. كان السودان أول عهده بالاستقلال، يبدو كأنه يملك كل شيء... كانت عنده بُنية أساسية حسنة... شبكة خطوط حديدية ممتازة، وخدمة مدنيّة ذات كفاءة عالية، وقطاع زراعي مزدهر، وكانت طلائع البترول تلوح في الأفق... وفوق كل شيء، كان جيران السودان يغبطونه على أراضيه الخصبة الواسعة ومياهه الوفيرة».

تساءل مستر هوران، لماذا خيّب السودان الآمال، وانتهى إلى ما انتهى إليه. وذكر أن من الأسباب التي يبرّر بها المسؤولون في السودان سوء أوضاعهم، ما يصفونه بالتدخّل الأجنبي، وقال:

«مع الإقرار بأن ظروف الحرب الباردة ربّما تكون قد أثرت على علاقات السودان مع جيرانه ومع العالم الخارجي، فإنّ من الخطأ القول إن حرص بعض الدول الصديقة للسودان على تأمين مصالحها، كان هو السبب في ما نزل بالسودان من محن وكوارث. هذه الحُجة كأنّما تستحضر الاستعمار في قالب آخر. وهي حجّة تفترض قدرة غير حقيقيّة لدى القوى الخارجية كما تفترض شللاً في إرادة السودان وشعبه».

وركز مستر هوران في حديثه على أن السودان يضيّع وقتاً ثميناً في معترك السباق الاقتصادي الدائر، وأنه بينما يزداد اقتصاد السودان سوءاً يوماً بعد يوم، فإن بعض الدول، خاصة في آسيا تتقدّم تقدّماً

ملحوظاً. لذلك فسوف يكون حتماً على السودان، ليس فقط أن يعود إلى ما كان عليه قبل عقد من الزمان، ولكن أيضاً أن يلحق بتلك الدول.

ثم تساءل مستر هوران، ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل لمساعدة السودان، وماذا يستطيع السودان أن يفعل لمساعدة نفسه، وقاده ذلك إلى موضوع الإسلام فقال:

«إن علاقة الولايات المتحدة بالإسلام، ليس فقط في السودان، ولكن في المنطقة كلها، علاقة متوتّرة غير واضحة. وأنا أعترف أن أسلوبنا في معالجة قضايا الإسلام، لا يمكن لأن يوصف بالمهارة. ولا شك أن بعض الناس في الغرب ـ ربما في أوروبا أكثر من الولايات المتحدة ـ ينظرون إلى الإسلام في سياق الصراع الحضاري القديم ـ الصراع بين قابيل وهابيل. إنما لكي نكون منصفين للغرب، كم من الأخبار السارة تصلنا من منطقة الشرق الأوسط؟».

وبعد أن أسهب مستر هيوم هوران في شرح العوالم التي رسمت صورة بشعة للإسلام في أذهان الأمريكيين، ختم كلمته بقوله:

«إنني أرجو، بل أدعو الله، أن يَغلُب جانب الحكمة والعقل على أعمال المسؤولين في السودان. ما هو البديل؟ خمسون عاماً أخرى من الحرب الأهلية؟ اقتصاد بلغ من الدّمار حداً عاد به إلى العصور البدائية؟ عزلة انتحارية ـ لا سفارات، لا أصدقاء باستثناء أصدقاء يشك المرء في صحة عقولهم؟

إنني لا أصدق أن هذا هو المصير الذي يستحقه قطر عامر

بالإمكانات، مليء بالاحتمالات العظيمة مثل السودان. وعلى السودانيين أنفسهم أن يعملوا كي لا تصل الأمور إلى تلك النهاية المحزنة».

■ ■ ■

ألحّ علينا السيّد مهدي إبراهيم، السفير السوداني في واشنطن أن نتغدّى عنده، لم تدهشنا دعوته ولا إلحاحه، رغم أن محمد إبراهيم الشوش خرج عن صمته منذ أشهر، وكتب مهاجماً نظام الإنقاذ وسياساته، وأنا أقول قولي منذ أمد. ولم يشفع لي عندهم، أنني لا أفتأ أستغفر الله لي ولهم.

كانوا متحفزين معبّئين أول عهدهم، ترميهم بسهم واحد، فيجرّدون عليك كتيبة برمتها. الآن كأنّهم هدأوا، وأولى لهم، إذ إن أي حكومة لا تهدأ بعد سبع سنوات متصلة من هموم الحكم وأعبائه، فمتى تهدأ؟ وكم من سبعات السنوات يحتاج إليها بعض الحكّام، كي يفهموا أن الناس شركاء معهم في حب الأوطان وحمل همومها، وأن الهم إذا قسّمته، أصبح أخف ثقلاً؟

كأنهم صاروا أقل تبرّماً بالنقد، كما تنم بعض صحفهم. وقد اطلعت مؤخراً على أعداد من صحيفة (الرأي الآخر) - التي تصدر في الخرطوم فثمة «رأي آخر» تصدر في أمريكا - فوجدت فيها مقالات للأستاذ محمد طه محمد أحمد، عجبت لصراحتها وجرأتها.

وأنتهز هذه الفرصة فأقول، إن محمد طه محمد أحمد، من الناس

الذين قد تختلف معهم، ولكنك لا تملك إلا أن تحترمهم. لقي عنتاً وأذى في ظل هذا العهد الذي هو من أنصاره، فلم يتنكر له، بل زاد به إيماناً. يستمد شجاعته وجرأته من نزاهته وزهده.

أنه يقوم بدور (جان بول مارا) في الثورة الفرنسية وأرجو ألا يكون مصيره كما حدث لـ (مارا)!

قلت إننا لم ندهش لدعوة السفير السوداني لنا، رغم ما بيننا وبين النظام الذي يمثله من اختلاف في الرأي، وتلك من الخصال التي يحمدها السودانيّون في أنفسهم، أنهم لا يخلطون بين الخاص والعام، ولا بين الخلافات السياسية والعلاقات الإنسانية. وكنا في أول أمرنا مضرب المثل في ذلك.

ثم اهتزّت بعض الأشياء وتقطعت بعض الأواصر. إنما بقيت من ذلك بقايا، هي التي تجعل تعايش الناس في المستقبل، تحت تلك السماء الرحيمة وفوق تلك الأرض الشاسعة، أمراً ليس مستحيلاً.

رحّب السيد السفير بالدكتور الشوش، كما يرحب الطالب بأستاذه، فقد كان الشوش أستاذه في جامعة الخرطوم. ورحّب بالفاتح إبراهيم أحمد وبي، كما يرحّب السوداني بالسوداني أنى وجده. ورغم أنني ألقاه لأول مرة، فقد كنت أحمل عنه صورة حسنة في ذهني، أخذتها من حديث الأخ عمر بريدو عنه. والسيد عمر هو سفير السودان في لندن، وهو رجل فاضل حقاً، من السفراء المحترفين الذين أبقوا عليهم في وزارة الخارجية.

وجدنا عنده رجل الأعمال المعروف، كابتن النور زرّوق. وهو من

مؤيدي النظام المعتدلين. فيه جاذبية (ناس بربر) وطلاوة حديثهم. أعرفه من لندن. قلت له ممازحاً:

«ما الذي جاء بك إلى أمريكا؟ تشتمون أمريكا وتجرون وراءها!؟.

بيني وبينه أواصر، كونه ابن عمة زميليْ الدراسة وصديقيْ الصّبا، الأستاذ محمد يوسف محمد، والدكتور يوسف حسن سعيد. ثم هو صهر أخي فتح الرحمن البشير، ناهيك به من إنسان. قلت له على الغداء إننا نعمل على إقامة مهرجان ضخم لإحياء ذكرى الشاعر العظيم التجاني يوسف بشير، فدقّ صدره ـ كما نقول ـ ووعد خيراً.

كان السفير، كما وصف عمر بديرو، جم التهذيب، واسع الاطلاع، ناصع البيان. ولأنني أعلم أنه من دعائم هذا النظام، وقريب الصلة برئيس الدولة، فقد عجبت بيني وبين نفسي، كيف أن هذا الحكم، فيه كل هؤلاء العقلاء، وكيف أن سياساته بكل تلك الرعونة. كأن الحكم شيء قائم بذاته، يتحرك من تلقاء نفسه. وإلا فمن الذي يحركه؟

بعد الغداء، أصر السيّد مهدي إبراهيم هو وكابتن النور زرّوق، أن يلحقا بنا في ندوة كنا مرتبطين بها في نادي الحوار العربي عند صديقنا صبحي غندور. وذلك من قبيل الدعم والمؤازرة، على عادة السودانيين.

وصلنا في الموعد المضروب تماماً، لم نتُه كما تهنا من قبل، فوجدنا أن صبحي غندور قد حقق شيئاً يشبه المعجزة. استطاع رغم موارد

النادي المحدودة أن ينقله إلى مقر جديد أكثر اتساعاً وتجهيزاً. وبعد أن كان يصدر مجلة (الحوار) بالعربية والإنجليزية، في مطبوعة واحدة، صار لكل لغة مجلة قائمة بذاتها.

يكفي أن يلقي الإنسان نظرة سريعة على عناوين الندوات والمحاضرات وأسماء المشاركين، كي يدرك أي جهد ضخم يضطلع به هذا الشاب اللبناني، الشهم المقدام، في عملية تواصل العرب في المهجر، بينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين الشعب الأمريكي. وهو مثال رائع، على ما يمكن أن ينجزه إنسان واحد بمفرده، إذا كان يملك الإيمان والعزم. ويا ليته يجد التأييد على أوسع نطاق، لأن الذي يفعله، إنما يقوم به نيابة عن الأمة العربية بأسرها.

في ذلك المناخ الإيجابي حيث الناس أميلُ إلى تقبل وجهات النظر المغايرة، وحيث الغربة تعطي القضايا أحجاماً غير التي يراها الناس في ديار العروبة، واجهنا ـ الدكتور الشوش وأنا ـ قاعة ملآى بالعرب النازحين. كل واحد منهم يحمل تجربة ويحمل همّاً. لذلك فقد استفدنا منهم أكثر مما أفدناهم. ووجّه بعض الجمهور أسئلة للسفير مهدي إبراهيم، فدخل معنا في الحوار.

وكانت الإذاعية البارعة السيدة ناهدة الدجاني موجودة فقرأت لنا من كتاب الدكتور الشوش (من نوادر هذا الزمان) بصوتها الجميل.

صارت ندوة سودانية على غير قصد منا، وكأن الذي بدأناه في دار السفير، اتصل في نادي الحوار العربي.

ما هو البديل عن الحوار؟ ما هو البديل عن أن يعرض كل واحد

فكرة تحت ضوء الشمس وفي الهواء الطّلق، بغية الوصول إلى كلمة سواء؟

■ ■ ■

إنني لم أتعوّد على نشر الرسائل التي تصلني من القرّاء الكرام، وكثير منها رسائل تستحق النشر، وأشكرهم عليها.

ولكن رسالة وصلتني مؤخراً من أخت سودانية جنوبية من فيينا، اسمها (آقنس سابينو سافيريو) قد لفتت نظري بصفة خاصّة.

الرسالة، كما سيرى القارئ، تنطوي على مرارة عظيمة، كما نلمس عند كثيرين من إخواننا وأخواتنا الجنوبيين، وسواء كانت تلك المرارة حقاً أو باطلاً، فلا مناص للسودانيين الشماليين، أن يأخذوها مأخذ الجد، حين يفكرون في مستقبل علاقتهم بالجنوب.

ولا أريد أن أجادل السيدة الفاضلة فيما ذهبت إليه، ولكنني أكتفي بالقول، إن من الواضح أنها لم تتابع كتاباتي بتمعّن وإنصاف، ولو فعلت فما كانت تخلط بين شخصي الضعيف وسياسات الحكومة، وما كانت لتتهمني بأنني لا أكترث لدموع اليتامى والثكالى. أما ذرفت الدموع في كتاباتي قبل أن تُذرف بعشرين عاماً على الأقل؟

إنني أبداً لم أنصّب نفسي مدافعاً عن سياسات الحكومات السودانية، ناهيك بالحكومة القائمة الآن. وقد قلت أكثر من مرة ـ وهو رأي يؤمن به غالب السودانيين ـ إن الحكومات المتعاقبة،

وخاصة الحكومات العسكرية، ارتكبت فظاعات في الجنوب لا يمكن الدفاع عنها.

كذلك أعربت مراراً، صراحة وتضميناً ـ وهو أيضاً رأي تؤمن به الغالبية الغالبة من السودانيين ـ أن الحرب التي يشنها النظام الحالي باسم (الجهاد) هي خطة حمقاء لن تحلّ المشكلة بل سوف تزيدها تعقيداً. لكنني تحدثت عن الرق في أفريقيا في سياقه التاريخي، وفنّدت الزعم الذي يتشبث به بعض الجنوبيين، أن العرب جملة، بما فيهم عرب السودان، هم المسؤولون عنه.

هذا زعم باطل، كما تؤكد المصادر الأوروبية المنصفة. وحسبي أن أذكر على سبيل المثال، كتب برفسور بازل ديفدسون، وكتاب (فرانك ماكْ لن) عن ستانلي وقصّة شراء الكنغو، وكتاب الدكتور (جيمس والفن) المسمى (العاج الأسود).

أيضاً هذه السيّدة الفاضلة، تخلط بين أعمال الحكومات، وبين عامّة الناس في شمال السودان، وتفترض أن الشعب السوداني في الشمال، شريك في الآثام والفظائع التي ارتكبتها الحكومات في الجنوب، خاصة الحكومات العسكرية.

واقع الحال هو، أن الشماليين كانوا ـ وما يزالون ـ (ضحية) القهر والاستبداد، ليس أقل من الجنوبيين، وكما قلت في ما قلته سابقاً، فإنه لا يجدي أن يحاول بعض الجنوبيين أن يستأثروا بدور (الضحية) ويفرضوا على الشماليين دور (الظالم) أو (المعتدي). الأمر أكثر تعقيداً، كما أخذ يدرك العقلاء في الجنوب والشمال.

وفيما يلي رسالة السيدة (آقنس سابينو سافيريو)، وهي مكتوبة بلغة عربية سليمة وخط عربي واضح. تقول:

«تحية طيبة، وبعد

قرأت باهتمام مقالاتك التي نُشرت في المدة الأخيرة بمجلة «المجلة» العربية تحت عنوان (خواطر من واشنطن). ولم أتفاجأ بآرائك ونظرتك للجنوبيين ومشكلتهم. وطبعاً أنت مثل أغلبية الشماليين وكشمالي تقليدي، تمتاز بمهارة إلقاء اللّوم دائماً على الآخرين، وكالعادة هذه المرة أيضاً على الإنجليز.

وكيف لا نلوم الإنجليز؟ فالإنجليز هم الذين يدمرون الآن، وفي هذه الساعة، القرى في جنوب السودان وجبال النوبة، وهم الذين يقومون بعمليات التطهير العرقي في هذه المناطق. وهم الذين يبيحون لعساكرهم ومليشياتهم العربية (قبائل البقارة المعروفين بعدائهم للقبائل النيلية بسبب النزاع على الماء والكلأ، والتي تقوم الحكومة السودانية ـ لا، عفواً الحكومة الإنجليزية، بمدهم بالعتاد الحربي والمؤن) باغتصاب النساء وإراقة دماء رجالهن وأبنائهن. والغاية واضحة جداً للعيان. حتى الأعمى يستطيع أن يرى، والغبي أن يفهم ما يتمّ القيام به هنا.

أما عن مسألة الرق، فطبعاً المنظمات الإنسانية التي نشرت بكثافة مؤخراً، وما تزال تنشر بين الحين والآخر عن تجدد ممارسة الرق، وانتهاكات حقوق الإنسان في السودان، وذلك استناداً إلى شهود عيان محايدين وليست لديهم مصلحة في تلفيق قصص خيالية. وكذلك استناداً إلى أقوال بعض الضحايا الذين نجحوا في الفرار، أو

شراء حريتهم مقابل بعض الماشية.

في رأيك، اختلط الأمر عليهم، وبدل أن يكتبوا بأن الإنجليز هم الذين يقومون بذلك الآن، كتبوا بأن من يمارس هذا الفعل المُشين اللاإنساني، هي الحكومة السودانية البريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وإذا كان هذا رأيك، فقد صدقت يا أستاذنا الجليل عندما قلت (إنهم يرون الفيل ويطعنون ظله).

ولكن السؤال المهم يبقى في هذه الحالة: من هو هذا الذي يرى الفيل ويطعن ظله؟
أتدري أين تقع المصيبة الكبرى؟ إنها من السودانيين أمثالك الذين يعرفون كل هذه الحقائق ورغم ذلك يحاولون بكل الطرق تزوير هذه الوقائع والبحث دائماً عن كبش أو كباش فداء.

سودانيون أمثالك، لا تهون عليهم دموع أناس أمثال (كارولاين لوبان) التي إذا بكت ذرفت لآلئ وألماساً. ولكن تهون عليهم بكل بساطة دموع آلاف اليتامى والثكالى الذين يذرفون الدموع كل ثانية وكل دقيقة في كل أنحاء السودان، وبالذات في كل من جنوب السودان وجبال النّوبة.

ولماذا لا تهون لديك دموعهم؟ فهؤلاء مهما بكوا فسيذرفون بعض الدمع الرخيص، والأجدر بهم الرّضى والرضوخ لرغبات السيدة (كارولاين لوبان) بوحدة تراب السودان، وإن عنى ذلك استمرار استعبادهم واحتقارهم ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة العاشرة، فدرجة ثانية كثيرة عليهم.

استعرابهم، أسلمتهم، ولمَ لا، فالكل يولدون أحراراً ما عدا هؤلاء. فهؤلاء حتى وهم في بطون أمهاتهم غير أحرار. فكل عابر سبيل في أرضهم يريد أن يتحكم فيهم بحسب مزاجه، ويريد أن يعجنهم ويشكّلهم على هواه ومعتقداته. وتقوم القيامة ولا تقعد لو رفض هؤلاء الجنوبيون المكفهرة وجوهم والمحمرة عيونهم الانصياع لكم يا سادة يا أصحاب البلد، وتمسكوا بهويتهم ومعتقداتهم. ويُتهمون فوراً برؤية الفيل والطعن في ظله.

ولماذا تتعجب إذا شك البعض في أفريقيتك؟ ألست أنت من سخر من تسمية الأمريكان السود لأنفسهم بآفرو أمركان؟ وما تركت لذلك الموظف الأسود المسكين جنباً ينام عليه، فقط لأنه قام بأداء واجبه ونفّذ التعليمات التي وجهت إليه على أكمل وجه؟

طبعاً لو فعل ذلك أمريكي أبيض البشرة أشقر الشعر أزرق العيون ويدعى (كارل لوبان) لكان الأمر مختلفاً. ولربما كنت شكرته لو أرجعك على نفس الطائرة التي أتيت بها إلى بريطانيا. من يدري؟ لربّما كنت فاجأتنا بالكتابة عنه ومدحه ومدح عائلته!

أخيراً أرجو من حضرتك قبل الصّراخ بأعلى صوتك أنهم يرون الفيل ويطعنون ظله، أن تتأكد بأن بعينك لا توجد لوحة قبل أن تلفت انتباه جارك لقشّة التي بعينه.

آقنس سابينو سافيريو».

فرحت أنني وجدت في واشنطن أخي الكريم الدكتور محمد خير عثمان. عمل سفيراً ووزيراً للتربية، وهو الآن أستاذ في جامعة السلطان قابوس بدولة عمان.

تطيب لي صحبته أنى وجدته، فهو خير مثال على ما يوصف هذه الأيام بـ (الأصالة) و(المعاصرة). إذا حدّثك عن آداب الإنجليز وفلسفات التربية وعلوم الغرب، أغناك. وإذا حدّثك عن قبائل السودان وتأريخه وتراثه الشعبي سرّك وأعجبك وكأنّه لشدّة تواضعه وعذوبة حديثه، واحد من أهلنا المزارعين البسطاء في ديار الشايقيّة، من نواحي مروى أو نُورى، أبداً لم يبرح الأرض.

لا عجب، فقد قضى الفترة الأولى من تعلمه في معهد (بخت الرّضا) العتيد، أيّام عنفوانه، على عهد (مستر قرفث) وعبد الرحمن علي طه ومكي عباس وأحمد الطيّب، وبقيّة أولئك الرعيل من الأساتذة العمالقة، رحمهم الله.

كان معهد (بخت الرضا) للتربية بمثابة تجربة رائدة في التعليم، يجمع بين التحصيل النظري والخبرة العملية، يخرج الطلبة من صفوف الدّرس إلى العمل في الحقول، الأمر الذي أكسبهم نضجاً ودراية ميّزتهم عن أقرانهم من أجيال الخريجين من مدارس السودان. بوسعك أن تميّز (ابن بخت الرضا) بين عشرات الناس.

اكتسب معهد (بخت الرضا) شهرة واسعة، وأصبح مثلاً يحتذى في أفريقيا وفي العالم الثالث. وقد صار مؤسسُه (مستر قرِفث) فيما بعد، أستاذاً للتربية في جامعة أكسفورد.

خلال حديثنا في واشنطن، عاتبني الدكتور محمد خير عثمان، أنني كتبت في معرض نقدي للسياسة التي انتهجها أخواننا هؤلاء، أنهم بحجة أحداث ثورة تعليمية، فتحوا عدداً من الجامعات اعتباطاً، فقلت «حتى القضارف عملوا فيها جامعة». وأفهمني أن (القضارف) تستحق أن يكون فيها جامعة.

هي مدينة في شرق السودان، اشتهرت أحوازها بزراعة السمسم، فذلك قول الأغنية الشعبية:
يا سمسم القضارف: الزّول صغير موعارف.

وهي موطن صديقنا الدكتور محمد خير، وأنا لا أعرفها إلّا سماعاً، فرجوته أن يصفها لي. فكتب لي هذا الوصف الجميل، الذي أنشره فيما يلي، مختصراً لضيق المجال، مع الاعتذار لأهل القضارف:

«قيل في اسمها إن أصله يعود إلى أعالي سلسلة التلال الحادة المتعرّجة في حدودها الشرقية التي تشبه القضاريف (جمع قُضروف). وتُعرف كذلك بأنها (قضروف سعد)، وهو رجل قبطي، قيل إنه أول من زرع الفواكه هناك... الجوافة والقشطة واللارنج وفواكه لم يعرفها السودان إلّا مستوردة من الشام لوجهاء العواصم، أو كالتي في جبل مرّة، والتي تستهلك محلياً هناك.

يعرفها الكثيرون أيضاً (أعني القضارف)، بسوق (أب سن)، وهم أهلنا الشُكرية فرع الشرق والبطانة، وهم امتداد لشكرية رُفاعة (...).

توافد إليها الشايقية، أكثر وأكثف من بقيّة ناس الشمال (السافل)

جعليين وربا طاب ودناقلة وبديرية وهلمّ جرّاً. ومن الشايقية، من أهم بطونها آل الخليفة طه وَد عوض. وهو جدّنا، وأجداده جعليون. وكان أحمق، ثار على أهله في الفاضلاب أُم الطيور لأنهم نصروا عليه أحد أخوته في ميراث أرض. فقال لهم (أعيش بين الشايقية ولا أعيش بينكم) (...).

التركيبة السكانية للقضارف من أعجب العجائب. هنالك ذريّة فلول ضباط وجنود الحامية القديمة التي أقامها محمد علي الكبير وأبناؤه لحماية الحدود الشرقية للسودان. ومنهم الأتراك والأكراد والشركس والقوقاز والألبان. وهنالك جاليات وادعة ومسالمة من الإغريق والقبارصة ومن المغرب الكبير، ومن الشرق الصومال والجبرتة (مسلمو الحبش)، والحبش الأمهرا الارثوذكس. هنالك أنواع لا حصر لها من أفارقة غرب أفريقيا (...).

من هذا الخليط تتعانق مآذن وصوامع وصلبان وأهلّة ورايات، لا تتنافس إلا في السباق نحو السماء. كل هذا الموزاييك العجيب يكوّن في مجموعه هذا المعنى الذي هو (القضارف).

والقضارف من أكثر بلدان السودان مواسم سنوية. والمواسم فيها لا يستحي بعضها من بعض.

لا تتداخل أو تتمانع... الرَشاش رشاش، والخريف خريف، والدرت (وقت الحصاد)، درت، والصيف صيف.

(...) ما سمعتُ الرعد إلا وذكرت ارتفاع صوت أبي في جوف الليل الخريفي العميق في القضارف، وهو يتلو الآية الكريمة (ويسبح

الرعد بحمده والملائكة من خيفته...) وقد أسمع همس أمي داعية بأسلوبها البسيط الصادق، (كيل ما ميكائيل بالمد الكبير).

(...) كانت القضارف في مرحلتها الذهبية (فيما بعد سنوات الحرب وإلى وقت ليس بالبعيد)، هي عروس الاقتصاد السوداني. بدأت فيها الزراعة الآلية وانتشرت وازدهرت، وتضاعف فيها السكان وازداد الوعي وأصبحت قبلة المستثمرين من جميع أطراف القطر. وكانوا سرعان ما تطيب لهم الإقامة في رحابها الكريمة.

في تلك الفترة ازدهرت أيضاً الخدمات التعليمية الشعبية (زيادة سكانية + ازدهار اقتصادي + وعي عام يساوي ثورة تعليمية حقيقية). لجنتها التعليمية تذكرني بمجالس الجامعات العريقة، بل ومجالس إدارة الشركات الكبرى.

كانت اللجان تضمّ كل طوائف المواطنين. الخواجات وأولاد البلد من تجار ومتعلّمين ومزارعين. وكان التعليم يقوم على لامركزية لا أعرفها إلّا في النظام البريطاني والأمريكي والسويسري. وكان التعليم الحكومي ـ وهذه حقيقة هامة ـ يعيش كما تنمو الحشائش الصغيرة في ظل الدوحة الباسقة.

كانت أول مدرسة وسطى في القضارف مدرسة أهلية، وأول مدرسة ثانوية للبنين والبنات أهلية، والآن الجامعة فيها هي بكل الاعتبارات جامعة أهلية.

كانت القضارف أيضاً (عكاظ الشرق). فيها نشأ ونبغ شعراء وصحافيون من أمثال عمنا الرّيفي وعبد الله رجب والسلمابي

والشاعر الكبير (المغمور) إبراهيم عوض بشير. وفي القضارف نشأ وصدح الفنان العظيم عبد الكريم الكابلي...

ولو استزدتمونا لزدناكم. ولك الود.

«محمد خير عثمان»

■ ■ ■

كان دخولي مُيسّراً هذه المرة، وهو أمر أدهشني لأن الذي بينهم وبين (ربعنا) عند ملتقى النيلين، لم يكن يبشر بالخير. صراع بين قوتين إمبرياليتين، بالمعنى الكلاسيكي، كما كانت روما إمبريالية، وفرنسا النابليونية وبريطانيا العظمى.

في هذه الصراعات الكونية القلوبال، لا يُحسب حساب الناس العاديين أمثالي. يموت من يموت ويعيش من يعيش.

ولعل أحداً يعجب أنني أقمت السودان أمبراطورية إزاء الأمبراطورية الأمريكية. ولم لا؟ لماذا لا يكون السودان دولة إمبريالية مثل أمريكا، وتكون له رسالة حضارية كما يقول الأمريكان إنهم ينشرون في الدنيا (الأسلوب الأمريكي في العيش)؟

فكر قليلاً في حقيقة الأمر. إن كانت المسألة مسألة اتساع رقعة الأرض، فانظر إلى براح السودان وتمدد أطرافه وكثرة تضاريسه. وإن كانت الحكاية حكاية تنوع وتعدد، فتعال يا (أنكل سام) وشوف جنس تنوعنا وتعددنا. وإن كانت العبرة بالثروات والإمكانات المادية. يا زول!

أنت عندك كم مليون فدان صالحة للزراعة؟ بس يا هو دا العندك؟ جملة الإيمان نحن عندنا مئات الملايين من أرض طين زي المسك المعجون. ترمى فيها الحبة تقوم في حزتها. تزرع فيها الثمرة تشيل في سنتها.

أها. وعندك شنو من المعادن؟ حالف لي يمين نحن عندنا الذهب والفضة والنحاس والمنقنيز واليورانيوم وغيرها وغيرها. وأنت عارف داه كله لأنه أقمارك الصناعية تحوم فوق رؤوسنا كما يحوم الذباب فوق صحن العسل.

قلت عندك البترول؟ يا زول! عليك أمان اللّه نحن بلدنا تعوم فوق بحر من البترول. بحر عديل. بنمرقه ونصفيه ونصدره وأنت بتشتريه وكراعك فوق رقبتك.

تسمح - تاني شن عندك؟ شنو؟ التكنولوجيا؟ إن شاء الله تكنولوجيا مكسّرة فوق راسك. كدى أصبر علينا شويه وشوف جنس التكنولوجيا البتمرق من عندنا.

قلت عندك العلما والجامعات؟ يا خوي نحن العلم عندنا كتر لا من مسخ. كتر لا من قفلنا جامعاتنا مرة واحدة. مانا محتاجين لزيادة علما وعلوم. ودا شيء لا يغباك لأنه عندك آلاف من علمانا اتفضلنا بيهم عليك، ولولاهم ما كنت عملت صناعة ولا تكنولوجيا.

أنت ما سمعت قصيدة شاعرنا سيد أحمد الحردلو التي يغنيها ود اليمني «تقول لي منو؟ وتقول لي شنو؟».

وفوق ذلك كله، فإن السودان يتفوق على أمريكا بميزة كبرى. ميزة أخلاقية. أمريكا، لكي تقيم فردوسها الأرضي هذا، كادت تُبيد السكان الأصليين الذين يسمونهم احتقاراً (الهنود الحمر) وهم لا هنود ولا حمر. فهي حديقة تقوم على مقبرة.

السودان لم يُبد أحداً. جاء العرب المسلمون من الجزيرة العربية، وعن طريق مصر وبلاد المغرب. وجدوا أقواماً متوطنين في البلد. قبائل النوبة في الشمال، والبجه في الشرق، والقبائل (النايلوتك) والبانتو والفرتيت وغيرهم في الجنوب والغرب.

«يا جماعة سلام عليكم. تقبلو نقعد معاكم ونعيش وياكم بالتي هي أحسن، عليكم أمان الله، لكم ما لنا وعليكم ما علينا»؟ قالوا «أهلاً بكم وسهلاً اتفضلوا على الرحب والسعة».

وهكذا كان. لا ذبح ولا تقتيل ولا اغتصاب أرض ولا تضييع حقوق. فبالله عليك يا صاحب الاعتصام، ومسيِّر البوارج في البحر كالأعلام، من هو المتحضر حقيقة؟ أنا أم أنت؟ ومن هو الأحق بحمل راية الحضارة الإنسانية؟ أنتم أم نحن؟

أعود إلى مسألتي الصغيرة في خضم تلك المسائل الكبيرة. حين قدمت جوازي إلى السفارة الأمريكية في لندن بغرض الحصول على إذن للإطلالة ـ فقط إطلالة ـ على فردوسهم الأرضي لم أكن متفائلاً. وكنت، كما لعلني وصفت لكم في سياق آخر، قد ملأت الفورمات وأجبت بالنفي على أسئلتهم جميعاً، التي لا يجرؤ على سؤالها إلا قوة قصوى ـ معاذ الله ـ لا تبالي بشيء ولا تبالي بأحد.

لم يأبهوا أنني من رعايا دولة إن لم تكن بعدُ عظمى، فهي عظيمة بالقول وبالفعل. ذات هيل وهيلمان وعز وسلطان، وإن كان الأمريكان لم يفهموا ذلك، فسوف يفهمون وشيكاً. شفع لي عندهم أمر واحد. ذلك أنني أعيش في كنف أصهاري البريطان، ولي عندهم «إقامة دائمة». وبريطانيا كما لا يخفى، أمبراطورية غربت عليها الشمس، إنما لم يزل لها ظل يلتحف به العفاة والغرباء وأبناء السبيل.

لذلك أعطوني إذناً بالدخول لمرة واحدة. وكانوا في ذلك كما وصف الحردلو شاعر البطانة أن محبوبته صنعت معه:

وكتين النعام اتشقلبن به الخيل
لا بخلت ولا جادت على بلحيل.

■ ■ ■

خرجنا نحمل أثقالاً من الورق، الـ (واشنطن بوست) وحدها وقر بعير. كم ملايين الأشجار تقطع كل عام لتمد الأمريكان بالورق لطباعة صحف لا يقرأونها؟ (من الذي يشرب كل هذه الخمر؟ من الذي يقرأ كل هذه الصحف؟).

لو كان في الدنيا عدل حقيقة، لصدر قانون من جهة ما، يفرض نظاماً لـ (الكوتا) في استعمال الورق. كل دولة تكون لها حصة لا تتعداها. إنما، أي سلطة تستطيع أن تفرض قانوناً على (سوبربور)؟ وقد خطر لي أن عنوان قصيدة الشاعر الأمريكي (تي. أس. أليوت) الذي يُترجم إلى اللغة العربية بـ (الأرض اليباب) وأحياناً (الأرض

الخراب) يمكن ان يُترجم إلى (أرض التبذير) لأن كلمة Waste الإنجليزية من معانيها (التبذير)، كما قال الشاعر الإنجليزي البارع (أمبسون Empson):

It is the waste that remains and Kills.
(إنه سُمُّ التبذير الذي يبقى في الجسم ويقتل).

ومن الإنصاف القول، أن عقلاء الأمريكان، وهم كُثُر ـ يدركون هذه العلة، وقد بحّت أصواتهم في التنبيه إليها. إنما بعض المجتمعات، مثل بعض الأفراد، بهم اندفاع نحو تدمير الذات كأنه قدر محتوم. وعلى أي حال، نحن لسنا في وضع يُجيز لنا أن نهدي العظات للأمريكان. فنحن كما لا يخفى، كنا الشوش والفاتح واياي ـ في واحد من هذه الأسواق، الـ Malls، المتناثرة حول مدينة واشنطن، وهي ليست غير نمط الأسواق العربية القديمة ـ أخذوها في ظني عن السويد، التي أخذتها ربما عن فرنسا أو ألمانيا، اللتين أخذتاها عن المسلمين في الأندلس.

هذه ـ كما لا نمل في القول ـ بضاعتنا رُدّت إلينا. وكعهدنا أبداً، لم نأل أشياءنا القديمة تبديداً وتبذيراً، ثم انتبهنا إلى أن ما كنا نحسبه غثاً هو سمين عند الجرمان والطليان وخاصة الأمريكان.

يبدو الآن أنهم أخذوا يعودون في ديارنا إلى طريقة الأسواق العربية القديمة، حيث تجد مجموعات متشابكة من الدكاكين، تربط بينها دروب ضيقة وتظللها ظلالات، يجد فيها المشتري كل ما يطلب. وكم أنجبت تلك الأسواق من علماء وفقهاء وعباد ـ الذي يبيع الخن والذي يبيع الغلال والذي يبيع العطر ـ.

حين تفتح كتبهم اليوم، يفوح منها أرَج ذلك الزمان الجميل، حيث كانت الحياة هي العمل، وكان العمل مرتبطاً بالعلم.

مدينة واشنطن، مدينة جميلة، في اتساع شوارعها وميادينها وحدائقها وعمارتها. لم تَنمُ تدريجياً مع مرور الزمن، شأن بقية المدن، ولكنها قامت دفعة واحدة بتخطيط وتعمد وقصد. أرادوها أن تكون عاصمة (إمبريالية)، فجاءت خليطاً من أصداء، ليس أكثر من أصداء، لأثينا القديمة وروما، بالإضافة إلى باريس لأن المهندس المعماري كان فرنسياً، ويجمع ذلك كله روح قرية أنجلو سكسونية من (سسكس)، ينقصها تلك الغلالة التي تنسجها القرون المتعاقبة فوق المدن العريقة، وذلك الهمس الذي يبقى من أصوات ملايين البشر الذين عبروا بالمكان. بعض الناس لا يحبون ذلك. يؤثرون (الأسلوب الأمريكي في العيش). ألوان فاقعة وصخب محموم وزينة وتفاخر.

كان دليلنا في واشنطن وما حولها، كما كان في الزيارات الماضية، الفاتح إبراهيم أحمد، وهو من أهلنا ركابية (العفاض) الذين هاجروا إلى أرض الجزيرة وسط السودان وسكنوا (طيبه) بلدة الشيخ عبد الباقي. وهو من كبار رجال الدين المتصوفة من العركيين. والفاتح من خريجي جامعة الخرطوم في عهدها الزاهر، ثم قرأ في أمريكا، ويعيش فيها منذ سنوات.

يجمع بين طيبة أهل الريف السوداني، ودماثة المنحدرين من أصول دينية عريقة، وتمدن خريجي الجامعات، خاصة جامعة الخرطوم في عهدها الزاهر. قدماه راسختان في تراب السودان، وعقله متفتح للأفكار الجديدة من جميع الجهات. وهذه هي المعضلة أصلاً، التي يصفها بعض أخواننا بـ (الأصالة والمعاصرة).

مثله كثيرون. وقد كاد السودان بتراثه الحضاري الضخم وتجربته المتقدمة في التعليم العصري، كاد يصبح أصيلاً حقاً ومعاصراً حقاً، لولا أن الله ابتلاه ـ لحكمة يعلمها ـ بالحمقى والمجانين.

يحفظ كثيراً من الشعر العربي القديم والحديث باللغة الفصحى والشعر السوداني الدارج خاصة شعر الغناء. وقد وجدت في داره مكتبة لم أجد مثلها من قبل، لتسجيلات الغناء السوداني الكلاسيكي والمديح والدوبيت والرثاء.

بعض ذلك على أشرطة (كاسيت) وبعضه على أشرطة (فيديو). وعنده دواوين الشعراء الفطاحل الذين يسميهم الفاتح الـ (Martians)، أمثال العبادي وود الرضي وود القرشي وود الرّيح وأبو صلاح. كأنهم هبطوا من كوكب آخر ثم اختفوا.

الإقامة مع الفاتح، خاصة بصحبة العالم النابغة الدكتور محمد إبراهيم الشوش الذي أضاف إلى أمجاده مؤخراً أن نجمه أخذ يتوقد في عالم الصحافة رافعاً راية الحرية والديموقراطية ـ أقول إن الإقامة مع الفاتح فيها نعم الغذاء للعقل والروح.

شاهدنا عثمان ود اليمني يغني بصوته العجيب بلهجة الشايقية ملحمة الشاعر الموهوب صديقنا العزيز السفير سيد أحمد الحردلو «تقول لي منو؟ وتقول لي شنو؟» التي يعدد فيها مآثر السودان والسودانيين ويقول فيها «نحن كتر. وشيتنا كتر». كلمة (كُتر) بالتاء، تحريف للكلمة الفصيحة (كُثر) بالثاء ومعناها (غير) أي أننا حاجة تانية!

وسمعنا الفرجوني يغني بصوته النديّ العذب «يا حبيب أنا عيان، زورني»، والكابلي يغني «يسلم لي خال فاطنة». وشاهدنا وسمعنا على ود الأحو، يغني مرثية جده «أب عاجات الأحو» عمدة دار (كلي) ـ آب عاجات أي النمر. التي قالت عنه النادبة القديمة أنه حين مات «انحل النظام واتهدم المعمور»، وذلك ـ ويا للعجب ـ كما قالت جليلة في رثاء كليب وكليوباترا في رثاء مارك آنتوني عند شكسبير ـ نافياً لتوافق الخواطر عند العبقريين!

■ ■ ■

سرني أنني وجدت محمد محمد خير سبقني إلى واشنطن. أقرأ له في صحيفتي (الخرطوم) و(الفجر). أسلوبه مشوّق مليء بالحيوية وروح الفكاهة، وهي فكاهة موجعة أحياناً. وجدته يتحدث كما يكتب بلهجة (شايقية) قُح. وهو نفسه شايقي محض، في هيئته وحديثه ومشيه وقيامه وقعوده، فكأنه من أهلنا (الترابلة) من نواحي (قُشابي) التي قال عنها الشاعر:

طـول الـلّـيـل عـلـيـه بـشـابـي
الـزول الـسُّـكـونـه (قـشـابـي)

وقال آخر:
الـلّـيـلـة الـبـرق جـدّد عـلـيّ أتـعـابـي
طرّاني الولوف بين (الدويم) و(قُشابي)

(تربال) تعني بلهجتنا (فلاح) وهم خيار الناس كما لا يخفى، وغالبية أهلي منهم.

و(طرّاني) أي (ذكرني) ولا أخالها إلّا فصيحة فقد وجدتها عند عرب الخليج. ونحن نقول في تذكّر من نحب (اللّه يطراه بالخير) وإذا كرهنا نقول «اللّه يقطع طاريه».

أما (الولوف)، فهي تحريف قليل لـ (الألف) أو (الألوف). أما (الدويم) المشار إليها، فهي تصغير (دَيْم). وكان ذلك يعني معسكر الجند، ثم صار يطلق على (الحي) أو (الفريق). وهي هنا تعني (دويم ودجاج) في مروى، إذ إن عندنا (دويم) أخرى، وهي مدينة كبيرة على النيل الأبيض جنوب الخرطوم، وقريب منها معهد (بخت الرضا) الشهير.

لا غرو أن محمد محمد خير كما وصفت، فهو من (تنقاسي)، وهي بلدة على الضفة الغربية للنيل مجاورة لـ (نوري). وهذه بلد الصحافي البارع ذي القلم الأمين والخلق المتين محمد الحسن أحمد. وكذلك عثمان محمد الحسن (المرابط) إلى الآن في السودان، والأستاذ في جامعة الخرطوم.

وأيضاً المرحوم بروفسور محمد عمر بشير الذي هيهات أن تلد النساء كثيرين أمثاله.

أذكر (تنقاسي) أواخر الأربعينيات ذات نخل طوال. كنت تلك الأيام تلميذاً في المدرسة الثانوية. وكنا حين نعود من العطلة المدرسية نأخذ السفينة النهرية إلى (كريمة) حيث نجد القطار الذي يحملنا إلى الخرطوم. تكون بطيئة حين تسير عكس التيار، فكنا ننزل منها ونمشي على أقدامنا بين المحطات المتقاربة. كانت (تنقاسي) من تلك القرى التي عرفتها مشياً.

ذلك النخيل الباسق، تساقط لا بدّ. وقد سمعت أن فيضان النيل الأخير أتى على البقية الباقية من تلك القُرى، فلم تبق من ديار سلمى حتى الأطلال. وذلك كما وصف أبو الطيب العتيد:

وكـأنّـا لم يـرض فـينا بـريـب الـدهـر

حـتـى أعـانـه مـن أعـانـا

لأن هذا العهد السعيد، الذي يظل السودان بظله الآن وإلى حين، قتل أوائل أيامه نحو عشرين ضابطاً في الجيش، منهم سبعة أو ثمانية من (تنقاسي). ذلك لأنهم دبروا انقلاباً عليه، فأعجب لسارق يزعل إذا هب أهل الدار ليستخلصوا منه حقهم المسروق!

وهي أيضاً مهبط رأس الشاعر السفير سيد أحمد الحردلو ـ الله يطراه بالخير ـ هذا فتى الحردلو سابق كما وصف طرفة «إذا قيل من فتى خلت أنني عُنيتُ...». له المجموعة القصصية الشهيرة «ملعون أبوكي بلد» التي يشتم فيها السودان من شدة حبه له. وله الملاحم التي سار بها الركبان يفخر فيها بمآثر السودان، ومنها (بلدي يا حبوب أب جلابية وتوب). يغنيها محمد وردي بصوته المضمّخ بعبير تلك النواحي.

لسيد أحمد أيضاً ديوانه «أغنية إلى يافا» وفيه قصيدته الدرة التي يقول فيها:

أعود إليك يا (ناوا) وليس معي سوى أحزان

وحفنة نار،

سوى أشعار.

(ناوا) في ديار الدناقلة هي بلدة والدته، فهو دنقلاوي الأم شايقي الأب، حوى المجد من طرفيه جميعاً.

هذا، ولم يمكث محمد خير معنا طويلاً في واشنطن، فقد عاد أدراجه إلى منفاه في كندا، وكان قد كشف لنا ظهره فرأينا آثار جروح كأنها من أثر سياط أو حرق بالنار. قال إن ذلك بعض ما ألحقوه به من أذى في (بيوت الأشباح).

ملايين السودانيين في المنافي. في كندا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وبلاد اسكندنافيا وحتى أستراليا. وعند أشقائنا في الجزيرة العربية وسورية ومصر. كأن لم تفن بالأمس.

سوف يذكر السودانيون لهذه الدول، وهم قومٌ جُبلوا على الوفاء ـ أنها آوتهم وأحسنت استقبالهم. خاصة السعودية وبلاد الخليج. وخاصة مصر. وخاصة بريطانيا.

الأيام دول، والحال لا بد أن يتحول. ولله در أبي العلاء إذ قال:

بالقضاء البليغ كنّا فعشنا
ثم زلنا وكل خلق يزولُ
نحن في هذه البسيطة أضياف
لنا في ذرا المليك نُزولُ
والمليكان ذاهبان، مولّى
مستجدٌّ وراحلٌ معزولُ
بَليَ الحبلُ والغزالة فوق الأرض
لم يبل خيطُها المغزولُ

■ ■ ■

يجد الإنسان لذة مضاعفة إذا هو قرأ للروائي الأمريكي (قورفيدال ـ Gore Vidal) في واشنطن، فهي مدينته التي نشأ فيها وأحبها

وكرهها ـ يهجرها ويعود إليها ـ يعيش فيها وبعيداً عنها، وعلاقته بها علاقة متأرجحة كما كانت علاقة الكاتب الإرلندي (جيمس جويس) بمدينته (دبلن).

نشأ في أسرة عريقة ـ بالمقاييس الأمريكية ـ وكان جده لأمه عضواً في مجلس الشيوخ ـ تغلغل في الحياة الاجتماعية والسياسية للمدينة في شبابه، ورشّح نفسه ذات مرّة ـ دون جدوى ـ ليكون عضواً في مجلس النواب ـ وكان صديقاً للرئيس (جون كندي).

اشتهر بلسانه الحاد، وسخريته الموجعة، بسياسة أمريكا وما وصفه بأنها تدّعي العظمة الفارغة وتحاول أن تلعب دوراً هي ليست مؤهلة له. ولعلّه أول من وصف الولايات المتحدة ـ هازئاً ـ بأنها (أمبراطورية). كاتب متحرر مُنصف من القلائل في أمريكا الذين يسبحون عكس التيار، ويجدون الشجاعة لمناصرة القضايا العادلة للشعوب المستضعفة، مخالفاً في ذلك سياسة دولته.

أترجم فيما يلي، مقتطفات من مقالة له عن مدينة (واشنطن):

«كان جدي، مثل كثيرين من مكفوفي البصر، مغرماً بالتجوال في المدينة و(رؤية) معالمها، كما كان يقول ـ ومن ذكريات طفولتي الباكرة أنني ذهبت معه إلى الجزء الجنوبي الشرقي من واشنطن ـ قال وهو يشير بيده إلى عمارات متداعية من الطوب الأحمر (كانت عائلتنا تملك هذه الأرض كلها في يوم من الأيام) ـ لم أر أي أرض بل خرائب، لذلك فإنني لم أحس بالزهو لقوله إن عائلتنا تملك ذلك كله.

بعد سنوات وجدت خارطة تبين كيف كان ذلك الجزء من البلدة يبدو قبل اختراع العاصمة، (منطقة كلمبيا D.C). كانت (جورج تاون) مستوطنة بائسة على نهر (بتوماك). وكانت بقية الأراضي على امتداد البصر، أراضٍ زراعية تملكها تسع عشرة أسرة.

أكثر تلك الأسر، ينحدرون من أصول توصف خطأ بأنها (اسكتلندية إرلندية).

حقيقة الأمر أن (آل قور) هم من أصول (إنجليزية إرلندية) هاجروا إلى أمريكا الشمالية في نهاية القرن السابع عشر وتزاوجوا مع العوائل الاسكتلندية الإنجليزية في (فرجينيا) و(مارلاند).

جورج واشنطن، ليس فقط أنه تزعم الحركة الانفصالية عن بريطانيا العظمى (وصف ثورة أفخم من أن ينطبق على تلك الحركة الحائرة المحيّرة). لكنه أيضاً اخترع ما سمي بـ (الجمهورية الفدرالية). وكان أعظم همه أن يكرس دستور تلك الدولة، رغبته التي تقرب من السعار في (تقديس الملكية الخاصة).

كان واشنطن سعيداً ـ إن لم نقل متآمراً ـ في نقل عاصمة الجمهورية الوليدة من (فلادلفيا) إلى تلك البراري التي كانت قريبة من مزارعه وممتلكاته في (فرجينا).

وحين قررت الأمة، اعترافاً له منها بالجميل، أن تسمّي العاصمة باسمه (واشنطن)، لم يتردد الزعيم البطل طويلاً. ألم يبرهن من قبل على زهده وصدق عواطفه الجمهورية أنه رفض أن ينصّب ملكاً؟

قال يومئذ إنه ليس من اللائق أن يحل (جورج الأول) محل (جورج الثالث) ـ ملك بريطانيا آنذاك ـ ولعل مما قوى إصراره على الرفض، أنه كان بلا ذرية. لم يكن يوجد (أمير فرجينيا) يخلفه على العرش حين يناديه المنادي إلى آفاق أرفع!

لم يتنازل (واشنطن) عن إقطاعياته أو يبع أياً منها، ولكنه اشترى قطعتين إضافيتين من الأرض، بواسطة المضاربة في السوق. ثم مات قبل دخول الوريث، الرئيس الجديد (جون آدمز) للعاصمة بعام واحد.

الأسر التي انتزعت أراضيها بغرض إيجاد حيّز لمباني العاصمة الجديدة، لم تتضرر كثيراً. أفراد عائلة (قور) الذين أقاموا، باعوا أراضيهم وبنوا قصوراً وهوتيلات وصاروا أثرياء. والذين نزحوا، ومنهم فرع جدي، ذهبوا إلى (ميسيسبي) ـ لم يكن حتى عام ١٩٠٧ حين انتخب جدي لمجلس الشيوخ، أنه عاد إلى (واشنطن)، ظل فيها حتى موته عام ١٩٤٩.

منذ عشرين عاماً قال ذلك الرجل الخفيف الظل (جون كندي) إن واشنطن تجمع بين كفاءة أهل الجنوب الأمريكي وجاذبية أهل الشمال ـ يقصد أنها خالية من الكفاءة والجاذبية ـ ربما كان ذلك صحيحاً حين كان (كندي) وفرسان مائدته المستديرة، يبنون مملكتهم السحرية في (كاملوت)، بين قبائل من الهمج والرعاع!».

■ ■ ■

يواصل الكاتب الروائي الأمريكي (قور فيدال) بأسلوبه الساحر الذي

اشتهر به وصفه لمدينة (واشنطن) فيقول:

«حين كانت تلك الصروح الرومانية تشيَّد ومنها مبنى وزارة التجارة، كنا نتساءل ببراءة، من أين سوف يجيئون ببشر يملأون تلك العمارات الضخمة كلها؟

المدينة ـ أي مدينة ـ هي عبارة عن كائن حي، تنمو حسب منطق النمو للكائن الحي. لذلك وقبل أن تصير (الأمبراطورية الأمريكية) واقعاً ملموساً كانت مدينة (واشنطن) قد أخذت بالتدريج تأخذ طابع عاصمة لدولة قيصرية ـ أخذت تتحول إلى (روما الجديدة).

كنت أشعر، وأنا أرى المباني الرسمية ترتفع بأعمدتها وقبابها وأبراجها، أنني لا أشاهد مدينة حية تنمو، ولكنني أشاهد أطلال مدينة درست وأصابها الخراب. وعجيب أننا حتى في تلك الأيام، قبل وجود الخطر الذري، لم يكن صعباً علينا أن نتخيل المدينة وقد أصابها الدمار بالفعل ـ ربما كان ذلك صدى لحادثة قديمة من عام ١٨١٢، حين أحرق الإنجليز الـ (كابتول) والبيت الأبيض ـ أو حين استباحت قوات الجنوب المدينة في الحرب الأهلية، وتدفقت كالسيل في شارع (سفينث ستريت).

قال جدي وهو يحملق بعينيه غير المبصرتين في مبنى دار الوثائق (على الأقل الخرائب التي سوف تنتج عن هذه المباني، سوف تكون خرائب رائعة!).

لو كان الأمر بيد جدي، لما أنفق سنتاً واحداً من المال العام لتشييد أية عمارة، ولكن تلك الصروح الرومانية، لم تلبث أن اكتملت

وامتلأت بالبيروقراطيين. وبعد الحرب العالمية الثانية، صار لمدينة (واشنطن) أمبراطورية تتناسب مع العظمة المزيفة لتلك المباني.

إقامة أمبراطوريات أمر بالغ الخطورة، كما لاحظ (بركليس)، أعظم سادة أثينا القديمة. ولأنني أذكر بوضوح كيف كانت (واشنطن) قبل أن تصبح عاصمة (إمبريالية)، فأنا أعترف أنني من هؤلاء الجمهوريين على مذهب (شرون)، أحنّ إلى (واشنطن) الجميلة التي عرفتها في صباي وأول شبابي، وأتحسر على الفساد والتشويه الذي حاق بها.

في العشرينيات والثلاثينيات، كانت (واشنطن) بلدة صغيرة كل واحد من سكانها يعرف كل ساكن آخر. حين تغلق المدارس في شهر حزيران/يونيو، نخلع أحذيتنا ونمشي ونلعب حفاة، ولا نلبسها إلّا في شهر أيلول/سبتمبر. كان الصيف حاراً وما يزال.

كنت أثناء انعقاد جلسات الـ (كونغرس) أذهب إلى جدي بسيارة وسائق لإحضاره إلى الدار من مبنى الـ (كابيتول) - كان الحراس قليلين في تلك الأيام، ولم تكن توجد كلف ولا رسميات - أدخل المبنى من دون أن يستوقفني أحد، وأتسكع في ردهات مجلس الشيوخ، ثم أدخل قاعة المجلس، وإذا لم يكن جدي موجوداً أجلس في مقعده إلى أن يرجع، فأعود به إلى الدار.

وذات مرة دخلت وسرت بين مقاعد الأعضاء وأنا شبه عار لا ألبس غير (شورت) السباحة. ضحك الشيوخ الموقرون، الأمر الذي حيّر جدي المكفوف البصر. ولم يلبث أن نزل (مستر جارنر) نائب الرئيس، وجاء إلى جدي وقال له وأنفاسه تفوح منها رائحة

الويسكي (سناتور! هذا الصبي عريان) بعد ذلك صرت أدخل بثياب أكثر حشمة.

إنني أؤرخ لنهاية الجمهورية وميلاد الأمبراطورية، باختراع مكيفات الهواء أواخر الثلاثينيات. قبل ذلك كانت (واشنطن) تخلو من الناس بين منتصف حزيران/يونيو إلى أيلول/سبتمبر. كان رئيس الجمهورية، فرنكلين روزفلت ـ يختفي في مكان ما أعلى نهر الـ (هدسن) ـ وكان أعضاء الـ (كونغرس) كلهم يسارعون في العودة إلى مواطنهم، أما بعد اختراع مكيفات الهواء، الذي تزامن مع نشوب الحرب العالمية الثانية، فقد صار الـ (كونغرس) يجلس بلا انقطاع، وصار رؤساء الدولة وحاشيتهم وأتباعهم لا يبرحون البيت الأبيض، موجودين دائماً ينسجون المكائد والمؤامرات لإلحاق الأذى بخلق الله!

الـ (بنتاغون Pentagon) ـ مبنى وزارة الدفاع ـ الذي أحسسنا تجاهه بكراهية شديدة وهو يعلو تدريجياً، لم نجد سبباً لنحبه حين اكتمل، سواء في مظهره القبيح أو وظيفته الأكثر قبحاً ـ بدا لنا، وما يزال، مثل عش الدبابير!

الآن أخذت تلك الصروح الرومانية تتسخ بفعل مرور الزمن وبراز الحمام. ولكن من حسن الحظ ما يزال المرء يجد هنا وهناك بعض البيوت القديمة المنزوية في شوارع هادئة تظللها الأشجار. إنها بقايا ذكريات من زمان ضاع، حين كانت السيدات يضعن على رؤوسهن قبعات واسعة من القش.

كان الإنسان يستطيع أن يأكل في (هارفي) حيث مراوح السقف

تدور ببطء، وتجعل نهار الصيف مهما كان حاراً يبدو لطيفاً محتملاً. ومن وقت لآخر يهب الهواء من الخارج، يحمل رائحة القار والياسمين.

كانت حديقة (لافييت) القريبة، عبارة عن غابة استوائية ملتفة الأشجار، يتمشى فيها أحياناً ذلك الرجل الأسطوري، القاضي (أيفر وندل هولمز)، وشاربه الأبيض الكثيف منفوش في الهواء مثل بيرق.

■ ■ ■

مهما كان رأينا في أمريكا، ومهما كانت مآخذنا عليها - وهي ليست قليلة - فلا بد لنا أن نعترف بأن فيها مجتمعاً مدنياً منفتحاً، ومؤسسات ديموقراطية راسخة، وصحافة حرة فاعلة، وإعلاماً عظيم المدى والتأثير. صحيح أن وسائل الاتصال الأمريكية تستجيب لضغوط مصالح معيّنة. وصحيح أن نوازع الربح المادي والغلبة والهيمنة تطغى أحياناً على نوازع الخير الواضحة في الشعب الأمريكي.

رغم ذلك كلّه، فإن المرء لا يملك إلّا أن يحس بالإعجاب والتقدير حين يجد برامج تلفزيونية تتوخى الصدق والإنصاف، ومقالات صحافية رصينة لكتّاب أمناء يحاولون أن ينفذوا إلى صميم القضايا المطروحة سواء كانت محلية أو عالمية، من دون محاباة أو خوف. مثل هذه المقالات، وأيضاً مئات الكُتب الجريئة التي تصدر كل عام، تجعل الإنسان يقبل أن المجتمع الأمريكي على علّاته مجتمع عظيم بالفعل.

وقد لفتت نظري مقالة في مجلة (هاربرز Harper's) الرصينة لكاتب اسمه (لويس لافام)، وهو أستاذ جامعي وكاتب معروف.

خلاصة المقالة أن المجتمع الأمريكي مجتمع عابث تنقصه الجدية، ينقاد انقياداً أعمى لوسائل الإعلام بحثاً عن الترفيه والمتعة. ويقول الكاتب إن الفضيحة الأخيرة التي تتعلق بالرئيس كلنتون، هي من صنع وسائل الإعلام بغرض إثارة عواطف الجمهور ودفع المال عنه ويقول:

«العبث وعدم الجدية يقتضي بالضرورة إيجاد وسائل للهروب من الملل. ويعني أيضاً الانغلاق على الذات والغباء، والنظر إلى الأمور التافهة على أنها مسلية، وفي رأيي أن هذه العيوب في الطبع الأمريكي، هي التي تفسّر كل ما شاهدناه مؤخراً من لغو فارغ وغضب مصطنع على فساد الأخلاق.

وفي رأيي أن التدمير الذي لحق بالمجتمع ومؤسساته، يرجع في المقام الأول إلى هذا العبث وعدم الجدية...».

ويمضي الكاتب فيقول:

«لعلّنا لو كنا حقاً نعيش في وطن يحترم حكومته ويحرص على حرياته، وطن فخور بمؤسساته العامة، إذاً لكان حتماً على الرئيس كلنتون أن يستقيل في كانون الثاني/يناير قبل أن يظهر اسم مونيكا لوينسكي على المسرح. أو حتى في ١٧ آب/أغسطس، اليوم الذي أدلى فيه بشهادته المهينة أمام المحلفين..

كونه لم يشأ أن يستقيل حينئذ ليحول دون صدور تقرير كنيث ستار الفاحش، فإنه ـ الرئيس ـ هو والمدّعي الخاص، قد أظهرا مدى احتقارهما لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكي بكل ما يحمله من رموز ومعانٍ، وعدم اكتراثهما حتى بالقليل الذي بقي للشعب من ثقة في حكومته.

إنه العبث وعدم الجدية، وإلّا كيف نفسر أن أغلبية الناخبين، صوتوا لصالح كلنتون لمنصب الرئيس مرتين... إنه قطعاً شعب ينظر إلى الحياة السياسية، على أنها مجموعة من الألاعيب المسلية، التي يدفع بها الملل عن نفسه.

ويقول الكاتب إن كلنتون حين رشح نفسه عام ١٩٩٦ للانتخاب للرئاسة لفترة ثانية، كان الناخبون يعرفون حقيقته جيداً... أنه سياسي لا مبادئ له، وأنه زير نساء، وأنه لا يبالي ألا يقول الحقيقة، ثم يضيف:

«كانت الحملة الانتخابية عام ١٩٩٦، لا تقدر إطلاق بالونات مملوءة بالهواء.. الأقلية الصغيرة التي اهتمت بمتابعة مجريات الأمور، كوّنت رأيها بتأثير وسائل الاتصال التي تعمل في خدمة جهات ذات مصالح.

المال والاقتصاد هما كل شيء في نظر هذه الشركات الكبيرة. ليس مهمّاً من يجلس في البيت الأبيض. مع شيء من الحظ يمكن أن تكون الفترة الثانية للفتى الوسيم بيل كلنتون ناجحة ومليئة بالمتعة والإثارة.

ثم يمضي الكاتب فيقول:
«كلنتون بلغ سن الرشد في مجتمع يطغى عليه مضيفو برامج اللّغط واللّغو، ويسيطر عليه المحامون، ويؤثر عليه الممثلون والعاملون في مكاتب العلاقات العامة... وكل هؤلاء يكسبون مبالغ طائلة من وراء إعادة صياغة الحقيقة لتبدو زاهية جذابة.

الشاب الذكي من ولاية آركنسو استوعب سريعاً الدرس الأمريكي الأول والأهم. الدرس الذي يقول إن الخطأ ليس في الأمريكان ولكن في الآخرين. الأمريكي بالضرورة وبحكم أنه أمريكي، فهو دائماً وأبداً بريء.

الأجانب يشعلون الحروب، ويصنعون المخدرات ويصدّرون الإرهاب والأمراض المعدية والأوبئة.

الأمريكان يطهرون العالم من الدنس الذي يصنعه الآخرون. الأجانب يرتكبون الجرائم ضد الإنسانية. ولكن الأمريكان إذا أخطأوا فإنهم يفعلون ذلك بنية حسنة وسريرة طاهرة...».

■ ■ ■

يواصل الدكتور (لويس لافام) في مقالته، المنشورة في مجلة (هاربرز) الأمريكية، نقده للشعب الأمريكي الذي يصفه بأنه ينظر إلى الحياة السياسية على أنها مجموعة من الألاعيب المسلية، فيقول:

«حين رفعت (بولا جونز) باستهتار قضيتها المزرية ضد رئيس الولايات الأمريكية المتحدة، قررت المحكمة العليا بالإجماع، أن أي

تمييز بين رئيس الدولة وأيّ مواطن عادي وليكن سائق تاكسي في (واشنطن) انما هو أمر يتعارض مع روح الديموقراطية. وقد أثلج ذلك صدر المدعي الخاص (كنيث ستار) الذي استغله أبشع استغلال ليحصل على الاعتمادات المالية والصلاحيات القانونية، ليواصل حملته التفتيشية المسعورة في أعماق نفسيّة (كلنتون).

راح (ستار) يلاحق الشهود بهوس مشعوذ ديني، وقام بعملية ملاحقة بوليسية طويلة في أكثر أماكن (آركنسو) ظلاماً وريبة. ظل يشمشم ويستجوب. كان يبحث عن رجال البنوك اللصوص، والنساء المشبوهات اللائي تعْلق بهن سحب الفضيحة. ضرب معسكره في العراء - إذا صح القول - مدة أربع سنوات، لكنه لم يعثر على دليل واحد يؤيد اتهامه لـ (كلينتون) بالسرقة والتلاعب بالمال العام. إنما انعدام الدليل لم يكن له أية أهمية، لا عند المحاكم ولا (الكونغرس) ولا الجمهور المتابع للأخبار، وبالتأكيد ليس لدى وسائل الإعلام.

المهم أن إهانة (بيل) الوسيم، ملأت في تلك الوسائل الفراغ الذي كانت تملؤه محاكمة (أو. جي، سمبسون) ومن بعدها موت الأميرة (ديانا). كل ذلك باسم حق المواطن في أن يحصل على عنوان بارز لمادة مثيرة... (ستار) بوجهه الكئيب يحمل راية الدفاع عن الأخلاق. و(بيل) الوسيم رمز الفتى العصري. العهد القديم في مواجهة العهد الحديث.. (تكساس) في مواجهة (آركنسو).

رواية ضخمة، أضخم حتى من قصة فيلم (تايتنك). ضخمة إلى حد أن وزارة العدل لم تجد الشجاعة في أن تحرم (ستار) من الأربعين مليون دولار، التي هي عبارة عن المقدم الذي تدفعه دار النشر للكاتب للحصول على حقوق النشر. سوف تصدر الرواية

فيما بعد، في طبعات غالية وطبعات شعبية رخيصة.

دفعوا له المقدم وهم لا يعلمون كيف ستكون الرواية. (ستار) نفسه لم يكن يعلم. كان (الناشرون) في اللجنة القضائية التابعة للمجلس يتوقعون أن يقرأوا رواية عن قتلة ولصوص يخالطون مجموعة بغايا حول حمام السباحة في (Hot Springs). وكان المحررون في صحيفة (وول ستريت جورنال) وصحيفة الـ (نيويورك تايمز) يضرعون إلى الله أن يظهر شيء عن قضية (وايت ووتر) التي ظلوا ينفخون فيها النار صباح مساء طيلة ما يقرب من أربعة أعوام.

لكن كما حدث كثيراً في الماضي، فإن (ستار) فشل أن يقدم للناشرين نص الكتاب الذي تمنوه. لا لصوص. لا سرقة أموال. لا مؤامرة لقتل (فنسنت فوستر). لا تعامل مع مهربي مخدرات من (كولومبيا). لا تجارة سلاح مع الصين... ورغم ذلك فإن المدعي الخاص لم يخلف وعده في أن يقدم كتاباً يهز الدنيا ويكسر الأرقام القياسية في البيع.

في الوقت الذي بدا كما لو أنه لن يجد شيئاً، فجأة أسعفه الحظ. حدثت معجزة (لندا ترب) مثابرته وصبره كُلّلا بالنجاح. امتلأت كأسه بالقذارة والأوساخ حتى فاضت. سارع (ستار) فوضع على رأسه خوذة الفارس المحامي عن المثل العليا، وانطلق في سهول الـ (بتوماك) يلاحق نساءه السّبايا، حاملاً رمح الشرف والعفة ومشهراً سيف العقاب المخيف.

بحلول آخر شهر آب/أغسطس، كان المختصون في غسيل ضمير الشعب وتنقيته من الأدران، قد بدأوا يتحركون. يلمعون تعابير

السخط. يستثيرون رجال الدين. يتدربون على صرامة تعابير الوجه. وفجأة برز في مقدمة الصفوف السناتور (ليبرمان) من (كنتكت).

أخبر زملاءه في الكونغرس أن سلوك (كلينتون) البذيء بدأ يخيف تلميذات المدارس وعاملات الفنادق. وقال إنه لم يعد يستطيع أن يشاهد نشرات الأخبار مع ابنته الصغيرة البالغة من العمر عشر سنوات.

بنات المدارس! يا إلهي! كيف تحميهن من دعارة (بيل)! ودوّت الصيحة في ستوديوهات برامج اللغو أيام الأحد. السياسيون صارمو الوجوه مثل رجال الدين، ورجال الدين معسولو الحديث مثل السياسيين.

لم يذكر أحد منهم بالطبع حصص دروس الجنس في المدارس التي تُفرض على الأطفال في سن السادسة، ولا الطوفان من البرامج الإباحية الفاحشة، التي يستطيع أي طفل في الصفّ الابتدائي أن يحصل عليها من التلفزيون بمجرد أن يضغط على زر.

كانوا كلهم يتصنعون الوقار والرصانة. يحرصون على أن يهدّئوا من روع الصبايا الصغيرات في (أيوا) و(ألاباما) و(كنتكت). لا داعي للخوف. كل شيء سوف يعود كما كان. أول ما تصل توجيهات من مؤسسات استطلاع الرأي، فسوف يعرف الكونغرس كيف يتصرف. سوف يزحف إلى الأمام بتصميم وشجاعة كي يعيد إلى أمريكا طهارتها المُهددة وبراءتها التي كادت تضيع منها».

■ ■ ■

كان لا بدّ أن نُعرِّج ـ الفاتح والشوش وأنا ـ على محمد بن عيسى، فهو مذ رُسِّم سفيراً للمملكة المغربية في (واشنطن) أصبح منبع إشعاع جاذب، كما كان من قبل في الرباط.

وجدنا في داره الجميلة على أطراف المدينة، صُحبة كريمة. هشام ملحم وإدمون غريب، وهما صحافيان معروفان لهما نشاط واسع وخبرة عميقة بتقلبات السياسة الأمريكية. ومأمون فندي وحليم بركات وهما أستاذان في جامعة (جورج تاون).

«وكان واسطة العقد بروفسور إبراهيم العويس وهو من قدماء علماء الاقتصاد والعلاقات الدولية في جامعة (جورج تاون). رجل كثير الحكمة عميق الفكر، وقد حدثتكم من قبل عن صولاته في ندوة الحوار العربي الأمريكي في أصيلة...».

كنت حدثتكم عن مأمون فندي في زيارة سابقة، واتخذته مثلاً على نجاح الصعايدة في بر أمريكا. وجدته الآن، ما يزال يتشبث بـ(هويته) الصعيدية، في حديثه وسمته ـ إذا تحدث الإنجليزية، فكأنه ليس له لغة غيرها. وإذا تحدث الصعيدية فكأنه لم يبرح (نقادة) أبداً. وذلك ولا شك من مكر الصعايدة.

أما حليم بركات، فهو أستاذ عريق في جامعة (جورج تاون) وأنا أعرفه منذ مطلع الستينيات في بيروت. تزداد له حباً واحتراماً كلما عرفته أكثر. إنسان على خُلق عظيم. كاتب روائي مبرز، ومفكر ثاقب الفكر.

كان الحديث، كما يتوقع المرء في دار محمد بن عيسى سواء في

أصيله أو في الرباط أو في واشنطن، مليئاً بالمتعة والفائدة. وإذ إن قضية (كلينتون) و(مونيكا لوينسكي) كانت لم تزل متأججة في الصحافة والتلفزيون، فقد كان حتماً أن يتطرق إليها الحديث.

أدهشني بعض الدهشة لأنني كنت أقلّهم معرفة بأحوال أمريكا، إنهم، كلهم، أجمعوا على أن (كلينتون) من أكفأ الرؤساء الذين مرّوا على أمريكا. ومنهم من وصفه أنه (عبقري). وذكروا في تلك الأمسية أن (كلينتون) سوف يخرج من القضية كلّها دون خسائر تذكر. كان ذلك قبل انتخابات الـ (كونغرس). ويبدو الآن من النتائج، أن حدسهم لم يخطئ.

إنني دائماً ألجأ إلى محمد بن عيسى ليشرح لي تعقيدات حياة أمريكا وسياساتها. وفي زيارتي السابقة، أهدى إليّ مجموعة من الكتب، قرأت عدداً منها، ولكنني ازددت حيرة!

قضينا أيضاً أمسية كثيرة الفائدة في مركز الحوار العربي الذي أنشأه ويديره صديقنا الباسل صبحي غندور. هذا شاب يضطلع بعمل جريء نبيل حقاً، دون مساندة تُذكر، إلّا ما كان من طاقته وحماسته وإيمانه.

فتح في واشنطن ـ في آخر الدنيا ـ نافذة واسعة للحوار العربي ـ العربي، والعربي ـ الأمريكي. ولا أظنني أبالغ إذا قلت، إنه لا يوجد ـ حسب علمي ـ مركز مثل هذا، وظيفته الحوار، يركز عليه بمواصلة ومثابرة. لا يوجد مثله، لا في العالم العربي ولا في أي مكان آخر.

الهدف واضح، وهو أن يطرح العرب من مختلف الأقطار

والاتجاهات، آراءهم وقناعاتهم بحرية وصراحة، فيتعرف كل طرف على وجهة نظر الطرف الآخر، فيحل الوئام محل الخصام والصراع، وربما يصلون في نهاية الأمر إلى أرضية مشتركة.

ومن ناحية أخرى، ليتعرف الأمريكان على وجهات نظر العرب، كما يتعرف العرب على وجهات نظر الأمريكان.

مركز الحوار العربي في واشنطن يضطلع بمهمة جليلة تستدعي العون والدعم من كل من يهمه الأمر. وعندي أن العرب جميعاً، يجب أن يهمهم الأمر.

هذا، وقد كانت الأمسية التي حضرناها، مثلاً ناصعاً على هذا الحوار المفتوح. وجدنا محاضرين، أحدهما الدكتور هشام رضا، وهو رجل أكاديمي، وحفيد المصلح الاجتماعي الشهير محمد رشيد رضا. وقد تحدث عن المشروع الصهيوني كونه مشروعاً نجح واضعوه ـ منذ عهد (هيرتزل) في جعله حقيقة واقعة. وعدّد الظروف والأسباب لذلك النجاح.

في المقابل، تحدث المفكر اليمني المعروف الأستاذ قاسم علي الوزير، عن المشروع القومي العربي، منذ عهد جمال الدين الأفغاني، بوصفه مشروعاً لم ينجح الداعون له في تحقيقه، وذكر الأسباب التي أدت إلى ذلك.

وجدير بالذكر، أن الأستاذ قاسم الوزير، عدا كونه من كبار شعراء اليمن والعالم العربي، فهو أيضاً مفكر مرموق ومناضل سياسي على نهج والده الشيخ علي الوزير الذي يُعد من رواد حركة الإصلاح

في اليمن. وقد قضى حياة حافلة، منها أنه كان عاملاً فعّالاً في حركة المصالحة اليمنية التي قادها أخوه الأكبر إبراهيم الوزير عام ١٩٧٥. وشغل مناصب سياسية هامة منها منصب مستشار رئيس الجمهورية.

ذلك، وقد قضينا أيضاً، أمسية جميلة في دار الأستاذ نعيم نواس وزوجته الفاضلة مي نواس، وهما فلسطينيان من القدس، يمثلان في نظري منذ أن عرفتهما قبل نحو أربع سنوات في مؤتمر خريجي الجامعات الأمريكية، ذلك الصمود الفلسطيني الرائع، والقدرة على البقاء والاستمرار، مع سعة أفق ولطف وإنسانية في المعاملة. ولا عجب أنهما يديران مؤسسة السياحة التي يملكانها بنجاح عظيم.

وقد سرني أنني وجدت عندهما ذلك المقاتل الصنديد الدكتور كلوفيس مقصود وزوجته الفاضلة الدكتورة هالة سلام مقصود. هذا كما لا يخفى، فارس لا يشق له غبار، ظل وفياً لإيمانه بالوحدة العربية إذ كفر بها الناس، رافعاً رايتها التي سقطت من أيادي الآخرين. بدأت تظهر عليه علامات التعب والإرهاق من طول النضال، لكنه ما يزال صامداً يرفض أن يستسلم.

نبذة عن المؤلف

- ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

- تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

- عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

- التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

- متزوج وله ثلاث بنات.

- من مؤلفاته:

نخلة على الجدول.

دومة ود حامد.

عرس الزين.

موسم الهجرة إلى الشمال.

مريود وضو البيت.

مختارات

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!
٢ ـ المضيئون كالنجوم ـ من أعلام العرب والفرنجة
٣ ـ للمدن تفرد وحديث: الشرق